محمد المنسي قنديل

بيع نفيس بشرية

أربع قصص ليست قصيرة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

بيع نفس بشرية

أروع قصص ليست قصيرة..

محمد المنسي قنديل

عن الكتاب..

- «محمد المنسي قنديل كتب قصة عظيمة اسمها «بيع نفس بشرية»» – يوسف إدريس

- «قصص يمارس فيها الكاتب قدرته الفائقة – بأسلوبه المتميز – على الوصف والتحليل... «اتجاه واحد للشمس» و«بيع نفس بشرية» من خير القصص المحكمة والمبدعة فنيًّا... و«الوداعة والرعب» قصة أشبه برواية مكثفة» – عبد القادر القط

- «لغة متميزة سهلة، تُخفي وراء بساطتها عمقًا يجعل من القراءة متعة حقيقية» – عبد الله خيرتي

جمع هذا الكتاب أربع قصص ليست قصيرة، وهي: «بيع نفس بشرية» و«الوداعة والرعب» و«اتجاه واحد للشمس» و«يوم مصري جاف»، شرَّح فيها الطبيب المبدع محمد المنسي قنديل النفسَ الإنسانية في مواقف مصيرية تُجبر القارئ على التفكير فيها لمدة طويلة بعد انتهائه من قراءتها.

لاقت هذه القصص نجاحًا وترحيبًا في كل مرة نُشرت فيها، بل إن جريدة «الإندبندنت» البريطانية ترجمت قصة «بيع نفس بشرية»، ورأت أنها تنبأت بحرب الخليج. كما تحوَّلت «الوداعة والرعب» إلى فيلم سينمائي بعنوان «فتاة من إسرائيل» من بطولة محمود ياسين.

«بيع نفس بشرية» تجربة قاسية ومرثية من أجل حياة الآخرين» – محمد المنسي قنديل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

بيع نفس بشرية

الليل في المدن البعيدة غير أليف، رطب وحار ولزج.

انتهى مصطفى من طعامه في الميعاد نفسه مثل كل ليلة. يبدأ تناوله بلا جوع وينتهي منه دون شبع. في هذا الوقت من الليل لا يكون لديه ما يفعله غير هذا الطقس الرتيب. رفع الأطباق وأزال الفتات في عناية. وقبل أن يفتح الباب، أحدث أصواتًا عالية، ورأى الفئران وهي تسرع بالهرب، تصعد الدرج المؤدي إلى الدور العلوي حيث تنبعث روائح الكاري والقرنفل. وضع بقايا الطعام في صندوق القمامة، وأغلق الباب بعد أن تأكد أن الفئران لم تُحدِث فيه ثقبًا بعد. يومًا ما سوف يصنعون هذا الثقب وسيقتحمون غرفته. يقرضون الروايات الإنجليزية الرخيصة أولًا، ثم أسلاك الكهرباء وبقايا المعلبات، ويستوطنون داخل جهاز التلفزيون. أمسك كوب الشاي ووقف خلف زجاج النافذة يطل على البحر. الأضواء المنعكسة على سطحه ساكنة تمامًا، كأنها سماء أخرى كثيفة ومالحة.

قبل أن يبدأ في قتل الساعات أمام التلفزيون سمع صوتًا قادمًا من ناحية الباب، ليس طرقًا عاديًّا ولكنه أشبه بخمش الأظافر على الخشب. لا بد أن الفئران قد قررت أن تقوم بهجومها الأخير. نهض وهو يُحدِث نفس الضجة العالية. ولكن الأصوات المترددة استمرت، شخص ما لا يعرف الطريق إلى جرس الباب. وقف مصطفى مترددًا، منذ أن سكن هذه الحجرة الأشبه بصندوق لم يتلقَّ أي نوع من الزيارات، ربما كان واحدًا من زملائه المدرسين، أو شخصًا أخطأ العنوان. تقدم من الباب وفتحه. هناك شخص ما يقف في الظلمة، ضئيل الحجم، لا تبدو منه إلا عينان براقتان تحدقان فيه، أوسع قليلًا من عيون الفئران. ظل مصطفى صامتًا. تقدم الشخص الضئيل من خلال الظلمة وهتف في حرقة:

- أرجوك!

كانت فتاة، تتحدث الإنجليزية بلكنة غريبة. اقتربت أكثر، فرأى وجهها الآسيوي المائل للشحوب تحت ضوء الغرفة، جسدها الضئيل وشعرها الأسود المنسدل وأنفها الأفطس، وهي تواصل الهمس:

- أرجوك، ساعدني!

وقبل أن يفهم ماذا تريد، وقبل أن يقرر ماذا يفعل، مال جسدها الضئيل فجأة وهوى على الأرض، ارتطم في عنف ودون تصنُّع. أصبحت ساقاها خارج الغرفة، ورأسها في الداخل. وأسرع مصطفى يحملها. كانت خفيفة الوزن، أشبه بطفل صغير. وضعها فوق الفراش الوحيد.

كان يحسب أنها فاقدة الوعي، ولكنه سمعها تهتف:

- أغلِق الباب، أرجوك!

تذكر الفئران فأسرع بفعل ذلك. استدار إليها وهو يقول بالإنجليزية بلهجة حادة:

- من أنتِ؟

تطلعت إلى الضوء وقالت في توسل:

- سوف أقول لك كل شيء، ولكن أطفئ النور.

قال في إصرار:

- ليس قبل أن أعرف.

كانت تبكي. واكتشف أن وجهها مليء بالجروح الصغيرة الدامية.

قالت:

- الضوء يعرضنا للخطر!

أطفأ النور، أطفأ التلفزيون أيضًا، وساد ظلام مطبق. وظل مصطفى واقفًا في مكانه مستندًا إلى الباب غير قادر على الحركة. بدا له أن هذا الجسد الملقى على السرير بالغ الهشاشة، ولو اصطدم به من غير قصد فسوف يتحطم.

سمع صوت أقدام ثقيلة تصعد السلم في سرعة. تتوقف أمام باب الغرفة. تتناهى من خلفه أصوات تتمتم بكلمات خشنة، مليئة بالسباب والشتائم. نبرات قوية غريبة، لا يعرف بأي لغة تتحدث. كان هناك من يطاردها حقًّا، أكثر من واحد. أدرك - وهو الغريب - أنه قد أوقع نفسه في ورطة كبيرة، والشيء المنطقي الوحيد لكي يخلص نفسه، هو أن يفتح الباب لهؤلاء المطاردين ويسلمهم فريستهم. ولكن الأصوات الغاضبة الخشنة بعثت الخوف في نفسه أيضًا. تسرب جزء من خوفها إليه، وأصبح يشعر بأنه هو أيضًا مطارد بصورة أو بأخرى. وبعد فترة سمع صوت أقدامهم وهم يهبطون الدرج. سمع صرخات الفئران المذعورة. هتف بها في صوت خافت:

- هل هم من رجال الشرطة؟

قالت باكية:

- كلَّا، وأقسم على ذلك.

سار بحذر إلى النافذة. أزاح طرف الستارة حتى يستطيع أن يرى الشارع دون أن يلاحظه أحد. كانوا هناك، خمسة من الرجال الضخام، يرتدون ثيابًا بيضاء فوقها صدرية جلدية، وأحزمة معلقة فيها طلقات نارية متقاطعة فوق صدورهم، وفي أيديهم بنادق سريعة الطلقات. لم يكونوا من رجال الشرطة، ولكنهم كانوا أشد خطرًا وأكثر شراسة، أشبه بكلاب الصيد المدربة، ومن الغريب أنهم لم يشموا رائحة الفريسة حتى الآن. أخذوا يدورون في الميدان الواسع أمام البيت، يشيرون إلى مختلف الاتجاهات، تتعالى صيحاتهم الغاضبة ويتدافعون في الأزقة الجانبية ثم يعودون. يرفع أحدهم بصره إلى أعلى، فيتراجع مصطفى مذعورًا وهو يتمتم لنفسه: «هذه الفتاة مصيبة حقيقية، يجب أن أتخلص منها».

لكنه لم يدرِ ماذا يفعل الآن. كان خائفًا من إشعال الضوء، من أن يظل واقفًا هكذا عرضة لرصاصة طائشة. مجرد ثوانٍ وسوف يشمون رائحتها ويندفعون إلى غرفته. ولكنهم ذهبوا بعيدًا. حين جازف

ونظر من خلف الستارة مرة أخرى لم يجد أحدًا. لعلهم كامنون في مكان ما، ينتظرون أي خطأ أو أي إشارة. هتف بها في حنق:

- لقد ابتعدوا. اخرجي سريعًا. ابتعدي أنتِ أيضًا عن هنا.

لم ترد، ظلت متكومة. ظل واقفًا متحفزًا، لا يريد أن يتورط أكثر من هذا. أشعل الضوء. تحرك سريعًا حتى يُخرجها قبل أن يلاحظوا ذلك. هزها بعنف وهو يقول:

- اخرجي سريعًا. أسرعي.

لم ترد عليه أيضًا. مغمضة العينين، هامدة، فاقدة لأي لمسة من الحياة. هزها بقوة دون استجابة. وضع رأسه على صدرها. استمع إلى قلبها وهو يدق في وهن. حتى لو كانت فاقدة الوعي بالفعل، فلا يمكن المجازفة من أجل فتاة آسيوية غريبة، يكفي أنه لم يفتح الباب، ولم يستدعِ المطاردين. قدم لها أقصى ما يمكنه. لم يأتِ هنا ليتورط في مثل هذه الأمور. حملها بين ذراعيه. كل أعضائها مرخاة كأنها على وشك التفكك. فتح باب الغرفة، شاهد الفئران وهي تجري، هبط درجتين من السلم، ووضعها على الدرجة الثالثة، تركها للصدفة البحتة، ربما استعادت وعيها واستطاعت الهرب، وربما عادوا إليها وأخذوها.

أغلق الباب خلفه بإحكام وأطفأ النور، لم يجرؤ على رفع الستائر، ظل جالسًا، ووجد نفسه يرتعد رغمًا عنه. خُيل إليه أنه يسمع صوت تأوهاتها ووقع أقدامهم وصوت قرض الفئران. أخذ يؤكد لنفسه: «لا شأن لي، لا شأن لي بها أو بأي أحد». ما زالت في الفراش بقايا من دفء جسدها ورائحة عرقها. تذكر وجه أمه العجوز، وجوه إخوته التي تأمل ولا تملك إلا الصمت، أيام الانتظار الطويلة والحلم بالسفر، ومروق الطائرة وسط السحب الكثيفة، نفق انتقاله من عالم إلى عالم، من حلم إلى حلم. كل هذا لا يجب أن يضيع من أجل غلطة عابرة. القروش التي دبروها، الديون التي ما زالت تغل أعناقهم جميعًا. ولكنها هناك، في الخارج، على الدرجة الثالثة من السلم، تتقافز الفئران على شعرها، وينتظرها المطاردون في الخارج. ليسوا من رجال الشرطة، ولكنهم يبدون أكثر خطورة، من أهل هذه البلدة، يعرفون طرقها، ويمشون بأسلحتهم وأحزمة طلقاتهم في العلن. ومهما حدث فسوف يكون مخطئًا، وتكون هي أيضًا مخطئة. الغرباء دائمًا على خطأ. صمت ثقيل، حتى الفئران لم تعد تحدِث صوتًا. شعر بالوحشة. كان صوت الفئران قد تحول إلى جزء من دورة المؤانسة طوال الليل. حتى الفئران شعرت بالخوف، قال لنفسه في تأكيد: «سوف تفيق، وتسير مبتعدة عن بيتي وحياتي». ولكنه يشعر أنها ما زالت موجودة، تردد أنفاسها ووجيب قلبها الواهن يدويان في أذنيه. كيف اكتسبت هذه الأصوات الواهية كل هذه القوة؟! نهض، أشعل الضوء، فتح الباب. لم تكن هناك فئران، ولكن كانت هي هناك. وجهها إلى أعلى فاغرة الفم، كأنها تتوسل أو تحاول التقاط آخر أنفاس الحياة. كانت الفئران عطوفة عليها فلم تحاول الاقتراب منها. عاد هو يهزها ويهتف:

- لماذا لا تذهبين بعيدًا؟ لقد ذهب الرجال، هيا، انصرفي.

لم تبدِ استجابة. يدها باردة، وأنفاسها خافتة إلى حدِّ التوقف. ظل واقفًا عاجزًا عن أي تفكير منطقي. انحنى وحملها مرة أخرى. أصبحت أكثر خفة وأقل حياة. عاد إلى الغرفة، إلى الفراش الصغير

الضيق، وأغلق الباب. انحسر الفستان عن ساقيها النحيفتين. جروح كثيرة بعضها ما زال داميًا، كان اللحم متهتكًا، والدم الذي ينبجس منه قد لوث ملاءة السرير، ولوث ملابسه أيضًا. وضعت بصماتها الدامية في الحجرة، وسيشم كلاب الصيد هذه الرائحة ويعرفون أنه ضالع معها. ضاعت هدرًا أيام الوحدة والبعد عن المشاكل في هذه البلدة بلا أصدقاء ولا حياة اجتماعية! أحضر قليلًا من القطن الطبي، ونصف زجاجة من المطهرات. جلس بجانبها، وأخذ يطهر الجروح الفائرة. تأوهت وتمتمت بكلمات غريبة. نهض واقفًا في قلق وحاول أن يضع يده على فمها ليسكتها، أحس بالعرق البارد يغمر وجهها ويقسم شعرها إلى خصلات متباعدة. عاد ينظر من خلف الستارة في ترقب. لا بد أنهم مضوا بعيدًا، ولكن من يضمن أنهم لن يعودوا ويشاهدوا آثار الدم والقطن الملوث؟! كانت تنتفض، كأن حالة من الألم الممض تجتاح جسدها. تتمتم بكلمات سريعة، تنتزعها من داخلها، كأنها تستغيث بقوى مجهولة بلغة غريبة، برعدة متواصلة، بخوف قاتل يقف بها على حافة الاحتضار. أمسك يدها وحاول أن يحدثها، ولكن أبواب الموت كانت مفتوحة أمامها، ولعل هذه الانتفاضات هي خطواتها المترددة إليها. لم تمت، ولم يهدأ جسدها إلا بعد ساعة كاملة. ظلت عيناها مغلقتين، ولكنها كفت عن الارتعاش والهذيان. هدأ صوت تنفسها أخيرًا، بدأ إيقاع الحياة ينتظم داخل خلايا جسدها، أصبحت مجرد إنسانة نائمة، مجروحة قليلًا، معذبة كثيرًا، ولكنها أمامه مثل حقيقة مؤكدة.

ظل جالسًا على الأريكة المستطيلة المواجهة للسرير. أطفأ النور وظل صامتًا. كان يعرف أن الصباح يأتي مبكرًا وأكثر سطوعًا. ربما يستطيع التفاهم معها عندما تفيق، يجد لها وسيلة للخروج من غرفته في هدوء وإلى الأبد. كانت الفئران قد عادت للقرض من جديد، فأحس مصطفى ببعض من المؤانسة وأغمض عينيه.

فتح عينيه فرأى النهار ساطعًا. ما إن تشرق الشمس حتى تصبح متعامدة في وسط السماء. تأخر عن ميعاد المدرسة. التفت سريعًا إلى الفراش. لم يكن يحلم. ما زالت هناك. جسدها الضئيل ممدد، مسترخٍ، يتنفس في انتظام. نهض ونظر من خلف الستارة. دبت الحياة في الشارع وعليها أن تسرع بالانصراف. هزها فصرخت صرخة خافتة قبل أن تستيقظ. قال لها قبل أن تلتقط أنفاسها:

- يجب أن تذهبي من هنا فورًا، لا أريد أي مشاكل.

قالت في صوت خافت:

- إلى أين؟ أنا خائفة من أن يصطادوني.

هتف في ضيق:

- ليس هذا من شأني. أنا غريب في هذه البلدة مثلكِ تمامًا، لا أريد أي مشاكل.

هزت رأسها في استسلام:

- أعرف، لا أحد يحتمل المشاكل، سوف أمضي.

كانت تعرف الكلمات جيدًا. «لا مشاكل»، يتلقنها الجميع بكل اللغات في كل المطارات قبل أن يجرؤوا على أي حلم في بلد غريب. هبطت من فوق السرير، ولكنها قبل أن تخطو خطوة واحدة

صرخت من الألم وسقطت على الأرض. ها هي تحاول استعطافه مرة أخرى، ولكن الثوب انكشف عن ساقيها، وبدت آثار الجروح متورمة، تضاعف حجمها وأصبحت أكثر احتقانًا، ولم يملك إلا أن يجلس بجانبها وهو يهتف:

- من الذي فعل ذلك؟

قالت:

- كلاب.

ماذا تعني؟ كلاب حقيقية، أم هؤلاء الذين يطاردونها؟ المشكلة الآن أنها عاجزة عن الحركة، وهو عاجز عن حمايتها.

قال:

- لا أريد أن أبدو قاسيًا، ولكنني مدرس بسيط، وضعي حساس جدًّا. أنا لا أعرف من أنتِ ولا من يطاردكِ، ولا أريد أن أعرف. لا أستطيع فعل شيء لكِ. لو أنني سقطت أنا أيضًا فلن يمد لي أحد يده!

أومأت برأسها وهي تبكي:

- أعرف، أعرف.

الوقت يمضي سريعًا، وميعاد الحصة الأولى يقترب:

- يجب أن أذهب أنا أولًا، تأخرت عن ميعاد العمل. بعد ذلك أرجو أن تتصرفي بحيث لا يراكِ أحد، عندما أعود لا تكوني موجودة، مهما حدث يجب أن تتركي البيت.

أومأت برأسها وهي عاجزة عن التوقف عن البكاء. تركها كما هي على أرض الغرفة. لم يرد أن يلمسها حتى لا يولد هذا التلامس أي نوع من الإحساس بالتعاطف، أي بادرة من الضعف. ترك الغرفة مسرعًا دون أن يغلق الباب بالمفتاح، هبط إلى الشارع دون أن يغير ملابسه، لم يحلق لحيته أو يتناول فطوره، هرب إلى الصباح برطوبته الخانقة. كان السكن قريبًا من المدرسة وهذه ميزته الوحيدة.

وعلى باب المدرسة قابله وجه المدير الغاضب، كان أكثر قسوة وغضبًا على المدرسين منه على الطلبة. دخل مصطفى حصته الأولى متأخرًا. كان الطلبة أكثر سخفًا وأقل فهمًا، ألحوا عليه بالأسئلة الغامضة، حتى انتهت الحصة وهو يلهث. دخل الحصة الثانية قبل أن يسترد أنفاسه. رأى ساقيها المتورمتين. رآها تتعثر بين بقايا القمامة والفئران. حدقت فيه أعين الطلبة بلا رحمة. سأل الأذكياء منهم فقط حتى لا يستنفد طاقته مع الأغبياء. وفي الحصة الثالثة لم يستطع أن يقول شيئًا، طلب منهم أن يخرجوا كتب اللغة الإنجليزية ويقرأوا في صمت. ظل جالسًا والعرق البارد يغمر وجهه، حتى ضبطه المدير متلبسًا بالراحة. وفي حجرة المدرسين جلس بعيدًا عنهم، كانوا يتفقون معًا على سهرة مشتركة دون أن يدعوه، كفوا عن ذلك من كثرة ما ألحوا عليه وهو يرفض، ولكنه في هذه الليلة

بالذات كان يتمنى أن يدعوه أحد منهم، يأخذونه وسطهم لعله يحس قليلًا بالأمان. ظل صامتًا حتى جاء صالح وجلس بجانبه وهو يهتف:

- ماذا بك؟ يبدو عليك الإحساس الشديد بالذنب!

فوجئ بكلمات صالح وهو يضيف ضاحكًا:

- هل تحولت من مدرِّس إلى طالب بليد؟

صالح مدرس الفقه والشريعة، أحد أبناء البلدة، ربما كان هو المدرس الوحيد وسط بقية المدرسين الغرباء. كان مصطفى منجذبًا إليه لأنه مختلف عن الجميع، تخرج من الأزهر وما زال يعيش على عذوبة سنوات الدراسة. كان قد أكل خبز المجاورين، وضاجع كل بائعات التمر حنة، وحضر كل دروس الفقه، وشرب خمر الأزقة المغشوشة، ثم ارتدى قناع الهدوء الساكن وعاد إلى بلدته يعمل مدرسًا. ومنذ الأيام الأولى وقد تألفت بينه وبين مصطفى روابط خفية. كانا من سن واحدة تقريبًا، يتحدثان لغة مشتركة، وربما كانا أيضًا شركاء في التجارب نفسها. ولكن العلاقة لم تتعدَّ خارج أسوار المدرسة ولم تكتسب أي صيغة شخصية خاصة.

اليوم حاول مصطفى أن يتحدث معه، أن يزيد من قوة روابط المشاركة. لم يتصور أن وجهه يكشف بهذه السهولة عما يدور بداخله. لم ينقذهما من الحديث المتعثر إلا رنين الجرس يعلن انتهاء فترة الراحة.

- نلتقي بعد الدراسة.

قال صالح وهو يمضي. وكان مصطفى يخشى نهاية اليوم، لحظة العودة إلى البيت. مضت بقية الحصص وهو منوم، وكان صالح ينتظره بسيارته على باب المدرسة، فلم يجد بُدًّا من الركوب معه. كانت الحرارة لا تطاق، وظلَّا ينطلقان في الشوارع المشمسة شبه الخالية.

فجأة شاهد مصطفى أحد الرجال، ربما كان منهم أو يشبههم، يقف على الرصيف يحدق في السيارات المسرعة، لا يهتم بالقيظ، نفس الثوب والصدرية الجلدية وأحزمة الطلقات المتقاطعة فوق الصدر والبندقية في يده، واقفًا مثل وثن قديم. ووجد مصطفى نفسه وهو يغوص في المقعد، خوفًا من أن يراه الرجل، أو يشم رائحته، رائحتها. وهتف صالح:

- ماذا بك؟

أشار مصطفى إلى الرجل:

- من هذا الرجل؟ أرى كثيرين مثله يحملون أسلحة وطلقات بشكل علني، ولكنهم ليسوا من رجال الشرطة!

ضحك صالح وهو يقول:

- مظهره مخيف، والمفروض أن يكون كذلك؛ إنه كلب شيخ.

هتف مصطفى:

- ماذا؟!

- إنهم الحرس الخصوصي لبعض الشيوخ، «بودي جارد» يعني، نحن نطلق عليهم «كلب شيخ»، الشيوخ المهمون فقط بطبيعة الحال، وأهمية الشيخ تبدو من مدى تقدم السلاح الموجود في يد حارسه.

صمت مصطفى. عاد يتأمل وجه الرجل، أذنيه المشرئبتين لالتقاط أي صوت، وفكه البارز للأمام مع لحيته الصغيرة المدببة، لكن الغريب هما فتحتا الأنف المتجهتان إلى أعلى كأنهما أعدتا لاقتناص أي رائحة، كلب صيد حقيقي. لا بد أن هذه الفتاة هاربة من قبضة أحد الشيوخ المهمين، يبدو ذلك واضحًا من منظر كلاب الصيد الذين كانوا يحاصرون المنطقة. ليتها تكون قد رحلت. بلع مصطفى ريقه وهو يعاود السؤال:

- كم شيخًا في البلدة؟

ضحك صالح:

- لقد بدأت تتحدث في الأمور الداخلية لأول مرة في حياتك، وهو أمر لا يعنيك، بل ربما يسيء إليك. على أي حال الشيوخ كثيرون، لكنَّ المهمين منهم قليلون.

وصلا إلى البيت. هبط مصطفى ولوح بيده لصالح. ظل واقفًا حتى انصرفت السيارة، وظل مترددًا في الدخول. ألقى على نفسه السؤال الذي كان يؤجله طوال اليوم: «هل غادرت البيت حقًّا؟». تخيل عينيها الباكيتين وهي تؤكد له أنها ستنصرف، وساقيها المتورمتين وهما تؤكدان العكس. خرج من باب البيت مجموعة من الهنود الذين يسكنون فوقه، يرتدون العمائم الملونة ويربطونها بالسيور حول لحاهم الطويلة غير المشذبة، انحنوا له واشتم رائحة الكاري والقرنفل المنبعثة من كلٍّ منهم. كان من السخف أن يبقى في الخارج هكذا، صعد السلم وفتح الباب. كانت هناك نائمة فوق الفراش. ظل واقفًا تتدافع داخله مشاعر الغضب والخوف. رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين عاجزتين. وجهها الأصفر محتقن بحمرة داكنة، وشفتاها الجافتان شديدتا البياض. هتفت في صوت واهن:

- لم أستطع.

انحدرت عيناه إلى ساقيها. كانت في حاجة إلى طبيب، ولكن كيف يمكن أن يفعل ذلك؟ جلس محبطًا على أحد المقاعد وهو يتمتم:

- ألا يمكنكِ الذهاب إلى أحد المستشفيات؟

ظلت تحدق فيه. ابتسمت في استعطاف أن يبادلها الابتسام. سألها فجأة:

- ما اسمه؟ أعني ذلك الشيخ الذي هربتِ منه.

نظرت إليه في فزع ثم أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى. كانت خائفة من أن يشي بها. هو نفسه لا يدري لماذا سألها هذا السؤال. تذكر ابتسامة صالح المحذرة وهو يقول له إنه يتدخل في الأمور

الداخلية. أصبح في مأزق حقيقي. نهض فجأة متجهًا إلى الباب، وقبل أن يغادر الغرفة رأى عينيها وهما تتبعانه في فزع حقيقي.

كان القيظ رهيبًا في الخارج، ولم يستطع أن يفتح عينيه من شدة الضوء، والتقط أنفاسه بصعوبة. هل يذهب إلى المكان الذي رأى فيه كلب شيخ؟ حتى لو كان كلبًا ينتمي إلى شيخ مختلف، فيمكنه بلا شك التفاهم مع كلاب الشيوخ الآخرين. ولكن كيف يبرر قضاءها الليل كله في غرفته؟ سار إلى شارع جانبي، دخل صيدلية كانت تستعد للإغلاق، اشترى قطنًا وشاشًا ومطهرات ومضادًّا حيويًّا ومخفضات للحرارة. وضع الأشياء في كيس بإحكام وتلفت في حذر وهو متجه إلى البيت. وعندما صعد السلم ودخل الغرفة، أدرك أنه قد أصبح شريكًا معها بإرادته. حدقت فيه وهو يدخل غير مصدقة أنه ليس هناك من يتبعه. تنهدت في ارتياح عندما شاهدته يُخرج علب الدواء، ويزيح الثوب عن ساقيها، وينظف آثار الجرح ويلفه بالشاش. ساعدها على النهوض، وأعطاها جرعة من المضاد الحيوي. قالت بامتنان حقيقي:

- شكرًا، أنت أخ أكبر.

قال لها:

- ما اسمك؟

قالت:

- ماتيلدا. أنا فلبينية.

كان من العبث أن يشرح لها لماذا يفعل معها هذا. هو نفسه لا يعرف. هناك شخص آخر بداخله يتصرف ضد العقل وضد المنطق.

قال:

- هل أنتِ جائعة؟

هزت رأسها في نفي:

- لا أستطيع الأكل، لا أقدر على ذلك.

من الصعب أن يتصرف بطبيعته في حدود هذا المكان الضيق، وهاتان العينان تراقبانه. لم يسترح إلا عندما أغمضت عينيها. غرقت في النوم، ربما لأنها أحست بالأمان وأن أوان الوشاية بها قد فات.

غيَّر ملابسه، وتناول قليلًا من الطعام، وقرأ قليلًا في إحدى الروايات الإنجليزية المليئة بالحركة، ثم غفا على الأريكة المستطيلة المواجهة لها، وعندما استيقظ كان المساء قد أقبل، وهي راقدة أمامه مفتوحة العينين. ابتسمت فبادلها الابتسام للمرة الأولى. قالت في همس:

- أخ أكبر.

قال:

- اسمي مصطفى.

حاولت أن تردد الاسم ولكنه كان صعبًا عليها، وعندما نجحت في نطقه بطريقة مضحكة، تحسنت حالتها فجأة، أكلت قليلًا وتناولت الدواء، وظلت تحدق صامتة في شاشة التلفزيون. وجلس مصطفى بجانب النافذة. أطبق الظلام على المدينة، ولم تكن في الشارع حركة غير عادية. نفس الأشخاص الذين يمرون كل ليلة، في طريقهم إلى لحظات وحدتهم الطويلة خلف الجدران، بعد ذلك لا يبقى من أصوات الليل إلا أصوات السيارات المارقة وهدير المكيفات. تأملته ماتيلدا طويلًا قبل أن تقول:

- أخ أكبر.

قال:

- مصطفى.

- موستافى، أود أن أقول شيئًا، لقد سألتني عن اسم ذلك الشيخ.

- لا يهم.

- إنني أثق بك أخ أكبر موستافى، وأستطيع أن أقول لك اسمه.

نطقت اسم الشيخ أكثر من مرة حتى استطاع التعرف على النطق الصحيح، وفي النهاية لم يكن الاسم يعني لديه شيئًا.

قال:

- لا أعرفه.

صمتت قليلًا ثم قالت بتردد:

- هل أقص عليك كل شيء؟

لم يكن يريد أن يعرف أي شيء، يكفي هذا القدر من التورط. قال بتردد هو أيضًا:

- ربما لن أستطيع أن أفهم.

- إنني خادمته الخاصة.

وصمتت قليلًا كأنها تبحث عن الكلمة المناسبة:

- وعشيقته المفضلة.

كان وجهها صغيرًا لامباليًا، بينما احمر وجهه بشدة.

- كنت عشيقته المفضلة، أو لعلني كنت أحسب ذلك.

لم يكن هناك أي خجل من الاعتراف، وقاوم مصطفى فضوله قليلًا ثم قال:

تضاجعني بينما يكتفي هو بالتأمل!

صاح مصطفى في وجهها:

- هل تقولين الحقيقة؟ ألستِ تكذبين؟

- أقسم إن هذا هو ما حدث.

كان من الصعب أن يصدق، لكنها تواصل الكلام في إصرار، خليط من العربية والإنجليزية والفلبينية. لم يكن يستطيع متابعة كل التفاصيل، ولكنها كانت ترتعد من الحمى والانفعال. كلامها ينفذ إليه دون أن يفهمه. أحس أنه في حاجة إلى الهواء النقي. البقع السوداء تتراقص أمام عينيه، رائحتها تنبعث من هواء المكيف الذي يطن بصوت مزعج. فتح ستائر النافذة قليلًا فوجدهم يتجولون في وسط الشارع، كلاب الصيد إياهم، بأحزمة الرصاص المتقاطعة والبنادق، ربما كانت رائحة الفريسة قد قادتهم إلى المكان مرة أخرى. أشار إليها أن تصمت. أطفأ الضوء والتلفزيون، وأحكم إغلاق الباب. سمعها تبكي في صوت خافت مقهور وهي تقول:

- أخ أكبر، لا تتركني، لا تسلمني لهم!

جلس بجوارها على الفراش. اهتز جسدها في رعدة متواصلة. أمسك يدها المبللة بالعرق البارد وهمس:

- لا تبكي.

ولكنها واصلت البكاء في صوت مكتوم.

لم يخلُ الشارع من الناس والحرس إلا بعد ساعتين مخيفتين. كان جسدها ملتصقًا به مثل طفل يطلب الحماية. وأخيرًا استطاع أن يشعل الضوء، وأن يهتف بها:

- ماذا أفعل؟ وجودكِ هنا غاية في الخطر. إنهم يعرفون أنك تختبئين في المنطقة.

قالت وهي تجفف دموعها:

- هناك بعض الأصدقاء الذين يمكنهم أن يساعدوني. سأعطيك رقم تلفونهم أخ أكبر، اتصل بهم وسيأتون لأخذي.

- هل هم عرب؟

- كلَّا، فلبينيون مثلي، إخوتي تقريبًا. نحن في الغربة نكون إخوة.

- هل يمكن الثقة بهم؟

- يجب أن أثق بهم أخ أكبر. إنهم خلاصي الوحيد. لقد تقاسمنا قصعة الأرز معًا وتعاهدنا على ذلك.

كانت متشبثة بذراعه كأنها على وشك الغرق. ظلت تحدق فيه بعينيها المتوسلتين، حتى قال:

- حسنًا، سوف أتصل بهم.

جلسا هادئين، وظل هو يراقب الطريق كل فترة من الزمن.

في الصباح كانت أحسن حالًا. استيقظ في ميعاده المبكر فوجدها مستيقظة. أكلا معًا، وتبادلا كلمات سريعة، وأحس بنوع ودود من المشاركة. كتبت له الرقم واسم الشخص الذي سيتصل به على ورقة صغيرة، فدسها في أسفل جيبه. كانت ملامحها أكثر رقة، ولكنه لم يستطع أن ينسى جسدها المليء بالحروق.

قالت وهو يستعد للخروج:

- أوه أخ أكبر، أنا طاهية ماهرة. أود لو أستطيع الوقوف.

رفع إصبعه محذرًا:

- أنا أيضًا طاهٍ ماهر، ولكن ليس لدينا ما يمكن طهيه، كلها معلبات. ولكن تذكري، لا صوت، لا تلفزيون!

رفعت يدها وهي تقول:

- أعدك أخ أكبر.

- مصطفى.

- موستافى.

وهو يهبط السلم ضبط نفسه مبتسمًا. كيف يمكن أن يداخله هذا الشعور المريح وهو يسير على حافة الخطر؟ هل الإحساس بالوحدة كان أكثر سوءًا؟ اكتشف أنه لأول مرة في الليلة الفائتة لم يسمع صوت الفئران. سمع فقط صوت تنفس ماتيلدا وتأوهاتها الخفية وكلماتها الغامضة. كان النهار ما زال رماديًّا، والشمس لم تكشر عن أنيابها بعد. وجد صالح في انتظاره أمام باب البيت في سيارته، قال مبتسمًا:

- كنت مارًّا بالقرب من هنا، قلت أنتظرك بدلًا من أن تذهب متأخرًا كالأمس وتُغضب مديرنا الهمام. كيف حالك؟

أخبره مصطفى أنه بخير. أضاف صالح:

- يبدو هذا واضحًا. بالأمس كان منظرك مروعًا.

رغم بساطة الموقف ظل مصطفى متوجسًا، يحاول أن يفهم ما هو خلف كل كلمة من هذه الكلمات. قرر أن يباغته هو بالهجوم، أن يكشف بعضًا من أوراقه، ولكن كيف يمكن أن يتم ذلك دون خسائر؟ قال:

- هل تعرف الشيخ المحجوب؟

رفع صالح حاجبه وهو يقول:

- ومن لا يعرفه؟ إنه أهم شخصية في البلدة، قصره هو المطل على خور البحر. ابنه عندنا في المدرسة.

لم يستطع مصطفى أن يخفي دهشته:

- ماذا؟!

- أجل، اسمه جاسم على ما أظن. كنت أظنك تعرف ذلك. لعله في أحد الفصول التي تقوم بالتدريس فيها. ولكن لماذا تسأل عنه؟

- لا شيء. سمعتهم يتحدثون عنه في المدرسة.

- عن مجلسه بلا شك، له مجلس مشهور يحضره الجميع.

بنفس البساطة والعفوية انتقل صالح إلى موضوع آخر. وصلت السيارة إلى المدرسة. كانت صفوف الطلبة طويلة ومتشابهة، المدير يقف في صرامة يوجه نظرات التهديد للمدرسين. انتهز فرصة غفلة المدير وتسلل إلى غرفة المدرسين. أخرج قوائم الفصول التي يقوم بالتدريس فيها، وأخذ يراجع الأسماء. في الصف الثالث وجد الاسم، جاسم المحجوب، بلا ألقاب. ترى هل هو على الدرجة نفسها من الشراهة ويلسع زملاءه بأعقاب السجائر؟ جاهد حتى يستحضر صورته في ذهنه. كان الاسم شائعًا إلى درجة كبيرة. سوف يراه اليوم في الحصة الرابعة. ولكن ما جدوى ذلك؟

تناقص إحساسه بالذنب، لم يعد بنفس الحدة الماضية. عاد إلى الطابور، حدجه المدير بنفس النظرة القاسية. انسحب الجميع إلى الفصول. أثناء الدرس كان مصطفى يتحدث بسرعة لعل إحساسه بمرور الوقت يكون أقل. نصف الطلبة على الأقل لم يكونوا يتابعونه. آثار السهر الطويل أمام أجهزة الفيديو كانت واضحة في أعينهم، يتثاءبون في صوت مسموع، ويعلنون عن رفضهم للدرس بإيماءات واضحة. ولكنه ظل يواصل الشرح كأنه يلهث. وجاءت الحصة الثانية والثالثة وهو يشعر أنه غائب عن وعيه، يتحدث بلغة لا يفهمها أحد، كان الإنهاك قد تسلل إلى روحه. وفي غرفة المدرسين أثناء فترة الاستراحة جلس صالح بجانبه وهو يقول:

- ما رأيك أن نخرج في نزهة بالسيارة الليلة؟ إنها ليلة مقمرة.

- أين نذهب؟

- إلى أي مكان، ربما ذهبنا إلى الخور. هل رأيته من قبل؟

لم يكن قد رآه. لذلك وافق على أن يأتي صالح ويقف تحت نافذته ويطلق بوق سيارته. أراد أن يتصرف بصورة طبيعية، يريد أن يؤكد له أنه لا يوجد ما يخفيه. كان متعبًا، وعليه أن يمضي الآن إلى الحصة الرابعة. حاول أن يكون طبيعيًّا وهو يدخل الصف الثالث الذي دخله قبل الآن عشرات المرات. الطلبة متشابهون، ولا يوجد غرباء في هذا الفصل بالذات. من أول وهلة عرفه على الفور. أدرك أنه كان يعرفه من البداية. يحس بهالة القوة التي تحيط به في جلسته المنعزلة، في الطريقة المتعالية التي يتحدث بها مع الآخرين. لا بد أن للقوة صفات تنتقل بها عبر اللحم والدم. كان يجلس هادئًا، يحدق من خلال النافذة القريبة منه، يبدو كأنه غير مكترث بما يحيط به. ولا يذكر مصطفى أنه

احتك به أو جعله يقف ليجيب عن أي سؤال. كان ثوبه الأبيض أكثر نصاعة، لعل هذا من أثر انعكاس الضوء أو من الوهم. كيف يمكن أن تتداخل خيوط المصادفات في مثل هذه المدينة الصغيرة بهذا التعقيد؟ منذ برهة كان مدرسًا بسيطًا ومعزولًا، لكنه الآن يشعر أنه يجوس داخل بيت العنكبوت دون أن يجد مخرجًا. شرح درسًا قديمًا، كرر نفس الكلمات تقريبًا، ولم يفطن أحد من الطلبة إلى ذلك. اكتشف أنه طوال الحصة كان متوجهًا إلى هذا الطالب، يحاول أن يؤكد له أنه مدرس جيد، ولكن الطالب ظل على الدرجة نفسها من اللامبالاة وقلة الاكتراث. أخذ مصطفى يسأل الطلبة واحدًا واحدًا. كان حادًّا في سخريته، لا يغفر خطأ، وكان قاسيًا حتى على الطلبة المجدين. وعندما وصل إليه أدرك أنه فعل هذا من أجل أن يسأله هذا السؤال، من أجل أن يجعله يقف أمامه أخيرًا ويختبر مدى قوته، ولكن جاسم قال في بساطة:

- لا أعرف.

لم يكن هناك أي إحساس بالتغابي، وتوقفت كلمات السخرية في فم مصطفى، وقال في بلاهة:

- لماذا؟

قال جاسم في حزم:

- لأنني لا أعرف.

وبدأ يستعد للجلوس، وأسرع مصطفى يحدثه، يلقنه بدايات الإجابة، لا يطلب منه فقط غير إيماءات الموافقة، يحاول أن يضع على فمه إجابة وهمية لم ينطق بها، وحتى هذا لم يفعله جاسم. وقال مصطفى في النهاية:

- أنت طالب ذكي، ولكنك في حاجة إلى قليل من التركيز.

وانسحب من الحصة مهزومًا.

ظل جالسًا وحيدًا في غرفة المدرسين. كان جدوله خاليًا بعد هذه الحصة، ولم يستدعه المدير لشغل أي واحدة احتياطية. حاول أن يشغل نفسه بتصحيح الكراسات، ولكن بصره وقع على التلفون الأخضر، كان موجودًا على حافة المنضدة أمامه مباشرة، وبحث في أعماق جيبه حتى أخرج الرقم، وظل مترددًا قليلًا، ولكنه أدرك أنه لا يوجد أمامه إلا أن يتحدث في هذا التلفون، أو يخبر الغلام أن طريدة أبيه ترقد في حجرته.

أدار الرقم، ورن جرس التلفون طويلًا قبل أن يرفع أحدهم السماعة من الجهة الأخرى، وجاء الصوت بالإنجليزية، بنفس اللكنة الآسيوية، ونظر مصطفى حوله ليتأكد من أن الغرفة خالية، ثم هتف:

- أنا أتحدث بخصوص ماتيلدا.

قال الصوت الآخر مدهوشًا ومرعوبًا:

- من أنت؟ هل أنت من طرف الشيخ المحجوب؟

وفي كلمات سريعة أخبره مصطفى بقصة هروبها. وصمت الصوت الآخر تمامًا، حتى خَيل إلى مصطفى أنه غير موجود، وبعد برهة قال مترددًا:

- إنها الآن هاربة، وتريد منا أن نعاونها؟

- أجل، ويجب أن يتم ذلك سريعًا.

وساد الصمت المطبق من جديد. ثم هتف الصوت الآخر:

- لحظة واحدة.

وسمع مصطفى غمغمات كثيرة متداخلة، سمع صرخة امرأة، وحديثًا خشنًا يتبادله رجال متوترون، ثم عاد الصوت يقول:

- هل يمكن أن تصف لنا المكان؟

كانت معظم شوارع المدينة تخلو من الأسماء. وصف البيت، والميدان الواقع أمامه، والحي الذي يحيط به. وكان الوصف صعبًا إلا على من يعرف تضاريس المدينة جيدًا. وقال الرجل أخيرًا:

- لقد عرفت المكان، ولكن لماذا فعلت ذلك؟

- لا أدري. كل ما أريده هو أن تأتوا لتأخذوها. إنها عاجزة تقريبًا عن السير.

- سوف نأتي غدًا، مساءً.

قال مصطفى في ضيق:

- وماذا عن اليوم؟!

هتف الصوت الآخر:

- هذه الفتاة الحمقاء وضعتنا في ورطة حقيقية. يجب أن ندبر أمر نقلها سرًّا، وهذه مسألة صعبة.

وحاول أن يتحكم في انفعاله وهو يضيف:

- أنا آسف، هل يعرف أحد غيرك بالأمر؟

- كلَّا.

- لا تخبر أحدًا أرجوك، سوف نأتي لنأخذها، غدًا.

وأغلق الخط قبل أن يغلقه مصطفى. أحس بالراحة الشديدة. يوم واحد وينزاح هذا الكابوس. يخرج من بيت العنكبوت ويعود إلى وحدته الخالية من المشاكل.

وفي نهاية اليوم أوصله صالح، وتواعدا على اللقاء في المساء. اشترى مصطفى بعضًا من الأطعمة والفواكه، وتلفت في حذر قبل أن يدخل المنزل. وفي الغرفة وجدها جالسة على الأريكة المستطيلة، وجهها أكثر إشراقًا وطفولية، وابتسامتها صغيرة وعذبة.

قالت ضاحكة:

- أخ أكبر موستافى، كنت أراقبك من خلف الستارة.

قال فزعًا:

- هل رآكِ أحد؟

- كلَّا، مجرد شق صغير يكفي دودة صغيرة. أنا متأكدة أن أحدًا لم يرني.

وضع الطعام داخل الثلاجة. ألقى نظرة على ساقيها. قالت على الفور:

- لقد تمشيت قليلًا. انظر.

حاولت النهوض ولكن جسمها لم يتوازن، مالت في حركة مفاجئة وأوشكت على السقوط. أسرع يسندها وهي تقول ضاحكة:

- أنا بخير أخ أكبر.

ساعدها على الجلوس وهو يقول:

- لقد اتصلت بأصدقائك، وسيأتون لأخذكِ غدًا في المساء.

ضحكت في سعادة، وأكلت بشهية، وتحدثت بانطلاق، وتناولت الدواء. فكر مصطفى: لو أنه تعرف عليها في ظروف أخرى!

قال:

- سوف أخرج هذا المساء في نزهة مع صديق. أرجو أن تأخذي احتياطك حتى لا يلحظك أحد.

أومأت برأسها في امتنان، ثم قفزت فجأة وقبَّلته في خده بامتنان حقيقي، وهي تقول:

- أخ أكبر، شكرًا لك. نحن غرباء حقًّا، ولكنني لن أنسى لك ذلك أبدًا.

أصرت أن تترك له السرير ليتمدد فوقه قليلًا، وبقيت هي جالسة فوق الأريكة المستطيلة تتأمله. نام على ظهره، كان الطلاء المتساقط من سقف الغرفة يُكوِّن أشكالًا غريبة: خرائط لبلاد مجهولة، كلمات غامضة، جسدًا مصابًا بالعطب. ترى لماذا تحملت كل هذا العدد من الندوب السوداء؟ لماذا قضت كل هذه الليالي في انتظاره وهي تعلم أن جسدها سوف يكون مطفأة سيجارته الأخيرة؟ هل إذا حتمت الظروف يمكن أن يجعل من جسده مطفأة؟ قال في صوت خافت: «ما أمرَّ أن نكون غرباء، والأشد غرابة أن نتكالب على هذه الغربة حتى نُخرج أسوأ ما فينا، من أجل أن آخذ مكاني على الطائرة فعلت أشياء كثيرة لم أكن أتصور أن أقوم بها، كذبت على الأصدقاء الذين كانوا يسبقونني في الأقدمية، وتخليت عن خطيبتي التي كانت تحدثني عن فضائل الفقر وأخلاق البسطاء التي لم تفسدها المادة، نافقت حضرة الناظر، وغازلت ابنته العانس، وطأطأت رأسي أمام المفتش، وتذللت لهم في المنطقة التعليمية. كان البيت الذي أعيش فيه رطبًا، مليئًا بالوجوه الشاحبة، ومات أبي وترك لي العديد من

الأفواه الفاغرة، الأشياء الوحيدة التي كان يجيد إنجابها. كان نساجًا يدويًّا، علمني بالاستدانة، وتخرجت عاجزًا عن سداد حتى أبسط الديون. عشت غريبًا في المكان نفسه الذي وُلِدتُ فيه، وسط فقراء يتصارعون مع فقراء على الفتات».

حدقت فيه بعينين براقتين، تحاول عبثًا أن تتابعه. كان يتحدث بالعربية، جاء دوره هو أيضًا في الهذيان. أغمض عينيه وأخذ يستمع إلى صوت تنفسه، كان صدره ثقيلًا، تجثم فوقه عشرات الذكريات القديمة: شارع قديم له رائحة العطن، يهبط الليل فوق بيوته أسرع مما يهبط على بقية المدينة، محملًا بذرات من السناج، تلقي النسوة بماء الغسيل أمام البيوت ثم يجلسن على الأعتاب بعد أن يهدأ التراب قليلًا، لعل هناك نسمة باردة من الهواء، لا ينتظرن شيئًا لأنهن يعرفن أنه لا شيء قادم ولا شيء يتغير. ولا بد أنه قد غفا طويلًا، فقد استيقظ وماتيلدا تهتف مذعورة:

- هناك سيارة تحت النافذة، بوقها يدوي في إلحاح!

سيارة صالح. أشار إليه أنه سوف يهبط وهو ما يزال مخدرًا من أثر النوم. ألقى عليها التحذيرات المعتادة، وهبط السلم. فتح له صالح باب السيارة وهو يسأله:

- هل كان معك أحد في الغرفة؟

طارت بقايا النوم من رأس مصطفى:

- كلَّا.

قال صالح ببساطة وقد تقبل إنكاره:

- خُيل إليَّ أن أحدًا ينظر من خلف الستارة قبل أن تنظر أنت، ربما كان هواء المكيف هو الذي جعل الستارة تتراقص.

مضت السيارة بهما. غاصا معًا في الشوارع التي بدأت تخلو إلا من السيارات المسرعة. كانت الأضواء تحاول انتزاع هذه البقعة من الأرض من ظلام الصحراء المترامية، والبحر الذي حاصرها من كل ناحية بالمباني التي برزت وارتفعت فجأة، وأمامها يمتد البحر ساكنًا ومستسلمًا بلا موج. السيارة تمضي بهما مسرعة لا تكاد تلامس الأرض، كأن صالح يهرب من شيء ما، يترك المدينة خلف ظهره ويمضي مبتعدًا. قال مصطفى وهو يراقب عداد السرعة:

- إلى أين سنذهب؟

قال صالح:

- ألم أقل؟ سوف نذهب إلى خور الشيخ المحجوب. إنها ليلة مقمرة.

هل يعرف صالح شيئًا؟ هل يشك في شيء ويريد أن يوقع به، أم أنها المصادفة مرة أخرى؟ في النهاية، صالح جزء منهم، رغم هدوئه ودماثته فهو حامل لأسرارهم الخفية، مثله مثل المدينة التي تبدو من الخارج ساكنة هادئة، ولكن نفاياتها تضطرم في داخلها مثل كل المدن! ترى هل يشارك صالح في صنع أنشوطة ما سوف تلتف حول عنقه؟

تركت السيارة المدينة، ودخلت حافة الصحراء كثيفة الظلمة. وما لبث الأسفلت أن انتهى، وتقافزت السيارة فوق مدكٍّ صخري، وأخذت تسير بصعوبة.

صالح يعرف الطريق جيدًا، بداخله بوصلة صحراوية. وبعد سير طويل توقفت السيارة. أحس مصطفى أن الجو قد تغيَّر. تبددت رطوبة المدينة الخانقة، وأصبح صوت البحر هادرًا، مفعمًا بالحياة، تخلى عن استكانته وأخذ يلاطم الصخر كما تفعل كل بحار العالم غير المستأنسة. أحس مصطفى أنه قد عبر الحدود إلى عالم آخر، أقل اختناقًا وأكثر حيوية. همس مدهوشًا:

- ما هذا المكان؟

- هذا هو الخور. انظر إلى أعلى.

هناك تل مرتفع فوق سطح البحر، حيوان صخري رابض على الشاطئ في مواجهة الأمواج، وعلى قمته دائرة من الأضواء الكثيرة المتألقة.

قال صالح:

- هذا هو قصر الشيخ المحجوب.

أحس مصطفى أنه سوف يظل مطاردًا حتى لو غادرت ماتيلدا مسكنه. كان صالح هو الذي تحدث متبرمًا:

- هيا نبتعد قليلًا، لا أريد أن أرى ضوءًا من أضوائهم، ولا أريدهم أن يرصدوا أضواء سيارتي.

أعطيا ظهريهما للقصر وسارا مبتعدين، خاضا في ظلام الشاطئ المبلل. كانت الأمواج تتمطى تحت ضوء القمر، تغمر كثبان الرمل المطفأة، وتمنحها نوعًا من التألق الداخلي. سحر خافت يتلبس من يقف في هذا المكان، تواصُل حار وفريد بينه وبين جبروت البحر دون حاجز أو وسيط، حتى في الصمت تتحدث عشرات الأصوات. قال مصطفى مأخوذًا بسحر المكان:

- لماذا لم يقيموا المدينة في هذا المكان؟

تمتم صالح بصوت خافت ومع ذلك سمعه مصطفى:

- إنهم يقيمون لنا المدن في الأماكن التي لا نحبها، ويختارون لنا نمط الحياة التي نكرهها، ويدفعون لنا أجرًا مضاعفًا حتى ننام أكثر ونفكر أقل ونكف نهائيًّا عن الاعتراض!

اندفع الموج باردًا تحت أقدامهما، وبدت قناديل البحر ملقاة على الشاطئ بلا حول، تتألق بوهن في ضوء القمر. واستدار صالح وهو يقول له:

- هل تصدق أنني حتى الآن لم ألمس امرأة؟

ضحك مصطفى وهو يقول:

- وماذا عن مغامراتك النسائية في سنوات الدراسة؟ لم تبدُ لي متزمتًا إلى هذه الدرجة!

نظر صالح إلى حركة الموج، وقال في همس:

- لم أكن متزمتًا. كنت خائفًا طوال السنوات التي عشتها في القاهرة، كنت سعيدًا وخائفًا أيضًا، أنا أخاف من المدن الكبيرة المزدحمة بالناس، أعتقد أننا هنا نخاف من هذه المدن، حتى المدن التي صنعناها هنا، نحن نعيش فيها لكي نقنع الآخرين وربما أنفسنا بأننا دولة حقيقية.

قال مصطفى:

- أنتم تملكون كل شيء.

- هذا ما يُخيَّل إليكم. أنتم خارجنا، بعيدون عنا، رغم أنكم تتحدثون نفس اللغة. الثروة التي تعتقدون أننا نملكها لا يصل إلينا منها إلا الفتات. نحن نتقاضى مثلكم مرتبًا، أكبر قليلًا، ولكنه يظل مجرد مرتب. كل واحد يؤدي الدور المطلوب منه، المجتمع هنا هو عدة أدوار مقسمة ببراعة.

ولم يفهم مصطفى شيئًا. وصلا إلى لسان من اليابسة ممتد في وسط الموج. ميناء قديم مهجور، بدت أيضًا أشباح بيوت صغيرة متباعدة.

قال مصطفى:

- ما هذا؟

- إنها إحدى قرى الصيد القديمة، هجرها الجميع بعد أن تغيرت موازين الثروة، كانت مكانًا جميلًا في الماضي، لم يعد يسكنها سوى الفئران.

قرية صامتة يملأها وشيش الموج دون أن تتجاوب معه. والقمر يلقي عليها ضوءًا شاحبًا يجعلها أكثر حزنًا. أبواب مخلوعة، جدران نصف مهدمة، بقايا أثاث فقير، أوانٍ فخارية مكسورة، رسوم ساذجة على الجدران. كأنهما يخوضان مدينة أثرية لم تعد تنتمي إلى أي عالم. قال صالح كأنه يحلم:

- كنا نبني هذه البيوت دون حاجة إلى ذرة من الأسمنت، ونصنع السفن دون مسمار واحد، ونعيش حياتنا دون أن يرغمنا أحد عليها.

كان جلال القرية الآفل قد أحاط بهما، احتواهما في طرقاتها ومساراتها. كانت واضحة ومرسومة كخطوط الكف: لا أسوار ولا موانع، أناسها يتحدثون من خلال الصمت المطبق، يقصون قصص الشقاء اليومية التي يعرف مصطفى تفاصيلها. كان قد رأى هذه البيوت من قبل، تربى في واحد منها، شارك في أحلامها المنكسرة، ولو رأى وجوه أهلها المعروقة فسوف يتعرف عليها فورًا، سوف يردد معهم كل أغاني الفرح وكل مراثي الموت. وقال مصطفى لنفسه في صوت مسموع:

- خُيل إليَّ أنني عشت في هذا المكان.

همس صالح:

- إنه عالم الفقراء الذي ننتمي إليه جميعًا.

امتلأت نفساهما بالوحشة. كانت القرية هي الصلة الوحيدة بين هدير الموج وصمت الصحراء. مرا بساحة اللعب، المقهى القديم ما زالت به بعض المقاعد المتكسرة، البئر الوحيدة التي كانت مصدرًا للحياة قبل أن تتراكم فيها الرمال، والهواء يمرق وسط البيوت وعبر الكوة المفتوحة والأبواب المخلوعة، ويصدر أصواتًا تشبه غمغمات الذين رحلوا: أصواتهم وهم يتواعدون على الخروج للصيد، وأصوات النسوة وهن يحذرنهم من المقدر والمكتوب، رنة الشجن في أيام الانتظار، وأغاريد الفرح عند العودة، وتأوهات الحزن عند الافتقاد. ولكن مصطفى سمع بالفعل صوت إنسان يتأوه، ليس صوت الريح، لأن صالح سمع الصوت أيضًا. كان آتيًا من مكان ما خلف الجدران المهدمة. جريا معًا. كان هناك شبح ما يجلس بجانب أحد الجدران، ويحدق في مياه الخليج، ينصت في استغراق إلى وشيش الموج المتصل، تتردد أنفاسه مع إيقاع الموج. هتف صالح في ذهول:

- كيف جاء إلى هنا؟ لم أرَ أي سيارة!

تقدم نحوه وجلس أمامه على الرمل وهو يسأل:

- يا عم، إيش جابك هنا؟

التفت الرجل إليه وابتسم ابتسامة واسعة، وقال في صوت واهن:

- الله هداك يا معاود، إنني أنتظر عودة الرجال.

قال صالح:

- أي رجال؟! لم يعد هناك رجال!

قال الشيخ:

- الرجال ما زالوا في البحر وسوف يعودون. الله هداك يا معاود. لا بد أن يكون هناك من ينتظرهم.

قال صالح في إلحاح:

- كان هذا منذ زمن بعيد، انتهت أيام الغوص، وأصبح المحار فارغًا. أنت رجل شيبة، من الخطر أن تجلس وحيدًا.

قال الرجل:

- كلنا شيبة يا معاود. البحر شيبة، والخور شيبة، والجبل شيبة، ولكن كل شيء باقٍ في مكانه، الرجال فقط هم الذين يرحلون!

نهض صالح واقفًا، كان يرتعد وهو يهمس في أذن مصطفى:

- إنه ليس شخصًا حقيقيًّا. أنا متأكد أننا نتوهم.

انحنى مصطفى ولمس كتف الرجل الذي أدار وجهه ناحيته وهو يبتسم في وهن. قال الرجل متأوهًا:

- الرجال يتناقصون يا معاود، في كل موسم يرحل منهم الكثير ولا يعود إلا القليل. الغوص مهنة شاقة يا ولدي، لا يوازيها في المشقة إلا العبودية، في كل عام يطلب البحر أضحيته من أعمارهم، البحر لا يشبع مهما أخذ من أبدانهم والله يا معاود. سيدنا الخضر بذات نفسه، جاء إليَّ وطلب مني أن أجلس في انتظارهم.

كان الشيخ حقيقيًّا بلا شك، ولكن صالح ظل مرعوبًا منه أكثر مما ينبغي، أخذ يلح على مصطفى:

- هيا نبتعد عنه، هيا نبتعد من هنا!

جذب مصطفى بعيدًا، فقال محتجًّا:

- لماذا تخاف منه؟! إنه شيخ وديع، ربما كان في حاجة إلى المعاونة.

قال صالح في عصبية:

- إنه ليس حقيقيًّا، ربما كان روحًا هائمة، روح هذه القرية، روح الغواصين الذين ماتوا بلا قبور!

قال مصطفى:

- أنت تخرف بلا شك، لا تظهر الروح بهذه الواقعية الشديدة.

هتف صالح:

- أنت لا تعرف حكايات البحر. إن كل شيء في مثل هذه الصحراء يمكن أن يتحول إلى حقيقة. ربما كنت أنا وأنت تحت تأثير قوى خفية، إنهم الأسلاف يستيقظون دائمًا في الليالي المقمرة.

كان يتحدث وهو يعدو. جهد مصطفى حتى يلحق به، كان يخشى أن يشردا بعيدًا عن السيارة. جلس صالح مجهدًا فوق الرمل وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، أمسك قبضة منه وهو يصيح:

- انظر، هذا الرمل مليء بالأصداف الفارغة. فلماذا لا تمتلئ قرى الصيد المهجورة بأرواح الأسلاف؟

قال مصطفى في إصرار أبله:

- كان رجلًا حقيقيًّا وأقسم على ذلك. لقد لمست كتفه وشممت رائحة التبغ في فمه.

صرخ صالح:

- كلَّا. لقد جئت إلى هذا المكان عشرات المرات، ولم يكن موجودًا، ولو عدنا إلى نفس المكان فلن نجده هنا، ولكن... ولكن لن أكرر المحاولة، لن أكررها!

كان القصر العالي متلألئ الأنوار يطل عليهما كأنه يسخر من مخاوفهما الصبيانية، ويعلن هيمنته على الليل والبحر والصحراء والأرواح الضائعة. أحس مصطفى بحصاره داخل نفسه. لماذا جاء به صالح إلى هنا؟ ولماذا كل هذا الخوف من صياد عاجز، بينما فوق قمة التل يرقد الخوف الأعظم؟

وجاء صوت صالح كأنه يستيقظ من النوم:

- هل تدري لماذا لم أتزوج حتى الآن؟

هز مصطفى رأسه في نفي. قال صالح:

- أخشى أن نفيق من الحلم. أخشى أن يأتي أولادي إلى الحياة بعد أن ينتهي كل شيء.

قال مصطفى:

- لا شيء ينتهي.

هتف صالح في إصرار:

- الحلم ينتهي. الأحلام كلها قصيرة الأجل. ونحن الآن نعيش في حلم. إنهم يصرون على أن يبقى الأمر بالنسبة لنا مجرد حلم.

ونهض واقفًا، وسار إلى الموج. أخذ يخوض في المياه حتى وصلت إلى منتصفه، وقال دون أن يستدير:

- الخنازير تطهر نفسها في الأوحال، والطيور في التراب، أما الإنسان وحده فهو الذي يتطهر بالماء.

وظل مصطفى واقفًا صامتًا، واستدار صالح إليه وهو يقول:

- الجميع هنا يحتاجون إلى النفط، لا أحد يحتاج إلى ماء البحر.

هتف مصطفى في ضيق:

- صالح! لماذا جئت بي إلى هذا المكان؟

قال صالح في غموض:

- ربما كنت أنت أيضًا في حاجة إلى ماء البحر.

ركبا السيارة صامتين، وظلت أضواء القصر تلاحقهما كأنه كان يغير موقعه باستمرار، يمتد مع الطريق ويستدير مع الريح. كان مصطفى يحس أنه لن يستطيع الابتعاد طويلًا عن قبضته. هل يجب عليه أن يعترف لصالح بكل شيء ويطلب مساعدته؟ كان ما حدث الليلة قد مس مصطفى من الداخل، وجعله يرى صالح من جديد. العذابات الداخلية خلف أقنعة الصمت والثراء، هناك نوع من سوء الفهم المتبادل بين الجميع، رغم أنهم في نفس المأزق، يدفعون الدراهم في مقابل الصمت، ويبرمون الصفقات المشبوهة بقطرات من النفط.

اختفى القصر أخيرًا، وظهرت المدينة، وتنهد مصطفى في ارتياح، وظل وجه صالح شاحبًا، كانت رعدته قد ازدادت من أثر البلل في ثيابه، ولم يكن مصطفى يستطيع دعوته إلى مسكنه، ففضَّل تجاهل الأمر. كانا قد أصبحا أكثر قربًا وأكثر بُعدًا في الوقت نفسه، عاشا معًا تلك اللحظة النادرة من التواصل الإنساني، حتى إنهما رأيا معًا القصر العالي نفسه، والشبح القديم نفسه.

أنزله صالح أمام باب البيت، وتبادلا تحية قصيرة. عندما أضاء مصطفى مصباح الغرفة وجدها جالسة على الأريكة، تحدق فيه مثل قطة كبيرة الحجم تبتسم في سعادة. كان يفهم سر إحساس السعادة الذي يبدو عليها في كل مرة يعود فيها وحيدًا دون كلاب الصيد. كان هو نفسه يستغرب لماذا يعود وحيدًا كل مرة.

قالت:

- أخ أكبر، لقد غفوت قليلًا وأنا أنتظرك.

قال في حذر:

- هل ظهر أحد من هؤلاء الرجال؟

مرت على وجهها سحابة من القلق وهي تقول:

- لا أعرف. لم أرفع الستارة، ولم أضئ النور.

جلس مجهدًا. حدقت فيه وهي تقول:

- أتدري؟ كنت أحلم بحقول الأرز الواسعة. المرة الأولى التي أحلم بها منذ أن جئت إلى هذا المكان.

استعاد وجهها كثيرًا من الصفاء، أصبحت آدمية أخيرًا، وليست مجرد حيوان أصفر اللون مليء بالحروق.

قال لها:

- وهل تعني حقول الأرز الكثير لديكِ؟

قالت في سعادة بالغة:

- تعني الحياة. وهذا الحلم يعني أن روح الأرز قد صفحت عني، سوف تسمح لي بالعودة إلى بلدتي. هناك سوف آكل قليلًا، وأمارس الحب كثيرًا، ولكن مع من أختار. النقود تأتي بعد ذلك أخ أكبر.

لم يفهم ماذا تعني «روح الأرز» هذه، ولكنه كان يعلم جيدًا أن النقود ليست اختيارًا، إنها قدر. لا أحزان ماتيلدا، ولا أحلام صالح، يمكنها أن تصنع بديلًا أفضل. الأحلام عرضة للموت. النزوات تتحول إلى همٍّ ثقيل. لا يوجد هناك بديل أفضل. كانت تحدق فيه باسمة، تريد منه أي نوع من المشاركة. ولكن ما حدث في خور البحر جعله مرهق الأعصاب، مشحوذ النفس، لذلك قال دون أن يدري:

- أنا خائف!

صمت. تبددت بقايا الأحلام، وحاولت أن تكون حارة وصادقة:

- سوف أمضي غدًا أخ أكبر، سواء جاءوا أم لا، سوف أرحل.

- لا، لا تسيئي فهمي، إنني لا أستطيع أن أوفر الحماية لكِ هنا، أنا عاجز عن حماية نفسي!

وضعت يدها فوق ذراعه، وهمست:

- أخ أكبر، لقد قدمت إليَّ ما فيه الكفاية؛ أنقذت حياتي.

مالت على خده ووضعت شفتيها عليه في ابتهال صامت. أحس بأنفاسها الساخنة وهي تهب على وجهه. ألصقت جسدها به وهي ترتعد:

- إذا أردتني أخ أكبر، إذا رغبت في ذلك، فأنا كلي لك.

كانت تريد أن تدفع له المقابل، ولم تكن تملك غير هذا الجسد الصغير المليء بالحروق. لم يكن يريدها كامرأة. أي شيء يمكن أن يزيد من ضعفه، ولا يريد أيضًا أن يكون واحدًا من الذين يقايضونها على جسدها. قال وهو يبتعد عنها:

- لا أريد ثمنًا، حياتكِ ملكك، وجسدكِ أيضًا.

قالت في حرارة:

- صدقني أخ أكبر موستافى، أنا أريد ذلك.

انزوت على الأريكة كأنها تريد أن تختفي من أمام عينيه، وجلس هو على حافة السرير.

قال في صوت جاف:

- يجب أن ننام، لقد تأخر الوقت كثيرًا.

واستلقى على السرير في مواجهة السقف ذي الطلاء المتساقط. نهضت هي وأطفأت النور، ثم عادت مرة أخرى تتكوم فوق الأريكة. كان يعرف أنها لن تنام، وكان ماء البحر ينساب باردًا في عروقه، يحس بطعم الملح على شفتيه. أجل، ربما كان هو أيضًا في حاجة إلى ماء البحر.

استيقظ مبكرًا مع صوت أذان الفجر، لم يدرِ أي واحد منهما، هناك أذانان دائمًا: أذان مبكر ينطلق من مساجد الشيعة، ثم يتلوه أذان آخر من مساجد السُّنة، وكل واحد يختار ما يناسبه. ظل جالسًا في الفراش بلا حركة حتى تسلل أول خيوط الضوء من خلف الستائر. تأملها وهي نائمة، وصوت أنفاسها يتردد في هدوء، كانت آمنة تمامًا رغم أنها نزعت من داخله أي إحساس بالأمن. ارتدى ملابسه، وتسلل في هدوء إلى الخارج. المدينة ما زالت ندية من أنفاس الفجر، والشوارع تدب فيها حركة العواجيز العائدين من الصلاة، والعمال الأفغان بلحاهم المصبوغة بالحناء يسعون إلى أطراف المدينة حيث تنتظرهم الأعمال الشاقة. البحر رمادي ساكن، ينتظر المزيد من الضوء، والأشعة الأرجوانية الباهتة تنتشر ببطء من خلف الجزر الصخرية المتناثرة، تلونها في كل لحظة بلون جديد. وطيور بيضاء تحوم في رقة حول الأشجار البعيدة على اليابسة، ثم تعود إلى مياه الخليج فتغمس أجنحتها وتنثر ما عليها من رذاذ الماء في قطرات متألقة، وتعاود التحليق من جديد. تظهر قوارب الصيد عائدة بعد رحلة صيد الليل. المدينة كلها تعيش لحظات من الرقة الحزينة والتفرد المطلق. سار على الشاطئ وهو يحس أن هذا النهار يحمل له خلاصًا جديدًا. كان الصيادون يُخرجون شباك الصيد وهم

يرددون في صوت منغم: «الله كريم، الله كريم». خَيل إليه أنه يلمح بينهم شيخ القرية المهجورة يردد معهم الكلمات بنفس الحرارة. ولكنه كان واهمًا.

أكل قطعًا من البسكويت، وسار إلى المدرسة. كان الفرَّاش الهندي قد فتح الباب لتوِّه وألقى التحية على مصطفى وهو يهز رأسه. كان مصطفى يتضايق من حركة هز الرأس هذه، ثم عرف أن هذه طريقة الهنود في إظهار الاحترام. كانوا أكثر فقرًا مما ينبغي وأكثر أدبًا من المتوقع. ظل مصطفى واقفًا يأكل البسكويت على مهل، ويتأمل فناء المدرسة الخالي، حتى بدأ الجميع في التوافد.

المدير متجهم، وصالح شاحب الوجه، والطلبة يقفون في وسط الصفوف ببلادة، وصوت الطبلة يدق غالبًا. وعندما أراد أن يتوجه إلى الحصة الأولى فوجئ بالمدير يقف أمامه ويقول له:

- هل تحدثت مع جاسم؟

- مَن؟

- ابن الشيخ المحجوب.

فوجئ مصطفى بحدة السؤال، هتف مبررًا:

- كنت أسأله عن الدرس.

- لا شأن لك به، لا تسأله في أي موضوع.

انصرف قبل أن يسمع منه أي رد. انتفض مصطفى من الغضب، تبدد سحر الصباح، وبدأت ساعات القيظ والرطوبة فجأة، شعر أنه كان محقًّا لأنه خبأ الفتاة وأتاح لها المأوى والأمان، لقد أزعجهم ذلك قليلًا، ضرب قبضتهم الحديدية المُحكمة. مرت الحصة الأولى، ورأى ابن الشيخ في الحصة الثانية، جالسًا غير مكترث بأي شيء. بدأ يسأل الطلبة الآخرين، ولكنه حين وصل إليه توقف وحوَّل دفة الموضوع. وفي فترة الراحة تبادل بضع كلمات مع صالح، وانتهى اليوم الدراسي فركب معه سيارته. أحس أن حياته يمكن أن تعود إلى وتيرتها الطبيعية، وعزم بينه وبين نفسه على أنه فور رحيلها سوف يدعو صالح إلى غرفته للغداء. وعندما فتح الباب اشتم رائحة طيبة. كانت واقفة في أحد الأركان عند الموقد وهي تطهو، حين رأته هتفت:

- أخ أكبر، لقد أعددت لك وجبة فلبينية. ثلاجتك لم تسعفني كما أريد، ولكنني أعددت لك إحدى وجبات الأرز، أرجو أن تعجبك.

وضعت على المائدة طبقًا من الأرز لونه أحمر قانٍ، ولم يعرف بقية المواد التي تشترك مع الأرز، ولكن منظره كان بهيجًا.

قالت:

- هذا «أزو - جابو».

كان لذيذا رغم مذاقه اللاذع. نفس الطعام الفاتر الذي كان يتناوله كل يوم وقد تحوَّل تحت أناملها إلى شيء مختلف ممتع.

قالت:

- إنها الوجبة الأولى والأخيرة أخ موستافى.

أكلا بشهية، وتبادلا تعليقات ضاحكة، وحكى لها عن الأرز المعمر، وعن أخواته في مصر وبراعتهن في الطهي. وتحدثت عن بلدها، وعن أصدقائها هنا، وعن سعادتها بالخلاص أخيرًا. وسألها فجأة:

- هل تعرفين جاسم؟

قالت في توجس:

- ابن الشيخ!

- أجل. مصادفة غريبة، إنه طالب عندي في المدرسة.

قالت في توتر:

- كان يكرهني كثيرًا. كان يكرهنا جميعًا.

- هل أنتن كثيرات؟

- لا أدري. القصر واسع وغير مسموح لنا بالحديث مع بعضنا. هناك حرس يمنعوننا من ذلك.

رفعت الطعام، وتحدثا قليلًا، ولم تبقَ إلا ساعات الانتظار. جلسا واجمَين أمام التلفزيون، واللحظات تمر. أحس فجأة أنه سوف يفتقدها، لقد ملأت حياته خلال هذه الفترة بالتفاصيل. ودون أن يقصد صنع جزءًا من خلاص روح إنسانية. بعد برهة لم يعد للتلفزيون معنى، وأصبح للصمت السائد بينهما أكثر من معنى. جلس بجانب النافذة، وأزاح الستارة قليلًا حتى يرى مقدمهم.

قال لها:

- لم تحدثيني عن روح الأرز.

قالت:

- أجل أخ موستافى. كانت غاضبة عليَّ، وهذا هو سبب ما حدث لي. كان عليَّ أن أجمع أول عيدان الأرز من رأس الحقل، أضمها معًا في حزمة واحدة، وأضمها لصدري، حتى أنقل لها دفء جسدي. قالت لي أمي إن روح الأرز موجودة داخل هذه الحزمة. كان الجميع يحسدونني لأنني جمعت أول هذه العيدان. ولكن الحزمة انفرطت رغمًا عني، سقطت في الطين، وطارت مني روح الأرز. رأيتها وهي تمرق في الفضاء مثل طائر أبيض حزين. من لحظتها فارقني الحظ الحسن، وعندما يجيء الرفاق سيكون هذا بداية خلاصي.

وهبط المساء رقيقًا فوق المدينة. بدأت الأضواء تشع في عذوبة. كانت هناك بقايا من قمر الأمس الغريب، وكان وجهها قد أصبح مستديرًا ومضيئًا مثله. ومد يده يربت على شعرها. كانت طفلة وحيدة ضائعة. والسيارات تمرق سريعًا، والشوارع تخلو. كل شيء يهيئ نفسه للحظة الرحيل. لم يعودا يتكلمان، كانا ينتظران فقط. يرقبان أي سيارة تأتي حتى تقف في الفناء المواجه للبيت، ولكن هذا لم يحدث. لم تقف سيارة واحدة، ولا حتى بفعل المصادفة. ظل وجهها جامدًا، بلا اختلاج، ولا دمعة واحدة، حتى صوت تنفسها لم يعد مسموعًا. خاف أن يتكلم، أن يحطم ذلك السكون الهش المتماسك الذي تقف خلفه. ولكن الساعات الطويلة تواصلت، وأصبحت الظلمة أكثر كثافة، وغابت بقايا القمر، وساد صمت موحش فوق المدينة. وقال مصطفى أخيرًا:

- لعلهم ضلوا الطريق.

لم ترد. لم تتحرك. حاول أن يطمئنها:

- سوف يأتون غدًا بالتأكيد.

نهضت، سارت بعرج خفيف إلى الباب، وفتحت المزلاج، وقالت في صوت خافت مستسلم:

- أخ أكبر موستافى، أنا راحلة.

أسرع يعبر الغرفة. أمسك بذراعها وهو يقول:

- ليس قبل أن يأتوا!

قالت:

- لن يأتوا أخ أكبر، إذا لم يأتوا في المرة الأولى فلن يأتوا أبدًا!

- سأعاود الاتصال بهم.

- وإذا لم يأتوا؟ لا ذنب لكَ، يكفي ما قدَّمته لي!

أمسكها بشدة. قال في تصميم:

- لن تذهبي!

قالت:

- وماذا عليَّ أن أفعل؟!

كانت ضائعة نحيلة، عظامها صغيرة، وجلدها رقيق، واليأس قد تسرب إليها.

قالت:

- لو أنهم أرادوا أن يساعدوني لجاءوا، ولكنهم يريدون مني العودة إلى قصر الشيخ!

حاول أن يجذبها بعيدًا عن الباب، ولكنها تشبثت به، فتحته قليلًا وهي تهتف:

- دعني أخ أكبر، أنا إنسانة مشؤومة!

وقفت الفئران في الخارج تراقب الصراع. كان جسد ماتيلدا بين يديه. حملها مثل طفلة. تشبثت بعنقه، أدخلت رأسها بين عنقه وكتفه، فأحس بدموعها الساخنة تلسع رقبته. أدار وجهه وقبَّل خدها المبلل. حركت وجهها وأدخلت شفتيها بين شفتيه. تأوهت وهي تهتف:

- يجب أن ترغب فيَّ حقًّا! أرجوك، كن راغبًا فيَّ!

كان خائفًا، وجعله هذا الخوف يتقبل تشبثها به. هذه مرَّته الأولى التي يمتلك فيها امرأة بكل هذه الرغبة. احتضنها حتى دخل جسدها النحيل بين أضلاعه. تذكر جروحها الصغيرة في ومضة، فأرخى ذراعيه. هتف بها:

- هل تتألمين؟

احتضنته بقوة أكبر وهي تتمتم:

- لا ألم، لا ألم.

هل يمكن أن يختفي الألم حقًّا أمام هذه الرغبة؟ لسانها داخل فمه كأنها تحاول النفاذ إلى أعماقه.

هتفت:

- يا سيدي، أنا عبدتك الصغيرة.

لم يكن يستطيع أن يجاريها في الكلام. تحوَّل جسدها الصغير إلى كتلة من اللهب. كيف خرجت كل هذه الطاقة من مرارة الإحباط؟! تخلصت من ذراعيه. حسب أنها تريد أن توقف هذا الجنون. ولكنها أخذت تلتقط أنفاسها بصعوبة وهي تقول:

- استلقِ على فراشك. أنت إلهي الصغير. بوذا موستافى. دع عبدتك تقوم بكل العمل.

لم يفهم معظم ما تقوله، ظلت التعابير الجنسية بالإنجليزية غامضة بعض الشيء، ولكن الفعل كان يفسر أي غموض. ظلت تدفعه حتى استلقى على السرير. هتفت وهي تقف أمامه:

- ليس هذا ثمنًا لشيء، ولكني أهبك جسدي الذي أنقذته من الموت.

وضعت يدها على رأسها، وأخذت تحرك شفتيها كأنها تتلو صلاة جنسية خاصة، ثم نهضت سعيدة ومشرقة كأنها قد تلقت إحدى الإشارات، فكت أزرار ثوبها ببطء، استرد جسدها الكثير من حيويته، وبدت البقع التي كانت تعذبها أقل وضوحًا.

هتفت:

- الآن أخلع لسيدي ملابسه حتى يدخل مملكته.

وبدأت تخلع ملابسه. أشارت إليه ألا يساعدها حتى تقوم وحدها بكل العمل. في تبتل غريب تدس أنفها في كل قطعة من الثياب، تُدخل رائحته بداخلها حتى تتشبع بها. لعل هذا الانكسار والذوبان في

ممارسة الحب هو الذي كان يدفع بالسيد الشيخ إلى ذروة شهوته، هذا التفاني في فعل الجنس هو الذي جعله يصنع من جسدها مطفأة لسجائره.

أصبح عاريًا أمامها وهي تهتف:

- أوه بوذا موستافى. إن جسدك رائع!

تتحسسه بيدها. تحفظ تفاصيله عن طريق اللمس. أثارته لهجتها ولمساتها. حاول أن يمد يده ويأخذها إلى صدره، ولكنها هزت رأسها وهي تقول:

- كلَّا. دعني أتلوى فوقك كالثعبان، وابقَ أنت ساكنًا كالعشب النضر.

ما زال الأمر غامضًا رغم أنهما عاريان. يرى ثدييها الصغيرين وبطنها الضامر. ورغبتها الحارة تنبعث من داخلها مباشرة. جسد حي تعوَّد على العطاء رغم ما فيه من جروح، تحوَّل كله إلى موجة دافئة تغمره في رقة وتنحسر عنه في وداعة. احتوته في جسدها، حولت كل خلية من خلايا جسده إلى نقاط بالغة الرهافة تتشرب المتعة.

تهتف:

- بوذا موستافى، كن رقيقًا معي.

كأنها تقوم برقصة وثنية لإله شره، تُقبِّل أصابع قدميه وأطراف شعر رأسه في آنٍ واحد، تجمع كل أحاسيسه في نقطة واحدة ثم تنفرط على جسده كله. تداخلت المسافات والعوالم، ورحلت القارات، وجفت البحار فيما بينها. عندما قبض على جسدها أحس كأنه قد أوقف النجوم عن حركتها، وعندما عادت للحركة كانت قد طوعت جسده لإيقاعها الخاص، ينتفض، ويتلوى معها، ويتلو من خلال عرقهما المشترك صلاتها الخاصة لإله المتعة في سهوب آسيا البعيدة. ذات اللغة، وأصبح الجسدان يتبادلان حوارهما المشترك.

قال لها:

- أنتِ تقومين بكل شيء. أين متعتكِ الخاصة؟

قالت:

- علمتني أمي أن الرجل إله صغير. كل الرجال آلهة صغيرة.

لم يدرِ أين هي بالضبط، تحته، فوقه، أم بداخله!

قالت:

- أخبرتني أمي أن الحب بارد كحقول الأرز، لاسع كنيران التنين.

قالت له أمه: «ابعد عن الغواية، وتذكَّر الأفواه التي تنتظرك».

أمسك ثدييها يتشبث بهما، يحاول أن يوقفهما قليلًا. كان يريد قليلًا من الراحة لخلاياه التي لا تكف عن الانتفاض. كانت تمحو بداخله الماضي والحاضر والمستقبل. ولكنها أفلتت منه، راوغته، التفت حول جسده.

سألته:

- هل ما زلت خائفًا؟ قد يقتلونني، ولكنني لست خائفة.

وقالت له أمه: «من خاف سلم».

كان أوان السلامة قد فات، ولم تعد له إلا حياة واحدة، فقامر بها لقاء لحظة من المتعة. تذكر صالح والمدير وجاسم وقصر الشيخ العالي. أحس أنه قادر على مواجهتهم جميعًا. غاصت فيه. كأنها قد أعادت الوئام إلى الضلع الناقص، وأشعره ذلك بنوع من الكمال، وهو يمارس ألوهيته الصغيرة. بوذا موستافى، أسمر اللون، اكتسب الحكمة من الجوع، والعنف من الغضب، والرغبة من عدم الغفران.

قالت:

- كُن هادئًا كالنهر.

كانت تريد لطقوس المتعة أن تتواصل. تقوده بأناة ومهل دون عهر أو براءة، ولم تفقد وعيها بما يحدث، ثم شاركته في اللحظة نفسها؛ غرست أظافرها في ظهره فاختلطت المتعة مع الألم. التحما في توقيت نادر، ثم استرخيا معًا وأصبح لهما نفس الجسد ونفس الرائحة. وكان الليل هادئًا والنجوم متألقة والمدينة مليئة بالوعود الغامضة.

قالت:

- بوذا موستافى، أنت رائع!

قال:

- هذا شيء مدهش، لم أحس بمثل هذه المتعة من قبل!

قالت ضاحكة:

- حتى المُعلِّم في حاجة إلى من يعلمه.

وظلَّا راقدين ناظرين إلى السماء البعيدة، وغلبهما النعاس ولحمهما العاري متلامس، ولعلهما حلما معًا الحلم نفسه.

وجاء النهار أسرع مما يتوقعه أحد، تسلل الضوء كحد السكين. وحين استيقظ وجدها مستكينة بجانبه، مفتوحة العينين. «ماذا نفعل؟ ماذا علينا أن نفعل؟». أحاط صدرها العاري بذراعه، فاستكانت عليه وقالت بأسى:

- ستتأخر.

كانا يعرفان أنهما تأخرا معًا أكثر مما ينبغي.

قال:

- أنا لا أهتم.

ابتسمت في حزن وهي تقول:

- أوه موستافى، أنا أهتم.

زحفت على يديها ورُكبتيها وهي تحضر له حذاءه وملابسه، وهي تعد طعامه، وهي بين يديه عارية تمامًا. وظلت تحدق وهو متجه إلى باب الخروج. وعندما استدار نهضت واقفة حتى تسمح له برؤية كل جزء من أجزاء جسدها.

لم يحس بقيظ الشارع. لم يرَ البحر ناعمًا وزاهي الزرقة كما رآه اليوم، ولا النخيل وهو مثقل بأسبطة البلح الأخضر متأهبًا للنضج. رأى طيورًا تحلق بعيدًا، وقطعًا من السحب عالية لا يمكن لأحد اصطيادها. وعاد السؤال يلح عليه كالذنب: «ماذا عليَّ أن أفعل؟». كانا قد وصلا معًا إلى موقف مستحيل، تصاعد الإيقاع بين جسديهما ونسج بينهما روابط غير مرئية، اكتشف أنها المرأة الوحيدة التي كان يرغبها طوال حياته، ومن أجل أن يصل إلى هذه النتيجة كان على وشك إتلاف كل شيء.

في المدرسة لم يبالِ بطابور الصباح، ولا بالمدير المتجهم. توجه إلى غرفة المدرسين، كانت خالية. كان في حاجة إلى الجلوس بين الجدران. تناهت إليه أصوات الطبول والأناشيد والأوامر المدرسية كأنها أصداء من عالم بعيد. كان يريد أن يبحث في أعماق نفسه الحائرة عن حل. مد يده إلى التلفون الذي كان يرقد أمامه، أدار الرقم بإصبع مرتعدة، رن الجرس قليلًا، ثم سمع الصوت من الطرف الآخر، الصوت نفسه الذي تحدث إليه في المرة السابقة. قال مصطفى:

- أنا أتحدث بخصوص ماتيلدا.

قال الرجل بلهجة جافة باترة:

- نحن لا نعرف أحدًا بهذا الاسم.

وأغلق الخط في عنف. عاد مصطفى يدير الرقم من جديد بلا فائدة؛ كان الرجل قد رفع السماعة من الناحية الأخرى وترك له الطنين المستمر.

انسحبت طوابير الطلبة إلى الفصول، وخفتت كل الأصوات، وساد المدرسة صمت موحش. لم يأتِ أحد من المدرسين إلى الغرفة، وظل مصطفى جالسًا. كانت الحصة الأولى عنده مشغولة والفصل الخالي ينتظره، ولكنه لم يكن قادرًا على النهوض، لم يكن قادرًا على مواجهة أحد، حتى صغار الطلبة. ضائعًا وسط الحجرة الخالية، وسط المدرسة الصامتة. دق الجرس يعلن عن انتهاء الحصة الأولى، وهلل الطلبة في صخب، ثم دق يعلن عن بداية الحصة الثانية. وعاد الصمت، ولم يأتِ أحد إلى غرفة المدرسين. فُتح الباب أخيرًا ودخل الفرَّاش الهندي ووقف أمامه وهو يهز رأسه قائلًا:

- مُعلِّم، المدير صاحب يبغيك في مكتبه.

رفع رأسه ببطء، وتأمل الفرَّاش الذي أخذ يشير في اتجاه مكتب المدير. فكر في الانصراف نهائيًّا من المدرسة، ولكنه قرر أن يبادل المدير الحوار العنيف الذي سيقوله له. سار في الممر الخالي، عبر الفناء المترب، خُيل إليه أن عشرات الأعين تبحلق فيه من خلف زجاج النوافذ، وأن أجهزة التكييف تطن نكاية فيه. وصل إلى حجرة المدير. كان الممر كله مفروشًا بالسجاد، فلم يسمع وقع أقدامه، كأنه يسير في الفراغ. المدير يجلس خلف مكتبه، وصالح يجلس في المقعد المقابل. التفت صالح حين دخل مصطفى. رأى كل واحد منهما الآخر بإمعان منذ أن افترقا في تلك الليلة. كانت عينا صالح مليئتين بالرثاء، وشعر مصطفى أنه في غير حاجة إلى من يرثي له، كان قويًّا، لذلك ظل واقفًا. رفع المدير رأسه، وظل الصمت يسود المكان هنيهة قصيرة، ثم قال المدير وهو يحدق في ورقة أمامه:

- الشيخ المحجوب يريد أن يراك.

آخر جملة كان مصطفى يود أن يسمعها. حتى هذه اللحظة كان هناك أمل ضئيل يراوده في النجاة من الفخ الذي أحاط به. تخبَّط كثيرًا بين الخيوط المتشابكة، وحانت لحظة الوقوع بين براثن العنكبوت. الآن عليه أن يدفع ثمن المتعة مضاعفًا. ومن المؤكد أن الشيخ طوال هذه المدة كان يعرف، وكان يمد لهما طرف الحبل حتى يسيرا إلى الفراش ويختلسا تلك اللحظات، ثم يجذب طرف الحبل ليضيق على رقبتيهما معًا. لعله وجد في ذلك المتعة نفسها التي أحس بها حين أرادها أن تضاجع كلابه.

قال المدير حين لاحظ صمته الطويل:

- إنها دعوة عادية بلا شك، لقد دعا العديد من مدرِّسي المدرسة قبل ذلك.

وفجأة قال صالح في نبرات حازمة:

- سوف أذهب معه.

قال المدير في تردد وهو يرمق مصطفى:

- أستاذ صالح، جدولك مشغول اليوم، و...

أعاد صالح نفس الجملة، وأضاف إليها في صوت خافت، خافت جدًّا، لم يسمعه سوى مصطفى، أو ربما لم يقل صالح شيئًا على الإطلاق، أو أن هذا الهمس كان من بقايا صدى ليلة الخور البعيدة.

- إنه في حاجة إلى شاهد.

لا يوجد مهرب ولا مفر من الذهاب. كل الطرق تؤدي إلى البحر، والبحر يصب في الخور، والخور يحيط القصر ويكسبه هذا التفرد الموحش.

وقف صالح أمامه، وحاول عبثًا أن يبحث عن ابتسامة، ثم قال له:

- هيا بنا.

واكتشف مصطفى أنه ليس خائفًا إلى هذه الدرجة.

سارا إلى خارج المدرسة حيث تقف سيارة صالح، ركبا في صمت، ارتفع هدير المحرك يعلن بداية الرحلة. بدت المدينة هادئة، والموج صافي الزرقة. علت الطيور حتى ذابت في السحب. سارا عبر الطريق نفسه الذي عبراه من قبل ليلًا. شعر بامتنان حقيقي نحو صالح، ولكنه لم يجد كلمات كافية ليعبر له عن ذلك. كل شيء يمضي في نعومة وسرعان ما تنتهي المدينة وتبدأ الصحراء. أزمنة الجدب القديمة، والطريق الأسفلتي يشق وجه الصحراء كجرح غائر. هدأ صالح من سرعة السيارة فجأة، كان القصر ما زال بعيدًا، ولكن كانت هناك ناقة عابرة، لونها أصفر مترب، قادمة من جوف الصحراء ومتجهة إلى الأسفلت، وعندما وضعت خفها عليه، أوقف صالح السيارة تمامًا وأطفأ محركها. لم يكن يريد أن يحدث أي خدش للسكون السائد حتى لا تهتاج الناقة الضالة، لم يبقَ إلا صوت الصحراء الأبدي. الصحراء عالمها، ونحن دخلاء عليها، كانت موجودة مثل كل شيء هنا منذ آلاف السنين. قطعت الناقة الأسفلت ببطء شديد، وظلَّا يراقبانها معًا مثل كائن أسطوري قديم، قادم من لا مكان وذاهب إلى لا مكان. وعندما بعدت تمامًا تنهد صالح وأدار المحرك وواصلا السير من جديد.

قال مصطفى:

- لماذا قلت إنني في حاجة إلى شاهد؟

قال صالح:

- لا تكن مكابرًا، أنت في حاجة إلى أحد بجانبك.

وسكت صالح قليلًا، ثم قال بنفس الهمس المسموع:

- أنت لا تعرف الشيوخ!

قال مصطفى في ضيق:

- ولماذا عليَّ أن أذهب؟

قال صالح بغموض:

- لأنه لا مفر من الذهاب.

- هل تعودتم أن تطيعوا أوامرهم دائمًا؟

اهتزت السيارة تحت يدَي صالح، ولم يتصور مصطفى أن يكون جارحًا إلى هذه الدرجة. قال:

- أنا آسف، لم أقصد.

تمهل صالح في السير، وقال في صوت هادئ:

- أتعرف ماذا كان يعمل أبي؟ كان غواصًا. يعتقد الجميع أن البحث عن اللؤلؤ مهنة براقة، يغوص الرجل بيدين خاليتين ويعود بهما وهو قابض على اللؤلؤ البراق! هذا لا يحدث، كان الغوص أشق مهنة عرفها الإنسان بعد الرق، لا أحد يرحم الغواص، لا مسارب المياه الخادعة في البحر، ولا

أسماك القرش، ولا حتى النواخذة ربان المركب. كان يهرب من الجوع الذي كان في البر، ولكن البحر كان فيه الموت. في اليوم الأخير من حياته غاص أبي، وعاد ومعه سلة من المحار الفارغ إلا من الرمل. كانت ديونه كثيرة، والموسم يوشك على الانتهاء، وأمره النواخذة أن يغوص مرة أخرى، لم يترك له فرصة حتى ليتناول بضع حبات من التمر، أو يشرب كوبًا من الشاي! وغاص أبي مرة ثانية فلم يجد إلا الأحجار والطحالب. حاول الجميع أن يمنعوه، توسلوا للنواخذة، ولكن أبي لم يتوسل، ولم يرضَ بتوسلاتهم. كان يريد أن يوفي كل ديونه، ودفع حياته ثمنًا غاليًا من أجل دين لم يسدد. وعندما طفت جثته كان قد مر عليها وقت طويل.

سكت صالح قليلًا، وزاد من سرعته وهو يقول:

- هذا العالم ليس رحيمًا!

خفتت أصوات الصحراء، وبدأت مياه البحر في الهدير. ظهرت الصخور التي تشكل ملامح الخور، وفوق التل المرتفع ظهر القصر يواجه البحر والريح والسُّحب. كان طريق الأسفلت ممتدًّا إلى أعلى، والموج متناهي الزرقة بالغ الصفاء، وحجم القصر يكبر حتى أصبح يسد حافة الأفق. توقفت السيارة أمام الباب الضخم والسور العالي، وسمع مصطفى نباح الكلاب. فُتح الباب قبل أن يدق أي جرس، وخرج رجل ضخم، كلب شيخ، بالأحزمة المتقاطعة والسلاح المشوق، واتجه ببصره نحو صالح الذي قال:

- نحن من المدرسة، الشيخ يريد مقابلتنا.

أشار إليهما الرجل أن يدخلا، وأن يتركا السيارة في الخارج. وما إن تخطى مصطفى الباب الخارجي حتى أدرك أنه قد دخل في عالم آخر. كانت قمة التل الصخرية قد تحولت إلى مساحة شاسعة مكسوة بالعشب زاهي الخضرة، والأشجار السامقة لا يبدو عليها أي أثر للذبول، ويبدو القصر وسط هذه الخضرة فردوسًا غريبًا، يختلط فيه هدير البحر بعواء الكلاب. سارا معًا، ابن النساج المسكين، وابن الغواص المسكين، وخلفهما الحارس المتجهم.

كان القصر مرتفعًا عن الأرض بعدة درجات من المرمر الأبيض، بحلم أندلسي بُعث من جديد، الزخارف العربية منقوشة بسخاء، الآيات القرآنية حول الواجهة، وباب مُطعَّم بالصدف والفضة، ومقبضه الضخم من الذهب الخالص. وعندما دخلا الممر وسارا فوق السجاد الأحمر ذي الوبر الكثيف، أحسا أنهما يدخلان في زمن غريب لا ينتمي إلى أيٍّ من أزمنة التاريخ، زمن يفرض نفسه من خلال هذا البذخ الزائد. أضواء خافتة، مرايا عريضة، روائح طيبة تختلط بالهواء الرطب، الأواني، التحف. ووقف الحارس بهما أمام باب فخم آخر وهو يقول:

- الشيخ في المجلس، يجب أن أستأذنه.

ودخل وأغلق الباب خلفه. وظلَّا واقفين، يتأملان الزخارف والنقوش. تخيل مصطفى عشرات الأيدي التي قضت عشرات الليالي كي تحور كل قطعة من الفضة، وترصع بها هذا الباب الصامت الذي يخفي خلفه عالم الشيوخ الغامض. طالت وقفتهما. لم يُفتح الباب، ولم يمر بهما أحد. أصبحا منسيين

على حافة لحظة زمنية لا تنتهي. ولم يجرؤ أي واحد منهما على الكلام. كان يحوطهما صمت مهيب، متولد من هذه الفخامة المخيفة. وأخيرًا فُتح الباب وظهر الحارس وهو يقول:

- تفضلا.

وأدخلهما وأغلق الباب.

القاعة واسعة كأرض الصيد والطراد. الصيادون نائمون، والفريسة مستيقظة. واسعة ومضيئة، والطنافس تشع لون الدم. في مثل هذا الجو، وسط هذا المكان، لم يكن صالح يصلح شاهدًا بأي حال من الأحوال. كان يرتعد نفس ارتعادة الفريسة. والقاعة مليئة بالناس، عشرين، ثلاثين، ثيابهم وملامحهم متشابهة، من الصعب تمييز الشيخ من بينهم إذا لم يكونوا جميعًا شيوخًا. كانوا جالسين مستندين على امتداد الجدران الأربعة للقاعة. مربع أبيض اللون من الأجسام المسترخية شبه النائمة أو المخدرة. في صدر القاعة كان هناك جهاز ضخم للفيديو، فوقه شاشة واسعة وعريضة تكاد تقارب شاشة السينما، تعرض مشهدًا غريبًا من أحد الأفلام. وفي الوسط كانت هناك عدة مناضد متتابعة عليها كل شيء تقريبًا: أطعمة، وسجائر، وخمور، وعطور، ومناديل ورق، ومزيلات للرائحة، وربما مخدرات أيضًا. وظلَّا واقفَين دون أن يبالي أحد بهما. بعضهم ألقى عليهما نظرة عابرة ثم أداروا وجوههم إلى الناحية الأخرى، والبعض بقي نائمًا أو مغشيًّا عليه.

وأخيرًا نهض أحدهم. قصير القامة، ضئيل الجسم إلى حدٍّ ملحوظ، يرتدي الثوب الأبيض دون غطاء للرأس، ويسير فوق الطنافس حافي القدمين. وقف أمامهما وهو يقول مبتسمًا:

- مرحبًا.

وتنفس مصطفى الصعداء. كانت اليد الممدودة إليه صغيرة وآدمية، ناعمة بعض الشيء. هتف وهو يشير إلى صدر المجلس:

- تفضلا.

وانتظر صالح حتى يسير هو أولًا، فانتظر مصطفى، ثم سارا خلفه. لم يتحرك أحد من الرجال المستندين إلى الجدران. أشار إليهما ليجلسا فوق بعض الوسائد المتناثرة، وانتظرا أيضًا حتى جلس هو أولًا. وحين رأى نظرة الدهشة في أعينهما قال وهو يشير إلى بقية من في المجلس:

- الإخوان متعبون قليلًا، لقد سهرنا طوال الليلة الماضية، لم ينم أحد حتى الآن، كنا نشاهد الفيديو ونتسامر.

وحدق في عين مصطفى فجأة وهو يقول:

- يبدو أنك أيضًا لم تنم جيدًا في الليلة الماضية.

فوجئ مصطفى بالهجوم المباغت، ففقد الجزء الضئيل الباقي من شجاعته. كان وجه الشيخ في وجهه تمامًا، وعليه ابتسامة باردة. أدار عينيه بسرعة وتظاهر أنه يشاهد شاشة الفيديو الضخمة. كانت هناك

امرأة عارية الصدر تَصدر أصواتًا غريبة مسعورة. وأدار وجهه مرة أخرى ليرى عينَي الشيخ في انتظاره، وقال:

- يبدو أنني متعب قليلًا.

- مصري؟

- أجل.

- أنتم تحبون السهر.

- أجل، ولكنني متعب.

والتفت الشيخ التفاتة سريعة إلى صالح وهو يسأله:

- ابن مَن؟

ذكر صالح اسمه ولقب عائلته. لم يبدُ على الشيخ أنه يعرفه. قال:

- وماذا كان يعمل والدك؟

- غواص.

فقد اهتمامه به.

تقدَّم رجل أسود اللون يمسك دلة القهوة في يد، ويمسك في اليد الأخرى صفًّا من الفناجين. أعطى كلَّ واحد منهما فنجانًا، كان من الذهب الخالص. صب في كلٍّ واحد قليلًا من القهوة تشع منها رائحة الهيل، ثم دار على بقية الجالسين. بعضهم استيقظ، وبعضهم شرب القهوة وهو مغمض العينين. وتأمل مصطفى فنجان الذهب في يده. كانت هناك شراهة غريبة ورغبة حارة لرؤية الذهب وملامسته في أي وقت وبأي وسيلة، كأنها الوسيلة الوحيدة للإحساس بالأمان. شرب الشيخ القهوة على مهل، وبدا كأنه منشغل بالفيلم. كان هناك رجل يجلد المرأة المسعورة، وكانت تتأوه، لا من الألم، ولكن من فرط اللذة. التفت الشيخ إليه بغتة وهو يقول له:

- منذ متى وأنت هنا؟

قال مصطفى:

- بضعة أشهر.

- آه، لا تزال طازجًا.

وضحك مصطفى، حاول أن يفهم مغزى الكلمات، أهو يجامله، يستدرجه، أم يحقق معه؟

قال الشيخ في اهتمام مفاجئ:

- لقد حدثني جاسم عنك، هو ابني الوحيد، وأنا أهتم كثيرًا بكل ما يخصه.

فكر مصطفى: هل يقف الأمر عند هذا الحد، أم أن جاسم هو مدخله البعيد؟

قال مصطفى الكلمات التي لم يكن يقدر أن يقول غيرها:

- إنه طالب ذكي.

قال الشيخ بتأكيد:

- أعرف ذلك.

وصمت قليلًا. نظر مصطفى إلى صالح، كان قد جلس بعيدًا، ترك لهما الحرية لكي يمارسا معًا لعبة القط والفأر. كان هو أيضًا فأرًا مسكينًا لم يتصور أن المصيدة بمثل هذه الفخامة.

قال الشيخ:

- إنني أفكر في أن تعطيه بعضًا من الدروس الخصوصية، هل يسمح وقتك بذلك؟

ما أشدَّ أدب السؤال ورقته! كان ينظر في عينيه مباشرة. ملامحه دقيقة، عيناه براقتان، أنفه مدبب كالصقر، وكذلك ذقنه. تساءل مصطفى: «هل تقف الصفقة عند هذا الحد؟». قال:

- أمرك. رغم أنني أرى أنه ليس في حاجة إلى دروس، فمستواه الدراسي جيد بما يكفي.

كان يكذب، وكان ينافقه. وقال الشيخ بتحديد أكثر:

- كم ثمنك؟ أعني كم تطلب؟

دخل الرجل الأسود مرة أخرى، كان يحمل زجاجة كبيرة من العطر، وأخذ ينثرها على الموجودين. بعضهم كان يمد يده، يتلقف القطرات ثم يمسح بها وجهه، والبعض الآخر استسلم للقطرات الباردة دون أي إحساس. مد الشيخ يده ومسح وجهه بالعطر، ومد مصطفى يده فأحس بقليل من الانتعاش. أحد النائمين كان يحلم حلمًا كئيبًا، تأوه في صمت خافت.

قال مصطفى في تبرم:

- لا أهمية للنقود.

قال الشيخ:

- ألا تأتون إلى هنا من أجل النقود؟

أحس مصطفى بقبضة حصار الإهانات وهي تُفرض من حوله. تململ في جلسته كأنه على وشك النهوض. كان صالح قد ابتعد كثيرًا، كلما نظر إليه وجده قد ازداد ابتعادًا. قال أشياء أخرى عن نفسه. ارتفع صوت موسيقى الفيديو، كانت هناك مطاردة بين رجل وامرأة، الرجل يجري عاريًا، والمرأة عارية أيضًا تمسك في يدها رمحًا طويلًا، تطارده في شراسة وفي عدوانية خالصة. مال أحد الرجال، نزل من فوق الحشية التي يستند إليها، انطرح على الأرض فجأة في صوت مكتوم، لم يكن يتنفس تقريبًا. دخل اثنان من الخدم السود، حملاه في صمت وأسرعا به إلى الخارج.

قال الشيخ:

- كم تبلغ مدة إعارتك؟

قال مصطفى:

- أربعة أعوام.

قال الشيخ:

- هل تعتقد أنها كافية لتكوين نفسك؟

قال مصطفى:

- الأمر ليس بيدي.

قال الشيخ:

- الأمور بأيدينا هنا. الشيوخ هم استثناء من كل القوانين. ألم يخبرك أحد بذلك؟

صمت قليلًا. لم يكن ينتظر إجابة منه، وأضاف في برود قاطع:

- ومع ذلك، فالبعض لا يكمل بيننا عامًا واحدًا، ربما بضعة أشهر.

ارتبك مصطفى. كان الشيخ يدور حوله كأنه مصارع إسباني، يرشق جسده بسهام الوعود الملونة والتهديدات الباترة. لو أنه يفهم أصول هذه اللعبة الغريبة، لو أنه يعرف لماذا تدور أصلًا.

قال الشيخ:

- أستطيع أن أضاعف مدة إعارتك لو أردت، ولكن هذا يعتمد على...

وصمت. فانزلق مصطفى إلى السؤال:

- على ماذا؟

سكت الشيخ ثم قال في سخرية:

- على مستوى جاسم الدراسي بطبيعة الحال.

كان الشيخ مستمتعًا بهذه المراوغة. ودخل الرجل الأسود وهو يحمل مبخرة يتصاعد منها الدخان، أخذ يطوف على الجالسين، يضع المبخرة في مواجهة أنوفهم، بعضهم كان يستيقظ مذعورًا ويحرك الهواء دافعًا الدخان إلى أنفه ووجهه، والبعض كالعادة لم يبدُ عليه أي إحساس بالرائحة. هل يضعون في هذا الفحم قطعًا من اللحم المحترق؟ كانت المرأة قد نجحت في اللحاق بالرجل، ولكنها لم تستعمل الرمح.

قال الشيخ وهو يومئ ناحية صالح في احتقار:

- لماذا جئت به معك؟

قال مصطفى:

- لم أكن أعرف الطريق.

قلب الشيخ شفتيه وهو يقول:

- لا يوجد طريق آخر.

وصمت قليلًا ثم قال:

- سوف تأتي لإعطائه الدروس هنا بطبيعة الحال.

قال مصطفى:

- أمرك.

قال الشيخ:

- ولكن للبيوت أسرارها، وأنت تعرف ذلك طبعًا.

قال مصطفى:

- أعرف.

قال الشيخ:

- حسنًا. ربما كان عليَّ أن أمهد من الآن لإطالة مدة إعارتك.

كان لا يزال يبتسم نفس الابتسامة غير المريحة. والتفت مصطفى إلى الشاشة ليهرب منه، ولكنه فوجئ بماتيلدا على الشاشة، كانت تخلع ثيابها قطعة قطعة ببطء شديد، بنفس المتعة والانسيابية التي يعرفها. أصبحت عارية تمامًا، وجسدها خاليًا من البقع السوداء. جسدها الضئيل كان ضخمًا على الشاشة، يكاد يملأ فراغ القاعة. كانت تتلوى فوق جسد رجل لم يكن شكله واضحًا في الصورة. أهو الشيخ، أم أحد أصدقائه، أم يكون هو نفسه مصطفى؟! تقول الكلمات نفسها، ويضج وجهها بدرجة الشهوة، وينز جبينها بحبات العرق نفسها، كأنها تضاجع كل الموجودين في القاعة، حتى النائمين منهم، والكاميرا تغوص داخل جسدها. بالتأكيد لم يكن هو، ولم تكن تلك غرفته، قد يكون أي شخص، ولكنه لا يزال متهمًا. كانت شهوة ماتيلدا عارمة، حتى إن المنظر كاد يصبح ضبابيًّا من أثر الصهد المنبعث من جسدها.

أحس مصطفى بالخوف والرغبة والاختناق، حتى النائمون استيقظوا، كلهم ينظرون إليه، يحاصرونه، يرصدون اختلاجات وجهه وزفرات أنفاسه. لم يستطع أن يحول عينيه عنها، كان يريد أن يعرف من صاحب هذا اللحم الآخر الذي يمتزج مع لحمها، كان يعرفه ولا يعرفه في الوقت نفسه.

يعرف هذه الانتفاضة، وهذا الإحساس الغامر بالمتعة، والشعور الطاغي بامتلاك ما لا يُمتلك، بالألم والفرح والخوف والانبهار.

وكان صوتها يدوي في جنبات القاعة، يختلط بصدى أروقة القصر الخالية وهدير الخليج وصمت الصحراء. خُيل إليه أنه لمح معالم غرفته، ولكن ذلك لم يكن صحيحًا، أو هكذا أكد لنفسه. نظر ناحية صالح، كان يراقب الفيلم والعرق يغمر وجهه. ونظر إلى الخلف، فوجد الشيخ يحدق في وجهه بالابتسامة الباردة المخيفة نفسها. قال له:

- هل أعجبك الفيلم؟

كان العرق يغمر وجه مصطفى، وشعر بجفاف ريقه. قال متوترًا:

- أنا... أنا...

قال الشيخ:

- عندما تدخل قصري، لا أريد منك أقل من الولاء الكامل.

كان صوته غريبًا، صوت قوى خفية، تملك الوعد الغامض والتهديد الكامن.

تخاذل مصطفى، تمتم في صوت هامس، حاول كل جهده ألا يسمعه صالح:

- ربما كان عليَّ أن أقول شيئًا.

قال الشيخ في اهتمام:

- ماذا؟

تردد مصطفى ليُخرج الكلمات من أعماقه، ليقرر مصيره، لينقذ نفسه الضائعة. شيء أشبه بفصد الدم، بالقتل العمد. قال في صوت خافت:

- أعتقد أنني أعرف شيئًا عن مكان هذه الفتاة.

وابتسم الشيخ ابتسامة غاية في الغموض، وأشاح بيده بلامبالاة وهو يقول:

- لا أهمية لذلك، أصدقاؤها الآسيويون قد وشوا بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوداعة والرعب

وصل ثلاثتهم إلى صالة المطار في منتصف النهار، ساروا على الأرض الزلقة. اختفى التراب، وبدت السماء الباهتة بعيدة خلف الحواجز الزجاجية. اجتازوا متاهة العوارض المعدنية وإجراءات التدقيق، وأصبحوا أمام المنفذ الأخير الذي يجلس خلفه ضابط الجوازات.

وقف طارق خلف أبيه كما تعوَّد دائمًا، ووقف الأب، عبد الغني أفندي، أمامه كما هو مفروض، ووقفت الأم بجانبه، تحتضن حقيبتها السوداء التي لا تفارقها، تراقب ما حولها بعقل نصف غائب وعينين تائهتين. كان طارق متبرمًا، والأب قلقًا، وظلت هي صامتة، وحتى عندما تحدث إليها ضابط الجوازات لم ترد عليه. سألها سؤالًا عاديًّا فأشاحت بوجهها، وتدخَّل عبد الغني بسرعة لينقذ الموقف. أشار الضابط نحوها وهو يبتسم:

- ما لها؟

قال عبد الغني في لهجة يشوبها التوسل:

- مريضة قليلًا.

ختم الضابط الجواز وهو يقول في سخرية:

- لماذا لا تذهب للعلاج إذن بدلًا من السياحة؟!

التفت عبد الغني إلى الخلف، لمح النظرة الغاضبة في عينَي طارق، وخشي أن يشتبك الولد مع الضابط ويتعطل كل شيء، ولكن الضابط لم يلحظه، وطارق لم يتهور. والتقط عبد الغني أنفاسه أخيرًا عندما مروا وأصبحوا خلف الحاجز الزجاجي. حمل حقيبته الصغيرة، وحمل طارق آلة الجيتار وسار في خطى متباطئة جعلت الأب أكثر غيظًا. وأوشك طارق أن يثير مشكلة جديدة عندما أصر الشرطي على أن يضع الجيتار داخل جهاز التفتيش ليمر إلى الناحية الأخرى، وأوشكت أعصاب الأب المتوترة أن تفلت وهو يسمع صياح طارق:

- الأشعة يمكن أن تتلف الجيتار، تغور الرحلة كلها!

وصرخ عبد الغني:

- طارق!

صرخة عالية، استغاثة أخيرة، ضاعت وسط الضجة. ورضخ طارق، وترك الجيتار يمر إلى الناحية الأخرى. أصبحت ممرات المطار الداكنة أمامهم لا يفصلها عنهم إلا حائط من الزجاج. أحاط بهم جو الصالة الرطب المعبأ بأدخنة السجائر، وعوادم الطائرات، وشاشات العرض الملونة، والأرقام المضيئة، وقطع الآثار المقلَّدة، والرجال المرتابين، والمضيفات اللاتي يتأودن في نعومة، وتجار العُملة الذين يسيرون في زهو، وموظفات الاستعلامات المحجبات اللاتي يرفضن الإجابة عن أي سؤال.

كل هذه الحركات العشوائية ينظمها إيقاع غريب، يتحول إلى نبضات تتدفق داخل عروق عبد الغني أفندي فتملأه بالنشوة والتوتر. هذه هي رحلته الأولى خارج أرض الوطن. لقد عاش دائمًا أسير الوظيفة الواحدة، والغرفة الواحدة، والزوجة الواحدة. ولكن هذه الطيور المعدنية الرابضة سوف تمنحه تلك الفرصة الفريدة للانعتاق. كانت الأم صامتة، متباعدة، تجلس على يمينه بحقيبتها السوداء؛ طوق نجاتها الأخير. حتى طارق يبدو بعيدًا، يضع الجيتار على رُكبتيه، ويتعمد تجنب النظر إليه. لم يُطِق هذا التجاهل، صاح فيه:

- وماذا بعد؟!

قال طارق دون أن يلتفت:

- أنت تعرف، لم أكن أريد هذه الرحلة، كنت أود الذهاب إلى أمريكا.

- ومَن يقدر على أمريكا؟

ورن صوته عاليًا، فاضطر لخفضه. قرب كرسيه من طارق وهو يقول له متوددًا:

- اسمع كلامي، فارنا جميلة، بل غاية في الجمال. كل الذين ذهبوا إليها قالوا ذلك.

ورد طارق في امتعاض:

- شيوعيون.

وأدلى الأب بحجته الوحيدة:

- ولكنها بلاد رخيصة.

لم يكن طارق يتصور أن هناك حدًّا ماديًّا لا يمكنهم تخطيه. زم شفتيه متبرمًا. نظر عبد الغني إلى الأم يستجديها أي نوع من التأييد، ولكنها ظلت بعيدة. عيناها معلّقتان بذلك الأفق الوهمي الذي تصطحبه معها دائمًا حتى في أكثر الأماكن ضيقًا. كيف نبع داخلها هذا الحزن الغريب الذي لا تفتر حدته؟ كيف أحاطها بحاجز من الأسى، وعزلها عن العالم الذي يعيش فيه الآخرون؟ كان عبد الغني بعد أن يسكن كل شيء ويهبط الظلام، يستيقظ مفزوعًا على صوت هذا الحزن الصامت، يراها جالسة مستندة برأسها إلى الحائط متساقط الطلاء وهي تحدق في الظلام، لا يسمع حتى صوت تردد أنفاسها، يصيح فيها متوسلًا:

- ابكي، ابكي يا رتيبة.

ولكنها لم تكن تسمح لنفسها بأي شيء يمكن أن يخفف من حدة هذا الأسى العميق.

بدأ رفاق الرحلة يُقبلون، يتجمعون حول بوابة الخروج نفسها، ينتظرون النداء نفسه: ممثل تلفزيوني نصف مشهور يهز رأسه محييًا الجميع. رجل سمين تصحبه ابنته السمينة، ورغم ذلك لم يكف عن السباب منذ أن أقبل. رجل أشيب أخرج كل ما في جيبه من دولارات، أخذ يحكها في زجاج المنضدة ليتأكد من أنها ليست مزيفة.

وراقب طارق هذا الجمع المتنافر الذي لا يبعث على الاحترام، وهتف في حنق:

- ناس لمامة! في طائرة أمريكا لا يمكن أن ترى مثل هذه الأشكال!

سلطت الفتاة السمينة عينيها عليه، وزاد هذا من ضيقه. وارتفع صوت الميكروفون يعلن عن رقم الرحلة، فانتفض عبد الغني واقفًا، كان أول من اتجه إلى البوابة. هذه الرحلة هي أول متعة في حياته. كان جريئًا إلى حدِّ الجنون وهو يسحب مدخراته، ويحمل الجنيهات التي لها رائحة عرقه الخاصة إلى تاجر العُملة. كل أوراق العشرة جنيهات الكبيرة الملونة، بكل ما عليها من مآذن وأقنعة فرعونية، تحوَّلت إلى دولارات خضراء باهتة، صغيرة الحجم، عليها صور لأناس متجهمين، ولا تحمل رائحة أي عرق. أحس عبد الغني بنوع من خيبة الأمل رغم أن التاجر تناول منه الجنيهات في احتقار، وأحصى له الدولارات في اعتزاز، تناولها عبد الغني بين أصابعه فلم تكد تظهر. وبدأ إجراءات السفر بسرعة، خوفًا من صمتها، ومن عناد طارق، ومن ضياع آخر الأحلام.

هدرت محركات الطائرة، وابتسمت المضيفات ابتسامات شاحبة مقتضبة. جلس عبد الغني بجانب الأم، وابتعد طارق إلى مقعد مقابل. وحين حاولت البنت السمينة ذات النظارات التظاهر بالبحث عن مكان لها، أسرع بوضع الجيتار على المقعد الخالي بجانبه، فتراجعت الفتاة في خجل مباغت. وبدأت الطائرة رحلة الصعود عندما بدأ الظلام يحل على المدينة المتعبة، الراقدة أسفل الأفق، كأنها حلم غريب لم يغص أحد في جحيم مشاكله. شعر عبد الغني وهو يرتفع أنه يتحرر منها أخيرًا، يتحرر من الماضي والحاضر، ويدخل في لحظة لها سر مدينة الظلام وبرودة السحاب. التفت إلى الأم وهو يقول في نشوة:

- عارفة يا رتيبة؟ يجب أن نبدأ من جديد. عندما يطول الحزن يصبح مؤلمًا إلى حدٍّ لا يُطاق، ويؤثر في خلايا الجسم ويصيبه بالكآبة. والحياة لا تتوقف.

لا ترد عليه. لا يجد بُدًّا من مواصلة الحديث:

- أنتِ لا تتألمين وحدكِ، حزنك يؤلمني، ويؤلم طارق. هذه الرحلة يجب أن تكون بداية جديدة لحياتنا.

وظلت الطائرة تواصل الارتفاع، تدور في حلقات متتابعة، فتتداخل عقود الضوء، ويختلط النهر بالأسفلت، والشوارع بالبيوت، والصحراء بالمقابر. أضلاع المدينة مترامية مثل كائن خرافي، لم تعطهم سوى بيت ضيق، ومقبرة مقفرة، ومكان ضئيل للحب، ومكان شحيح للعزاء.

هتف عبد الغني:

- ما رأيك، عندما نعود من هذه الرحلة نفتح التلفزيون؟ هه.

التفتت إليه، طعنته بنظراتها. أحس أنها في هذه اللحظة تكرهه كما لم تكرهه قَطُّ. لم يجرؤ على معاودة الحديث. نظر إلى الحقيبة السوداء وهي تضغط عليها بأصابعها الطويلة النحيفة الشاحبة. هنا، حيث تتجمع كل الذكريات الحية، من الميلاد إلى الموت، متوهجة وجاهزة للانبعاث. التصقت بجدران الطائرة، ابتعدت عنه إلى أقصى ما تستطيع. وأحس أنه لن يجرؤ على لمسها بعد هذه اللحظة.

وقفت المضيفة أمامه، لم تكن تبتسم، تسأله فقط عما يود أن يشربه. طلب كوبًا من الماء لعله ينقذه من إحساسه المرير بالعطش. عرضت عليه خمرًا فرفض. ناولته الماء وابتعدت عنه. أغمض عينيه، وأحس بوطأة الهزيمة. وظلت الطائرة تواصل سيرها في الظلام.

مطار فارنا صغير. الجو دافئ، والسماء غنية بالنجوم. لم يتكلم ضابط الجوازات كثيرًا، ولكنهم فتشوا الأمتعة بدقة بالغة. كل شيء منظم دون أي صوت. ركبوا الأتوبيسات التي كانت في انتظارهم. بدأت رحلتهم خلال شوارع المدينة نصف المظلمة. كانوا في طريقهم إلى منطقة الفنادق على شاطئ الرمال الذهبية خارج المدينة. ومرة أخرى لم يُخفِ طارق تبرمه. مدينة إقليمية بسيطة ليس فيها ما يبهر. والفتاة السمينة تجلس بجانبه. لا يدري كيف فعلت هذا! كيف أفلتت من أبيها السمين وتركته يجلس وحيدًا في مؤخرة الأتوبيس! لم يكن لدى طارق ما يفعله، فأخذ ينظر في أسى إلى خارج النافذة. وبدأت البنت استعدادها للحديث معه، عدلت نظارتها، ثم مدت يدها بخفة وفي حركة جريئة ولمست أوتار الجيتار، فانتفض طارق. قالت:

- هل تعرف أغنية «فندق في كاليفورنيا»؟

- طبعًا.

- اعزفها.

هتف في غيظ:

- الآن؟! بعد هذه الرحلة المتعبة؟!

قالت في إلحاح:

- هل تعزفها غدًا؟

- ربما بعد أسبوع.

أصبح الأتوبيس خارج المدينة. وقفت فتاة جميلة ضئيلة الحجم ترحب بهم، كلماتها خليط من الإنجليزية والعامية المصرية المضحكة، قالت إنها مشرفة الرحلة، وإن اسمها «ماجي»، وإنها بالتأكيد تختلف عن الشوربة «ماجي»، وضحك الجميع. كانت هذه أول لمسة من الحفاوة الحقيقية وسط برودة الاستقبال الرسمي. لم تعجب النكتة طارق، وجذب الجيتار بعيدًا عن أصابع الفتاة السمينة. كانت ماجي تحذرهم من تجار العُملة في السوق السوداء، والجميع يهزون رؤوسهم في موافقة، ولا أحد ينوي الأخذ بنصيحتها. كان عبد الغني يعرف أن سعر الدولار يباع بأضعاف الثمن في السوق السوداء، وهذه الفتاة لا تعني حقًّا ما تقول، ربما كانت بشكل أو بآخر تتاجر في العُملة. دخل الأتوبيس في طريق مظلم صامت. أحاطتهم الأشجار الكثيفة. كانوا يشقون طريقهم وسط غابة ساكنة شديدة الظلمة. كل شيء يتم بانسيابية الأحلام ورقتها. توقف الأتوبيس، وهتفت الفتاة:

- هذا شاطئ الرمال الذهبية.

وبدا البحر عند حافة الأفق. نهض طارق واقفًا. وضع الجيتار على رُكبتَي الفتاة السمينة، ثم ترك لها الأتوبيس. وقف في الخارج على ربوة خضراء يشم قليلًا من الهواء النقي. وللمرة الأولى أحس أن ثمة شيئًا مختلفًا في هذا المكان، لعله سكون الغابة المطبق الذي لا يتخلله إلا أنفاس واهنة، كأنها أنفاس الخَلق الأول. وبدأ الجميع يهبطون من الأتوبيس. كان عليهم أن يدفعوا هنا أولًا بالدولار تكاليف الإقامة، ويختارون الفنادق التي سيقيمون فيها.

عندما هبط عبد الغني اقترب منه أحدهم. خرج من جوف الظلمة، وابتسم له متوددًا وهو يهمس بالإنجليزية:

- هل تغيِّر النقود؟ هل معك دولار؟

انتفض عبد الغني من النشوة. ها هي السوق السوداء قد فتحت أبوابها أمامه منذ اللحظة الأولى. كان يعرف مدى خطورة هذا التبادل العلني، ولكن الرجل اختاره من بين الجميع ووضع فيه ثقته. قال في زهو من يملك الدولارات:

- كم؟

قال الرجل وهو يلتفت حوله في حذر:

- أربعة ونصف لوفا للدولار.

كان هذا السعر أعلى مما أخبروه، ولكنه قال في حيطة بالغة:

- انتظرني هنا حتى أعود من الداخل.

ولم يكن أمام الرجل إلا الانتظار في الظلام. بينما خطا عبد الغني في ثقة إلى المبنى المضيء، رأى الوجوه التي رافقته عن قرب للمرة الأولى، وعرف مَن منهم سينزل معه في الفندق نفسه، وضحك عندما رأى الرجل السمين من بينهم، فهذا يعني أن الفتاة السمينة التي تطارد طارق لن تترك له فرصة للراحة.

ارتفعت أصوات الضجة المصرية المميزة، وعكرت جو السكون المخيِّم على المكان. تعرف عبد الغني أفندي على فندقه، وطار القسم الأكبر من الدولارات، تحوَّل إلى ظرف فيه بعض تذاكر الطعام، وبعض الأمنيات بأيام هادئة في جنة مؤقتة. وعندما خرج، وجد الرجل السمين قد سبقه أيضًا في عقد الصفقة مع الرجل البلغاري. رآهما عائدَين معًا من جوف الظلام، والرجل يتحسس جيبه في رضا تام. استدار البلغاري نحوه مبتسمًا وهو يردد:

- هل تنوي التغيير؟

قال عبد الغني:

- مائة.

قال الرجل:

- فقط؟

وأشار إليه أن يتبعه إلى المكان المظلم. قال عبد الغني في حذر:

- أرني نقودك أولًا.

أخرج الرجل صاغرًا كومة من النقود وعدَّها في حذر، ثم ناولها لعبد الغني وابتعد عنه خطوتين، وبقي ساكنًا منتظرًا. أدار عبد الغني النقود إلى مصدر الضوء، تأمل حروفها الغريبة، وصورة الرجل المرسوم عليها والذي ينظر نحو حاملها في تهديد واضح. لم يفهم منها إلا الرقم المكتوب في كل ركن من الأركان. فركها ليتأكد من أنها ليست مزيفة. أحصاها أكثر من مرة، وظل الرجل متواريًا صابرًا متحملًا كل الوساوس. وأخيرًا، أخرج عبد الغني المائة دولار بالغة الصغر والرقة، مد يده للرجل الذي خرج من الظلام وتناولها بسرعة ثم اختفى في الظلام من جديد.

صعد عبد الغني إلى الأتوبيس. ابتسم له الرجل السمين، وهز له رأسه محييًا. أصبح لهما معًا سر مشترك. قال الرجل في ود:

- هذه أول مرة لك في فارنا؟

أومأ عبد الغني برأسه.

قال الرجل:

- طريفة ورخيصة، أنا آتي إلى هنا كل عام.

هز عبد الغني رأسه يبدي إعجابه، وعاد إلى مقعده. لم يعد طارق بعد، والفتاة ما زالت تحمل الجيتار على رُكبتيها، وتحدق من خلال النافذة في بلاهة شديدة. جلس عبد الغني بجانب رتيبة، لم يكن في مقدوره أن يبقى صامتًا بعد هذا الإنجاز الذي قام به. قال:

- تصوري؟ لقد بعت الدولارات بسعر رهيب. إنهم هنا يعشقون الدولارات عشقًا.

وعاد طارق قبل أن يتحرك الأتوبيس. ظل واقفًا في الممر، والفتاة تحدق فيه دون أن تفهم لماذا يفضل الوقوف ومقعده خالٍ. استطاع أن يرى من خلال النافذة الشوارع المغسولة، والعشاق الساهرين، والأضواء المتتابعة وهي تتراقص مع حركة الموج. ازداد حنقه على أبيه، لو أن هذه الرحلة إلى أمريكا لتغيرت مسيرة حياته. سوف يتنزه ويدرس ويعمل ويبدأ من جديد، ولكنهما يريدان ربطه في المنزل بقربهما مثل الدجاجة، كأنه هو التعويض الوحيد عن خسارة لم يتسبب فيها، وعليه أن يتحمل نصيبه كاملًا منها.

وصلوا إلى الفندق أخيرًا. نزل الجميع. حملوا حقائبهم وصعدوا الدرج الحجري. بدت واجهة الفندق وهي تكاد تختفي خلف الأشجار الكثيفة. لم يكن بالغ الفخامة، كان يساوي تمامًا الثمن الذي دُفع فيه. أخذ مفتاح الغرفة، وتبعته رتيبة خلال الطرقة الطويلة. غرفة طارق في مواجهتهما، كان يتثاءب وألقى عليهما تحية مقتضبة ودخل قبلهما. الغرفة ضيقة، السريران صغيران. يبدو أن كل شيء قد أعد لكي يفي فقط بالاحتياجات الضرورية، لا مكان لأي رفاهية أو نزوة. غيَّرت رتيبة ملابسها في

الحمَّام، خلعت السواد ولبست سوادًا آخر. اتجهت إلى الفراش الصغير الملتصق بالحائط، وأدارت ظهرها له، ظلت بنفس الدرجة من البُعد والتنائي، وكأنها لن ترى العالم معه مرة أخرى، وسوف يسير كل واحد منهما وحيدًا في سرداب حزنه الخاص.

جلس بجانب النافذة يراقب حركة البحر. طائر وحيد يحوم في صمت تحت أشعة القمر، بعض السحب المتفرقة تدفعها الريح، ونجوم بعيدة المنال. لم يكن عبد الغني رغم جسده المتعب قادرًا على النوم، كان يريد أن يخرج ليرى هذا المكان الغريب في الليل. طوال السنين الماضية لم يكن يجرؤ على تركها وحيدة حتى بعد أن تغرق في النوم، يكتفي بوضع كوب من الماء بجانب سريره ويكتم بوله، ويظل مؤرقًا حتى الصباح وهو مضطجع بجانبها. نهض، تأمل جسدها الساكن، ثم أطفأ النور وأغلق الباب خلفه باحتراس. سار في طرقة الفندق الخالية. ضوء غرفة طارق مطفأ، لا بد أنه هو الآخر قد نام. موظفة الاستقبال فتاة صغيرة جميلة الوجه، تقطع الوقت بمذاكرة دروس الفرنسية بصوت مرتفع. أومأ لها برأسه محييًا، ثم اتجه إلى قاعة الجلوس الملحقة بالاستقبال، وأدار ظهره لها حتى لا يتهمه أحد بأنه يجلس من أجلها. أخرج النقود الجديدة، وأخذ يتأمل لونها البُني الضارب في الحمرة، والحروف ذات الأشكال الغريبة كأنها وثيقة دخوله إلى هذا العالم. وقبل أن يعيدها إلى جيبه سمع صوتًا صارمًا باردًا يأتي من خلف ظهره:

- لقد خدعوك.

التفت في فزع. رجل يقف خلف مقعده تمامًا بحيث يرى كل ما في يده، نحيف، له لحية صغيرة مدببة، وعلى عينيه نظارة بيضاء، وفي يده غليون مشتعل، وجهه شاهق البياض، تكاد عروقه تظهر تحت الجلد، وعلى وجهه ابتسامة غريبة. سار ببطء من خلف المقعد حتى أصبح في مواجهة عبد الغني. وضع الكتاب الضخم الذي كان يحمله في يده على المنضدة، وأشار بإصبعه النحيفة إلى النقود، وعاد يكرر بنفس اللكنة الغريبة:

- لقد خدعوك. ضحكوا عليك.

ولم يتحرك عبد الغني، لم يستطع حتى إعادة النقود إلى جيبه. جلس الرجل وحدق في عينيه مباشرة كأنما يسبر غوره، ثم قال:

- أنت زائر جديد. لعلك اشتريتها الليلة. هه، أليس كذلك؟

فرد عبد الغني يده بالنقود، وضعها على المنضدة أمامه، وقال في صوت خافت:

- هل هي مزيفة؟

قال الرجل بسرعة وهو ينفث دخان غليونه:

- كلَّا، إنها أصلية بطبيعة الحال. كل ما في الأمر أنها ليست بلغارية.

صرخ عبد الغني مفزوعًا:

- ماذا؟!

رفعت فتاة الاستقبال رأسها، وتوقفت عن ترديد الأفعال الفرنسية. وضع الرجل إصبعه فوق فمه محذرًا، وأشار نحوها بطرف عينيه:

- لا ترفع صوتك، ربما تكون هذه الموظفة من البوليس السري. أنت لا تعرف قسوة البوليس البلغاري.

انكمش عبد الغني، لم يكن خائفًا من قسوة البوليس البلغاري بقدر خوفه من سطوة هذا الرجل الجالس أمامه. حتى هذه اللحظة لم يكن قد فهم أكثر من أنه خُدع، لم يفهم سر النقود، ولا سر هذه اللكنة الغريبة التي يتحدث بها الرجل، لذا فقد هتف في استكانة:

- إنني لا أفهم.

قال الرجل:

- الأمر بسيط، هذه النقود يوغسلافية.

كتم عبد الغني صرخته بصعوبة. مد الرجل أصابعه الرفيعة الشبيهة بالملقاط، وأخذ واحدة من الأوراق، وأشار إلى بعض الحروف الإنجليزية المكتوبة على ظهرها، وقال:

- انظر، إن اسمها «دينارا»، العملة البلغارية اسمها «لوفا». إن قيمة «الدينارا» أقل من واحد على مائة من اللوفا.

تمتم عبد الغني من بين أسنانه:

- يا نهار أسود!

- بكم اشتريت؟

- مائة دولار.

أخذ الرجل يهرش رأسه كأنه يحاول أن يتذكر شيئًا:

- ماذا يقولون في هذه المناسبة؟ ماذا يقولون؟ آه، «يعوض عليك ربنا»، أليس كذلك؟ المهم ألا يخدعوك مرة أخرى. يمكنهم أن يبيعوك نقودًا بولندية في المرة التالية.

وبدأ ينفث دخان غليونه في صمت. وأخذ عبد الغني يجمع النقود ويفردها في أسى شديد. أحس أنه يكاد يختنق من فرط الحنق والإحساس بخيبة الأمل، ومن دخان غليون هذا الرجل، كأنه يتعمَّد أن ينفثه في وجهه من فرط الشماتة.

وقال الرجل أخيرًا وقد رثى لحاله:

- اسمع، سوف أريك شكل النقود المتداولة هنا، حتى لا تخدع مرة أخرى.

وأخرج من جيبه عدة أوراق ملونة فردها أمامه، وبدأ يشرح له الأمر في تعاطف زائد. أحس عبد الغني بالمرارة وقد تبددت ثقته في نفسه، وفي كل خبرته النظرية التي تلقاها قبل أن يأتي إلى هذا

المكان، والرجل يعرض عليه الفئات المختلفة، كل واحدة لها لون مميز، ويتحدث بكلمات خليط من الفصحى والعامية المصرية وأحيانًا الشامية. كانت هناك ورقة مالية أخرى مختلفة في اللون والشكل عن بقية الأوراق. قال عبد الغني وهو يشير إليها:

- وهذه الورقة؟

قال الرجل وهو يلتقطها ويعيدها إلى جيبه:

- إنها ليست نقودًا بلغارية، إنها شيكل.

قال عبد الغني في استغراب:

- شيكل؟!

قال الرجل ببساطة:

- أجل. ألا تعرفها؟ إنها إسرائيلية.

ونهض عبد الغني واقفًا. قال الرجل مندهشًا:

- ماذا جرى لك؟! اجلس.

التفت فوجد فتاة الاستقبال تراقبه في اهتمام. اكتشف أنه يلتقط أنفاسه بصعوبة. جلس مرة أخرى، وظل الرجل يحدق فيه، وعلى وجهه نفس الابتسامة الغريبة. قال في نبرات بالغة النعومة:

- لسنا في حالة حرب. هل نحن كذلك؟

هز عبد الغني رأسه طائعًا. عاد الرجل يقول بنفس النبرات الناعمة:

- هل أنت خائف؟

أخرج عبد الغني صوتًا من أعماقه، وهتف:

- كلَّا. وممَّ أخاف؟

الرجل يبدو أشد ضآلة منه، ومع ذلك يتلاعب به. أكد عبد الغني كلماته:

- لست خائفًا بالطبع، ولن أخاف، كل ما في الأمر أن هذه هي المرة الأولى التي أجلس فيها مع إسرائيلي.

قال الرجل في هدوء كاذب:

- خطأ تاريخي.

نهض عبد الغني واقفًا مرة أخرى. قال:

- يبدو أنني سأذهب للنوم، لقد وصلت اليوم فقط، أعني من ساعتين تقريبًا.

قال الرجل بوقاحة:

- أنت تحاول الهرب!

احتد عبد الغني، كور قبضته في وجه الرجل وهو يهتف:

- أهرب ممن؟ منك أنت؟! نحن لم نهرب منكم قَطُّ. فاهم؟!

ارتفع صوته عاليًا. نهضت الموظفة واقفة. فُتح باب الفندق الزجاجي، ودخل جمع من السائحين وهم يرتدون ملابس السهرة.

قال الرجل:

- أنا آسف! لقد فهمتني خطأ، نحن لسنا في سيناء، نحن في فارنا.

حتى الاعتذار كان سخيفًا. جلس عبد الغني محرجًا لا يدري كيف يتصرف. واصل الرجل القول:

- ربما لو قدَّمت نفسي لفهمتني أكثر، اسمي بروفيسور رافي، رافي جولدمان، أستاذ في علم الاجتماع بجامعة تل أبيب.

وعندما لاحظ صمت عبد الغني، قال في تساؤل:

- أنت موظف عام، أليس كذلك؟

قال عبد الغني محرجًا، والرجل يجره رغمًا عنه إلى الحديث:

- أجل.

- وظيفة كبيرة كما أعتقد؟

- أنا على المعاش.

- مظهرك يدل على أن درجتك الوظيفية كانت كبيرة إلى حدٍّ ما، مدير عام مثلًا، هل أنا على حق؟ لعلك مندهش لأنني أستطيع تحديد الدرجة، هذا تخصصي العلمي.

قال عبد الغني وهو يحس بالاختناق:

- أي تخصص؟

- أنا متخصص في سيكولوجية الموظف المصري.

لم يعد عبد الغني قادرًا على الجلوس أكثر من هذا، جرى مسرعًا حتى خرج من باب الفندق، وقف في الساحة الخارجية المحاطة بالأشجار. تدفق هواء البحر باردًا في عروقه. هل انهار كل شيء؟ لم يعد هناك سبيل للهرب، عبثًا بذل كل مدخراته وهو يحاول الهرب، دون أن يدري أنه سيجد هذا الكابوس قابعًا في قاعة استقبال الفندق. كان هو وطارق ورتيبة يبحثون معًا، بطريقة مبهمة، عن أرض بلا ألم، بلا قبور تضم أجسادًا حميمة الصلة وترابًا عزيزًا كدمع العين، عن لحظة نسيان

صافية تحمل إليهم العزاء الشحيح، ولكن من دونهم جميعًا يصيبه الأرق وتسوقه المصادفة إلى هذه المواجهة، ذلك حصار الأسى الذي يلاحقه. يرتجف عبد الغني والهواء يلفحه بسياط باردة، يقف وحيدًا في مواجهة هذا التيه الساكن المظلم، يسري في جسده خوف غامض كدبيب حشرات زاحفة.

عاد مرتجفًا إلى الداخل. ما زال الرجل جالسًا في المكان نفسه، يتابعه بعينيه. أوشك عبد الغني أن يعبر قاعة استقبال الفندق مسرعًا إلى غرفته، ولكنه لمح على المنضدة بعضًا من الأوراق اليوغسلافية التي بلا قيمة والتي تخصه. أسرع وجمع الأوراق في قبضته، وتراجع دون أن يوجِّه إليه كلمة واحدة. ماذا ستفعل رتيبة حين تعرف أن هناك واحدًا منهم موجودًا تحت سقف الفندق نفسه، وربما لا يفصله عنها إلا هذه الجدران الرقيقة؟ لا يدري لماذا يرتعد إلى هذه الدرجة، أبرودة المكان أم مرارة الذكرى؟ يا رتيبة، عليكِ أن تعرفي أننا عقدنا معهم مصالحة، سواء كانت برضانا أم أرغمنا عليها، ولكنها مصالحة ملزمة، يعني أنهم لم يعودوا على الدرجة نفسها من البُعد، اقتربوا من لحمنا كثيرًا، اجتازوا الخنادق وبحار الدم والرمال التي لها لون البارود، جاءوا وأقاموا وتكاثروا كنباتات الحلفا، أصبحوا يتسكعون على النواصي، يساومون الباعة المتجولين، ويُبدون رأيهم في مجاري القاهرة، ويتشددون في أسعار العُملة في السوق السوداء. قروح متناثرة على جلدنا الدامي، لا دواء ولا شفاء. وعبد الغني متعب، وتعس، وعاجز عن النوم. خسر الكثير بالنسبة إلى ليلة واحدة. ظل يتقلب على الفراش الصغير حتى تسللت أضواء الفجر الشحيحة أخيرًا، فاسترخى جسده المتعب، ونام نومًا خاليًا من الأحلام.

لم يستيقظ إلا بعد أن سقطت أشعة الشمس مباشرة فوق وجهه. وجد رتيبة جالسة على حافة فراشها مرتدية كامل ملابسها.

قال:

- صباح الخير. هل نمتِ جيدًا؟

أومأت برأسها. تظاهر أمامها بالنشاط الجَم. لم يعرف إن كان ميعاد الإفطار قد فاته أم لا. قبل أن يهرع إلى الحمَّام سمع طرقًا على الباب. دخل طارق مبتسمًا وسعيدًا وهو يقول:

- إنه مكان مدهش! لقد استيقظت وتجوَّلت قليلًا، لم أتصوَّر أنه بهذا الجمال!

كان يعتذر لأبيه بطريقة غير مباشرة. ضربه عبد الغني على كتفه ضربة خفيفة، وقال في انشراح:

- أنا سعيد لأنه أعجبك. اليوم ستفرجنا عليه. هيا نستعد للإفطار.

وبعد دقائق كانوا جميعًا يخرجون من الغرفة. خففت رتيبة من حدة كآبتها، وبدأ طارق ينطلق في الحديث عن نزهته الصباحية. سادت الفندق غمغمات جميلة مرحة. الجميع يخرجون من الغرف يتقافزون فوق السلالم، يتبادلون تحية الصباح بمختلف اللغات. وجدوا الإفطار معدًّا في الهواء الطلق تحت ظلال الأشجار. جلس الثلاثة تحت ظل شجرة باسقة تلقي عليهم نتفًا من الأزهار البيضاء. أصر عبد الغني على أن يملأ طبق رتيبة بنفسه، وكوَّم طارق أمامها كومة من الأزهار. تحدث الجميع في صخب، وأكلوا بشهية. فرنسيون وألمان وعرب، عالم صغير التقى بالمصادفة. جاء الرجل السمين تتبعه فتاته السمينة، ألقى على الجميع تحيات صاخبة بمختلف اللغات، هللوا جميعًا كأنهم يعرفون

بعضهم منذ سنوات. وقف الممثل التلفزيوني نصف المشهور أمام مائدة الفرنسيات، يقلد لهن مشاهد صامتة، مبتذلة بعض الشيء، ولكنها أثارت ضحكات الجميع. وضع الرجل السمين بيضتين في فمه دفعة واحدة. مالت الفتاة السمينة تحدق في إناء الزبادي حتى أوشك اللبن أن يعلق بطرف أنفها. ضحك طارق في تشفٍّ. انتقلت عدوى المرح إلى رتيبة وابتسمت ابتسامة صغيرة. حاولت المشرفة البلغارية ماجي أن تقف على أحد المقاعد لكي تتغلب على ضجتهم، حتى تشرح برنامج الجولات الداخلية، ولكنهم أسكتوها. سار طارق إلى غرفته دون أن يشعر به أحد، وعاد وهو يحمل الجيتار، بدأ يعزف عليه وهو يتناول فطوره. نهضت سيدة فرنسية وأخذت ترقص مع الممثل التلفزيوني. مسحت الفتاة السمينة أنفها. وطوت ماجي الخريطة السياحية وانهمكت في التصفيق بحرارة. اختفى تل البيض وقطع الجبن ومربعات الزبد وعلب المربى من فوق المنضدة. أقبل أناس آخرون كانوا يسيرون في الشارع وانضموا إلى الدائرة. امتلأ المكان بمرح صاخب، حتى الجرسونات بدأن في التمايل وهن يحملن الصواني. وتمتم عبد الغني:

- يا لها من بداية!

ثم وضع أحدهم يده على كتفه. ظل ينظر إلى الأمام دون أن يجرؤ على الالتفات، كان يعرف من هو، يشم رائحته، نبرات لكنته، شعيرات لحيته، دخان تبغه. تجمع كل شيء في تحية الصباح. رفعت رتيبة عينيها، وتوقف طارق عن العزف، والفرنسية عن الرقص، واستدار الرجل وأصبح واقفًا أمامه وهو يعلق على شفتيه ابتسامة الأمس. كان يقول:

- هل قضيت ليلة طيبة؟ يسعدني أن أتعرف على أسرتك.

ثم جلس على المقعد دون أن يدعوه أحد. وضع طارق الجيتار على مقعد بجانبه. لم يجد عبد الغني صوته، امتلأ حلقه برمل غريب. وأشار الرجل إلى شخص آخر وهو يقول في بساطة:

- اجلسي يا ليزا.

تطلع طارق مدهوشًا. كانت هناك فتاة تقف بجانب المنضدة، تتقدم، تعدل المقعد وتجلس. تأملوها جميعًا. عينان واسعتان عميقتا الزرقة بالغتا الصفاء، شعر ناعم منسدل على كتفيها العاريتين، ملامح متناسقة، صورة دبت فيها حياة خاصة وأعطتها ذلك السحر الخاص الذي يجمع بين الخيال والواقع.

قال الرجل:

- هذه ابنتي الوحيدة، ليزا.

نظر عبد الغني إلى وجه رتيبة المستغرب، ووجه طارق المشدوه، ثم ساد الصمت. كان الدور عليه، والجميع ينظرون إليه حتى يتكلم. قال فجأة في صوت متحشرج:

- زوجتي. ابني طارق.

ولم يقدِّمه إليهما، ولم يبالِ الرجل بذلك، تصرَّف بشكل طبيعي جدًّا كأنه يعرف هذه الأسرة منذ سنوات. نظر نحو طارق، ورفع حاجبيه في إعجاب وهو يقول:

- عازف جيد. موسيقاه هي التي قادتنا إلى هنا. أليس كذلك يا ليزا؟

جلس طارق أمامها، فأرخت الفتاة وجهها، وقد علته حمرة خفيفة.

قال الرجل وهو ينهض:

- من الأفضل أن أحضر قليلًا من الطعام قبل أن ينفد كل شيء.

وترك ابنته وحيدة بينهم، قنبلة جميلة، ملغومة وهادئة، يشع جمالها هالة من الغموض والخوف. تلفت عبد الغني محرجًا. الرجل السمين يحدق فيه باهتمام شديد. والفتاة السمينة بدا عليها اليأس. فرض جمال الفتاة نفسه على المكان فخيم الصمت، حتى الشجرة كفت عن إلقاء الأزهار. ظلوا جميعًا يترقبون أي التفاتة، أي حركة، أي همسة تصدر عنها. والفتاة منكسة الرأس. رتيبة وطارق كفًّا عن التحديق فيها والتفتا إليه، مصرَّين على طلب تفسير. أي تفسير يمكن أن يقدِّمه إليهما؟ عاد الرجل وهو يحمل طبقين، أزاح بقية الأطباق ليوسع لنفسه مكانًا، في لحظة أصبحت المنضدة ملكًا له، بدأ وابنته في التهام الطعام. أحس الثلاثة الآخرون بالتطفل. رفع الرجل رأسه وسأل طارق في اهتمام:

- أأنت طالب؟

قال طارق وهو يرمق الفتاة:

- أجل، في كلية الهندسة.

قال الرجل في إعجاب مبالغ فيه:

- مدهش، مهندس وموسيقي، دافنش صغير!

فوجئ طارق بالفتاة وهي ترفع وجهها ببطء، وهي تُدخله في محيط وجهها، تضفي عليه بعضًا من وهجها الخاص، تمنحه ابتسامة بالغة الخصوصية، سريعة مثل ومضة، امتزج فيها صفاء السماء وبرودة البحر وحرارة الشمس. ثم أخفضت وجهها من جديد. والرجل لا يكف عن التحدث بلكنته الغريبة حول كل الموضوعات إلا عن كونه إسرائيليًّا، كأن هذه حقيقة معترف بها ولا تحتاج إلى تعريف إضافي. نظر عبد الغني إلى رتيبة. هل اكتشفت الأمر؟ ألم تُثِر هذه اللهجة الغريبة ريبتها؟ يتحدث الرجل مع طارق باهتمام، يحاول الاستئثار به، يحدثه عن أمريكا؛ الحلم الغريب، نقطة ضعف طارق المريرة. يصفها لطارق كما رآها عشرات المرات. وطارق ينصت إليه مأخوذًا، استسلم تمامًا. والفتاة تجلس بينهما. تدور معركة خفية غير متكافئة كما هي العادة. زفر عبد الغني في حنق بالغ، زفرة عالية، جعلت الرجل يكف عن الحديث. نظر طارق إلى أبيه في ضيق. استدار الرجل نحوه دون أن يُسقط ابتسامته، مد يده إلى جيب معطفه، وأخرج بعضًا من الأوراق المالية وضعها أمام عبد الغني وهو يقول:

- بالمناسبة، اشتريت لك هذه النقود البلغارية، إنها صحيحة تمامًا، وبسعر السوق السوداء.

صعد الدم إلى رأس عبد الغني. ما أسرع ما يرد هذا الرجل الضربات! هل سيحكي قصة الخدعة أمام رتيبة؟ هتف بسرعة:

- كم؟

قال الرجل بخبث:

- كالمعتاد، مائة.

أخرج عبد الغني ورقة المائة دولار الخضراء الباهتة بسرعة، وسحب الأوراق الأخرى دون أن يحصيها، وضعها في جيبه، وحين التفت وجد الجميع يراقبون عملية التبادل في اهتمام بالغ. قال الرجل برقة وهو يطوي المائة دولار:

- الآن تستطيع أن تذهب للتسوق، الأسعار هنا رخيصة بشكل مذهل بالمقارنة بما عندنا في...

ثم سكت. نظر إلى وجه طارق، ثم إلى وجه الأم. كانت اللهجة قد أثارت اهتمامها، ولكنها ليست كافية لإثارة ريبتها. لم يكن يبدو مثل قاتل محترف، كان أقرب ما يكون إلى أستاذ جامعي، به بعض البرود والسماجة الأكاديمية. أما ابنته فقد ظلت مذهلة بحق، لا يخفت وهجها رغم الصمت. كان الأمر صعبًا على عبد الغني، صعبًا على طارق، صعبًا على الجميع. نهض عبد الغني واقفًا وقال فجأة:

- سوف نذهب.

قال الرجل ببرود:

- للتسوق؟

استدار عبد الغني دون أن يرد عليه. وظل طارق مترددًا. ولم ترفع البنت وجهها عن طبق الطعام. خيَّم جو من الارتباك، لم يمد أحد يده للمصافحة، وسار عبد الغني في المقدمة وخلفه الاثنان، هبطوا الدرج الحجري صامتين.

قال لطارق محاولًا أن يغيِّر الموضوع:

- المفروض أن تدلنا على هذا المكان، لقد رأيته من قبل.

ولكن طارق قال فجأة:

- من هذا الرجل؟ إنه ليس مصريًّا، أليس كذلك؟

قال عبد الغني محرجًا وهو يرمق رتيبة بسرعة:

- لقد تعرفت عليه بالأمس في قاعة الفندق، إنني... إنني... لا أعرف اسمه حتى هذه اللحظة.

قال طارق في شك:

- لماذا أحضر لك نقودًا إذن؟

أدار عبد الغني رأسه ليهرب من الحوار، وقال:

- عادي.

لم يكن مستعدًّا للحديث في هذا الموضوع أكثر من هذا. ماذا يقول لهما؟ كيف يستطيع مقاومة هذا الحصار المباغت وتلك الخدمات القهرية التي يقوم بها هذا الرجل؟

كان حائرًا وسط هذا الجمال الذي يحيط بهم، يمضي مسرورًا وسط غابة كثيفة الخضرة، نائمة على حافة البحر الأسود، يخيم على المباني المتناثرة صفاء لم تبدده وفود الناس. حاول أن يطرد من ذهنه ذكرى هذا الرجل. أحس أنه يرى للمرة الأولى، تستمتع عيناه بالألوان الزاهية غير المتربة، الورد والأزهار الموجودة في الطرقات، والتي تطل من شرفات المنازل، تضفي على الأماكن لمسة حميمة من الفتنة. حتى رتيبة نفسها خففت من وطأة الحزن على وجهها، وبدأت تدور ببصرها في كل اتجاه. لم تستطع التحكم في تعبيرها، رغم الصمت أطلقت تنهيدة خفيفة فيها بعض من البهجة. ربما، ربما كانت تتمنى لو أنه كان معهم في هذا المكان، لو لم يكن قبرًا ضائعًا بين القبور!

قال طارق فجأة:

- البنت جميلة، ولكن باردة.

لا يدري أحد لماذا قال ذلك فجأة، ربما ليعتذر عن دهشته الشديدة حين رآها للمرة الأولى، أو يحاول دفعها عبثًا خارج ذهنه. كان الشارع من حولهم ممتلئًا بعشرات الفتيات من كل عمر، يلبسن المايوهات متناهية الصغر، أجسادهن المتناسقة العارية تتألق في ضوء الشمس. ولكن طارق أحس بطيفها يلاحقه، بصمتها الغريب، بجمالها الغامض، وهي ترفع وجهها نحوه كأنها تخرج من خلف سحابات كثيفة، تستحوذ عليه، وتُفقده أي متعة يمكن أن يشعر بها وهو يرى كل تلك الأجساد العارية التي يحفل بها الطريق.

اقترب واحد من عبد الغني وهمس له:

- أتغيِّر نقودًا؟

التفت إليه في حدة. لا، لم يكن نفس الرجل، ولكنه اختفى أيضًا بنفس السرعة.

يخوضون وسط الحدائق المزدهرة. حلم ملون. والنسوة العجائز يباشرن أعمال التنظيف والري في نشاط. ركبوا عربات «الطفطف» الصغيرة، وأخذت تتلوى بهم صاعدة في طرقات الجبل الضيقة. احتواهم سكون الغابة. انفرطت عناقيد الطيور فوق رؤوسهم. وهبَّت موسيقى عذبة محملة برائحة الزنابق النضرة. غاصوا جميعًا في رمال الشاطئ وسط الأجساد المستلقية. خلع طارق ملابسه وارتمى في حضن الموج ثم عاد سريعًا، الماء بارد رغم الشمس المشرقة. اشتروا كروتًا ملونة، وعقودًا من الخرز، وأكوابًا من الفخار الملون. أكلوا تفاحًا ومثلجات. وركبوا قطار الملاهي الصغير. وعندما عادوا إلى الفندق كانوا منهكين من فرط السعادة.

أحس عبد الغني بالراحة حين وجد قاعة الفندق خالية. أخذ المفتاح واتجهوا جميعًا إلى غرفتيهم. ألقيا التحية على طارق، سوف يأخذان نصيبهما من الراحة قبل الذهاب للسهر في المساء. كان سعيدًا وهو يستلقي على فراشه، واستلقت رتيبة على الفراش الآخر، أعطته وجهها هذه المرَّة وكان عليه ابتسامة صغيرة. لعله نجح أخيرًا، صنع ثقبًا في جدار الحزن غير المرئي الذي يحيط بها. أغمض عينيه مرتاحًا ونام على الفور.

عندما استيقظ كان الهدوء يخيم على الغرفة، من خلال ستائر النافذة لمح بقايا الشمس الغاربة، والماء ساجٍ تحتها، رمادي قاني اللون، مليء بالاحتمالات. رتيبة نائمة، تتردد أنفاسها بهدوء. أدرك أنها تنعم بلحظة نادرة، خالية من الأحلام الحزينة. ارتدى ملابسه وتسلل خارجًا. كان يريدها أن تبقى لأطول فترة ممكنة بهذا السلام. طرقة الفندق خالية، وحجرة طارق مظلمة، هل ما زال نائمًا؟

قاعة الاستقبال خالية أيضًا. سار إلى المدخل حيث يتجمع الجميع تحت ظل الأشجار. طارق يجلس على مائدة الصباح والشجرة تلقي عليه أزهارها البيضاء، مستغرقًا في التفكير، بحيث لم يلحظ اقتراب أبيه. بقية رفاق الرحلة متناثرون حول المناضد، يتحدثون في صخب عن يومهم الأول. الرجل غير موجود. تنهد عبد الغني وخطا في ثقة. ألقى عليهم التحية في صوت عالٍ. فجأة ساد الصمت. توقفوا جميعًا عن الكلام والضحك والتشويح بالأيدي. حدقوا فيه قليلًا، ثم أداروا وجوههم إلى الناحية الأخرى، كل الموائد، الجميع، الرجال والنساء، وحتى الأطفال، كأن هناك اتفاقًا قد تم عقده. لم يكن يعرف أحدهم بشكل شخصي. كل ما في الأمر أن وجوههم قد أصبحت مألوفة. ظل واقفًا، عاجزًا عن أن يخطو خطوة واحدة يعبر بها هذه المناضد الصامتة. تقدم منكس الرأس، خطواته بطيئة كأنه يسير على الماء. وضع يده على يد طارق الذي تناول ذراعه ثم ساعده على الجلوس، وبقي الصمت سائدًا. عبر أحد الطيور المكان، صرخ في فزع قبل أن يستقر فوق أحد الأغصان، ثم بدأت الضجة تعلو من جديد. كانوا يحاولون التغلب على إحساسهم بوجوده بينهم، يريدون نفيه بعيدًا. نظر عبد الغني إلى طارق وهو يشعر بالذنب الشديد، ولكن طارق كان لامباليًا كأن شيئًا لم يحدث، قال:

- أين أمي؟

- نائمة.

- هناك مطعم جميل فيه رقص وغناء وعرض شعبي، يمكننا أن نتناول فيه العشاء.

لم يكن هناك معنى لأي متعة. أحس عبد الغني أن طارق يعرض عليه هذا فقط من باب الشفقة. في هذه اللحظة بالذات لم يكن في حاجة إلى من يشفق عليه. قال في جفاء مفاجئ:

- اذهب وأيقظها، لو تركناها ربما نامت حتى الصباح.

نهض طارق ممتعضًا من لهجة أبيه. جلس عبد الغني وحيدًا، يسمع همهمات كلماتهم وضحكاتهم وهي تتصاعد، تؤكد إصرارهم على تجاهل وجوده. ألا يكفيهم ما يعانيه من وجه الإسرائيلي الذي يطارده؟ ليس أمامه من حل إلا أن يبتعد عنهم جميعًا، سينتقل إلى فندق آخر حتى لو كان أقل، لن يسمح لهم أن يتآمروا عليه مع هذا الشخص ليفسدوا عليه إجازته، غدًا سوف تأتي هذه المشرفة وسوف يتحدث إليها، ويجب أن يتم كل ذلك في الحال. سمع صوتًا بالقرب منه:

- مساء الخير.

التفت مفزوعًا. لم يكن الرجل الذي يثير رعبه، كان الرجل السمين الآخر. مصري، مؤكد أنه مصري. يقف أمامه ويمد يده نحوه مصافحًا رغم أنوفهم جميعًا. أمسك عبد الغني اليد السمينة بين أصابعه كأنها طوق نجاة، وهتف به:

- تفضل بالجلوس.

سحب الرجل مقعده وتحرك قليلًا. اكتشف عبد الغني أن ابنته السمينة كانت تقف طوال الوقت. جلس وهو يقول:

- محجوب درويش، رجل أعمال.

ذكر عبد الغني اسمه ووظيفته السابقة. أشار الرجل إلى ابنته التي كانت لا تزال واقفة:

- ابنتي مها.

جلست الفتاة وهي تُحدث صوتًا عاليًا.

قال الرجل:

- لست أدري لماذا اعتقدت أنك رجل أعمال مثلي.

حاول عبد الغني أن يفتعل الضحك وهو يقول:

- كنت أظن أنني أبدو مثل موظف تقليدي.

- إطلاقًا. أنا نفسي كنت موظفًا قبل أن أهجر الوظيفة وأتجه إلى الأعمال الحرة.

- أي أعمال؟

- تصدير واستيراد كالعادة. في الحقيقة أنا لا أصدر شيئًا، ولكنني أقوم باستيراد كل شيء تقريبًا.

ظلت الفتاة تحدق في وجهه، لعلها تحاول أن تجد وجهًا للشبه بينه وبين طارق. حاول أن يكون ودودًا معها، التفت إليها يسألها عن نفسها. ولكنها قالت في صوت حاد مندفع:

- في الثانوية العامة، رسبت ثلاث مرات.

نظرت نحو أبيها كأنها تحاول بكلماتها أن تنتقم منه. سعل الأب محرجًا، ورمقها في تهديد وقال:

- هذا لا يعني شيئًا، إهمال مدرسين. بالتأكيد سوف تنجحين في العام المقبل.

وافق عبد الغني على كلماته في سرعة. وظلت نظرات الفتاة معلقة بوجهه. لم تكن تبحث عن وجه الشبه كما يعتقد، كانت سابحة في عالم آخر. قال محجوب مغيرًا الموضوع:

- ألم تجرب الأعمال الحرة؟

- لم أفهم فيها قَطُّ.

- إنها تقوم على قاعدة في غاية البساطة: انتهز الفرصة. فقط، انتهز الفرصة.

قال عبد الغني ضاحكًا:

- ليتني عرفت هذا مبكرًا بعض الشيء.

بسط الرجل يده وهو يقول:

- لا زال الوقت مبكرًا، انتهز الفرصة، الأعمال الحرة موجودة دائمًا في كل مكان وتحت أي ظروف.

تذكر عبد الغني بائع العُملة والصفقة التي عقدها هذا الرجل قبله، هتف به:

- هل غشك الرجل؟

قال محجوب وهو يرفع حاجبه:

- وهل يجرؤ؟

ولام عبد الغني نفسه، لقد تجرأ عليَّ، اكتشف بسرعة ورغم الظلمة قلة خبرتي، موظف تقليدي، فريسة سهلة للخداع. جاء طارق والأم في صحبته. وهذه المرة استطاع محجوب أن يقوم بواجب التعريف دون حرج. بدت على الفتاة السعادة، وجلس طارق بجانبها، وتبادل معها كلمات المجاملة. حاول محجوب أن يتحدث مع رتيبة، لم ترد عليه، ولم يبالِ بذلك. لم يكن يتوقف عن الحديث تقريبًا، كان يلتقط أنفاسه بصعوبة ويواصل الكلام.

سألت الفتاة طارق:

- هل تعرف أغنية «امرأة غير كل النساء»؟

قال طارق بملل:

- كلَّا.

وأخذ يحدق في ساعته بشكل لافت. هبط الليل وبدأت أنسام البحر الباردة تهب عليهم. خفت الضجة العالية، وبدأ الآخرون في الانصراف. شعر عبد الغني ببعض الراحة، وتحدث في انطلاق. ولكن طارق كان قلقًا فوق العادة، ظل يواصل النظر إلى ساعته بطريقة فجة، ثم قال فجأة:

- سوف نتأخر!

شعر عبد الغني بالحرج. ولكن محجوب كان فضوليًّا إلى حدٍّ مرعب، التفت نحوه وهو يقول:

- إلى أين تذهبون؟

تردد طارق قليلًا، وهو يخشى أن يفرض الرجل نفسه عليهم، ذكر اسمًا معقدًا. قال محجوب:

- مكان جيد، كان يمكن أن آتي معكم لولا أنني مرتبط بموعد سابق.

تنهد طارق في ارتياح. نهض الرجل أخيرًا، وظلت الفتاة جالسة حتى لكزها فنهضت. تضايق عبد الغني لأن طارق كان قليل الذوق إلى هذا الحد، ولكنه كان سعيدًا بالابتعاد أخيرًا عن الفندق. هبطوا إلى الشارع. قال طارق إنهم سيركبون الحنطور ليقودهم إلى المطعم، كان يعرف كل شيء. راود عبد الغني شعور ما، هتف به فجأة:

- هل نمت بعد الظهر؟

أشاح طارق بوجهه إلى الناحية الأخرى، وقال:

- كلَّا، لم أستطع.

لم يوضح لهما كيف أمضى هذا الوقت. حملهم الحنطور، صوت أقدام الحصان فوق الأسفلت تمضي في إيقاع منتظم كأنها تعيد عبد الغني إلى إيقاع السنوات الماضية، الشباب الذي ولى، والعشق الذي خبا. توالت الأضواء الخافتة، وتهادى العشاق في ثيابهم البيضاء الخفيفة، والحصان يدور بهم عبر المنحنيات. لو أن هذه المفاجآت غير السارة تتوقف قليلًا! لو أنهم يتركون له فرصة يلتقط فيها أنفاسه! اللعنة عليهم جميعًا! لماذا يلاحقونه ويتعاملون معه بهذه القسوة؟

غاص بهم الحصان في طرقات الغابة الكثيفة، صعودًا مع الجبل، بعيدًا عن الشاطئ، ثم ظهر المطعم من خلال الأشجار متألقًا بالأضواء. هبط الثلاثة. لم يدرِ عبد الغني هل كان المطعم جزءًا من الغابة أم أن الغابة قد شكلته بهذه الصورة البدائية فائقة الجمال. ممر حجري يحيط به سياج من أغصان الشجر، يهبطون من خلاله إلى جوف الغابة الساكن، الأكواخ والمقاعد والمناضد كلها مصنوعة من جذوع الشجر، حالتها البدائية نفسها، كل خطوة تمثل اكتشافًا. يواصلون الدخول إلى عالم مسحور لا يوجد إلا في خيال رسام أطفال.

هتف عبد الغني مدهوشًا:

- ما هذا المكان؟! أهو مجرد مطعم؟!

كان طارق مزهوًّا وهو يقودهما. يهبطون إلى وادٍ مضاء بالأنوار، صاخب بالموسيقى، مليء بالضحكات، ولكن الجرسون جاء، انحنى أمامهم في أدب جم وهو يقول:

- آسف سيدي! يبدو أنكم قد تأخرتم، لم يعد هنا مكان خالٍ، كل الأماكن محجوزة.

تنهدت رتيبة في خيبة أمل. وظل طارق ينظر في كل اتجاه كأنه يتوقع شيئًا ما. وفجأة ظهر الرجل، أجل، في مثل هذا المكان كان لا بد أن يظهر، روح شريرة تسكن في ظلمة الغابة، تتشكل تحت الأضواء وتأخذ سمات هذا الرجل. وقف خلف الجرسون، وربت على كتفه، ونفث دخانًا من غليونه وهو يقول:

- أماكنهم محجوزة.

انحنى الجرسون بنفس الأدب وانسحب بعيدًا. وقف البروفيسور رافي جولدمان، الأستاذ بجامعة تل أبيب، في مواجهتهم. تطغى رائحة دخان غليونه على رائحة الغابة الطبيعية، يشير إليهم أن يتبعوه، ينظر إلى طارق ويقول في بساطة آسرة:

- لماذا تأخرتم؟ نحن في انتظاركم منذ وقت مبكر.

نظر عبد الغني إلى طارق. من الذي عقد هذا الاتفاق؟ وكيف تم عقده؟ الفتاة جالسة على المنضدة في انتظارهم، جمالها الساهم الحزين يضفي سحرًا خاصًّا على المكان. يكاد طارق أن يطير نحوها،

وعندما جلسوا جلس بجانبها بصورة طبيعية تمامًا، أقرب ما يكون إليها، أبعد ما يكون عنهما. والبروفيسور المنتصر يجلس أمام عبد الغني، يحدق في عينيه كأنما يبحث عن أثر هزيمته. قال:

- مكان ساحر، أليس كذلك؟

أوشك عبد الغني أن ينفجر في البكاء. كانوا جميعًا يحاصرونه، يُتلفون إجازته، ويحرضون ابنه على التآمر ضده، يحولون هذا المكان إلى سجن كئيب.

المقاعد التي يجلسون عليها هي حلقات مقطوعة من جذوع الشجر، كذلك المنضدة والأكواب والأطباق، رائحة الخشب البدائية النفاذة تشع من كل شيء. وفي الوسط حيث صالة الرقص، تتوالى العروض، مهرجان صاخب من الألوان والموسيقى. وطارق لا يقدم تبريرًا ولا اعتذارًا، يجلس بجانب الفتاة الصامتة، يحيط بهما جو من الريبة والتواطؤ. ذراعها العارية على المنضدة، وذراعه بجانبها، غير متلامسين ولكنهما متأهبان. في أي لحظة، عند انطلاق أي شرارة، سيمتزج اللحمان. يتطلع الرجل إليه مبتسمًا كأنه يقرأ أفكاره. يقول في صوت خافت:

- يبدو أنك لم تنم بعد الظهر بشكل كافٍ. أعلم أنها صفة مهمة من صفات الموظف المصري، قيلولة الظهر كما تسمونها، لا يمكنه أن يؤدي يومًا كاملًا من أيام العمل بسبب هذه العادة.

قال عبد الغني في حنق:

- كلام فارغ!

أدار وجهه إلى الناحية الأخرى وتظاهر بمراقبة العرض. ولكن الرجل استمر يقول في إلحاح:

- هذا أحد مبررات التسويف والتأجيل التي تصاحب عمل الموظف، إنه يؤجل مهام الظهيرة إلى المساء، ومهام المساء إلى اليوم التالي، والسبب في ذلك ليس الكسل كما يعتقد البعض، ولكنه العجز عن اتخاذ القرار في الوقت المناسب، افتقاد القدرة على التوقيع بإمضاء يكون مسؤولًا عنه. لقد أثبتت الإحصائيات أن الموظف العادي في حاجة إلى ثلاثة إمضاءات على الأقل قبله حتى يستطيع أن يضع إمضاءه.

أدار عبد الغني رأسه نحوه في غيظ، أمسك نفسه بصعوبة حتى لا ينهض ويلطمه على وجهه، تحركت يده المتحفزة فوق المنضدة وهي تضغط على أحد الأكواب. حتى طارق نفسه تخلى عن لامبالاته، وتحرك في قلق. وتراجع البروفيسور، نظر إلى طارق ثم إلى رتيبة، وقال في صوت خافت:

- آسف! ولكن هذا كلام علمي.

ارتفعت الموسيقى، فرقة من الغجر الجوالة تعزف أنغامًا رائعة، فيها كل حنين السفر والترحال، والنساء في ملابسهن الزاهية يضربن الأرض بكعوب أحذيتهن، ويرفعن رؤوسهن في كبرياء. قال طارق محاولًا أن يخفف من حدة التوتر:

- لو كان الجيتار معي لاشتركت في العزف معهم، إنني أعرف الكثير من الأغنيات الغجرية.

وفكر عبد الغني: هذا الوغد الصغير يحاول تخفيف التوتر على حسابي!

جاء الجرسون، انحنى أمامهم وهو يمسك الورقة والقلم. وأصر عبد الغني على أن يطلب هو أولًا، أن يفرض إرادته بأي صورة من الصور، طلب نبيذًا للمرة الأولى في حياته، تجرأ على البوح بهذا الطلب، لم يبالِ بنظرات الفزع على وجه رتيبة، ولا الاستغراب على وجه طارق، يجب أن يتم الأمر على هذه الصورة، ما دام النديم إسرائيليًّا فلا بد أن يكون الشراب خمرًا. رتيبة صامتة إلى حدٍّ يثير الأسى. هل تدرك الفخ الذي يجلسون جميعًا بين أنيابه؟ هذه النظرة الراضية على وجهها، كيف ستكون بعد أن تعرف من هو رفيق السهرة؟

صفق البروفيسور يُحيي فرقة الغجر. شرب عبد الغني دون أن يدعو أحدًا لمشاركته، انساب النبيذ الأبيض إلى داخله لاذعًا، لم يهدئ من اضطرابه الداخلي. خفتت الأضواء، وأصبحت الموسيقى ناعمة، وبدأ العديد ينزلون إلى حلبة الرقص. شرب عبد الغني كأسه الرابعة قبل أن يلوح فجأة بإصبعه في وجه البروفيسور وهو يقول:

- اسمع، الموظف المصري هو أساس الحضارة. فاهم؟!

أدار الرجل وجهه إلى طارق، وقال:

- ألا تجيد الرقص؟

قال طارق في حماس:

- مؤكد.

ومد يده إلى الفتاة التي أعطته يدها ونهضت معه. راقبهما عبد الغني مذعورًا وهما يتجهان إلى حلبة الرقص، وزاد من فزعه تلك الابتسامة الراضية التي بدت على وجه رتيبة، ولم يكن أمامه إلا أن يشرب المزيد من النبيذ.

يدها اليسرى في يده اليمنى، ويده اليسرى حول خصرها، تحت ثديها مباشرة، ويدها اليمنى فوق كتفه، طرف صدرها قريب من صدره، بينهما مسافة صغيرة. عندما بدآ يدوران اكتشفا أنهما خفيفان، لا تكاد أقدامهما تلمس الأرض. كانت مثل فراشة حارة مليئة بالحياة، لحمها يتوثب من خلال ثوب «الموسلين» الخفيف الذي ترتديه، صامتة، لا تكاد تنظر إلى وجهه، مغمضة العينين تترك له قيادتها. قال فجأة:

- أريد أن أراكِ.

فتحت ليزا عينيها، رمقته بكل ما فيهما من زرقة صافية، قالت في نعومة:

- أنت تراني الآن.

بدأ جسده يرتجف من فرط الرغبة وفرط الانتشاء:

- أعني بعيدًا عن كل شيء، عن أبي وأبيكِ.

سكتت قليلًا ثم همست:

- لماذا لا تأتي إلى الشاطئ؟

- أي شاطئ؟

- آخر الشواطئ، في حضن الجبل. أنا أذهب إلى هناك كل صباح.

- سوف آتي. هل تنتظرينني؟

أغمضت عينيها وقالت:

- ربما لو جئت في الوقت المناسب.

وعلت أصوات الموسيقى، فأخذا يدوران في انتشاء.

لم يكن عبد الغني أفندي قادرًا على أن يرفع عينيه عنهما. كانا صغيرين، رشيقين، لا يكادان يمسان الأرض، بعيدين عن كل صراعات العداء، ورغم كل أحاسيس المرارة فقد شعر بالتعاطف معهما، كانا بريئين، ورثا ميراثًا من العنف والدم، وتحددت مصائرهما قبل أن يولدا.

قال البروفيسور فجأة:

- أتعرف سبب كل هذه العداوات والحروب؟ افتقاد الحوار.

صاح عبد الغني:

- أي حوار؟!

كان منفعلًا، عالي الصوت، يريد أن يصرخ بأنه لا يوجد حوار بين الجلاد وضحيته، ولكنه رأى وجه رتيبة، كانت عيناها مغرورقتين بالدموع وهي تراقبهما، تختلج تجاعيد وجهها في سعادة غريبة كأنما تبحث عن ابتسامة حقيقية في أغوار نفسها الحزينة. تبدو أصغر سنًّا، وأكثر نضارة. شيء ما في داخلها يعاود التوهج، شيء يُولد، كأنها على وشك التكلم، على وشك التفوه بأي حرف تخرج به من جحيم الصمت البارد. البروفيسور يتكلم، ولكن عبد الغني لم يكن يستمع إليه، كان يراقب وجهها كأنه يراها للمرة الأولى، رعشة الحب التي شعر بها عندما التقت أعينهما. عاد ينظر إلى طارق. ضاقت المسافة بينه وبين الفتاة، جسده ملاصق لجسدها. والبروفيسور لا زال يتحدث:

- ماذا لو تخطينا كل هذه الحواجز، وعشنا بمحض الدوافع البشرية دون وجود لمخلفات سياسية؟ أنا أعرف أنها كلمة أصبحت مبتذلة، ولكنني لا أجد غيرها، أقصد «التطبيع»، تطبيع بشري.

مر عازف الكمان بالقوس إلى أقصى مداه. ارتفع الصوت شجيًّا وسط صمت الغابة المهيب. امتلأ الفضاء بنبضات حية، كأن كل جنيات الحكايات القديمة والساحرات الطيبات وراعيات الحب يقبلن خفيفات على أطراف أصابعهن، خفرات بوجنات محمرة، يحطن المكان فتبدأ الغابة في التنفس، والطيور في الأحلام، تنتفض خلايا رتيبة تنزع قشرة الحزن القديم. لا يكف البروفيسور عن الكلام، ولا يسمع عبد الغني كلمة واحدة. لم تعد هناك مسافة بين طارق والفتاة، أصبحت نائمة على كتفه،

تحيطه بذراعيها، وهو أيضًا يحيط خصرها بذراعيه، يوشك أن يحملها من فوق الأرض، غائبان عن العالم، خطواتهما الناعمة لا ترتبط بأي إيقاع خارجي، ولكن ينبع من الداخل، من التقاء الجسدين، ومن رغبات الشباب المتفجرة داخل كل خلية من خلاياهما. شرب عبد الغني كثيرًا، ولم يعد قادرًا على التفكير. أين يكمن الخطأ؟ وأين الصواب؟ ألا يمكن لهذه الموسيقى أن تتوقف، وينفصل هذان الجسدان، لعله يتمكن من تحديد الأمور بدقة أفضل؟

التفت إلى الرجل، وضع وجهه أمام وجهه، ولم يكن خائفًا ولا مرتبكًا للمرة الأولى، قال:

- هل هي مصادفة أن نلتقي معًا؟

ابتسم الرجل وهو يقول:

- لست أفهم.

قال عبد الغني وهو يضحك في سخرية مريرة:

- أنت متخصص في سيكولوجية الموظف المصري، وأنا موظف مصري تقليدي، غاية في التقليدية. ترقيت في الدرجات المتاحة، وأمسكت كل الدفاتر، ونافقت كل الرؤساء. تمتعت بكل سلطات الوظيفة، وفقدتها حين أُحلت إلى المعاش. عرفت خفايا كل الدوسيهات، وأعرف حتى أماكن مخابئ الفئران، وكيف أجعلها تأكل واحدًا وتترك الآخر. تحايلت على كل قواعد الروتين، وتمسكت بها في الوقت نفسه. السد العالي لم يكن في نظري أكثر من «دوسيه» كما يقولون. اضطهدت دائمًا من كانوا تحت يدي، وتوقيت ممن كانوا فوقي. سرت على حافة الوظيفة كالسائر على الصراط المستقيم. أخذت معاشي كاملًا، ومكافأتي على داير المليم، وسلمت عهدتي دون أن تنقص ورقة واحدة. هل هي مصادفة أن نلتقي؟

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة وهو يقول:

- مصادفة سعيدة.

لم تكن رتيبة تنصت إلى أي شيء، ترفض أن تنصت، رغم أنه لم يفتح هذا الحوار إلا من أجل أن تعرف أو على الأقل تستنتج، تعطيه الفرصة كي يأخذ ابنه وينسحبوا جميعًا من هذه المصيدة. ولكنها كانت معهما في حلبة الرقص بكل حواسها. انسحب بقية الراقصين وتركوا لهما الحلبة، ملتصقان كأنهما جسد واحد، لم يعد هناك من يجرؤ على مشاركتهما في هذه اللحظة النادرة من الامتزاج، كوكبان يدوران في مجرة بعيدة بعد أن هوت الشهب وغارت كل النجوم. والبروفيسور يلتفت إلى رتيبة التفاتة مفاجئة ويقول:

- أليسا جميلين؟

أومأت برأسها في صمت مع ابتسامة صغيرة. عاد للالتفات إلى عبد الغني منتصرًا. لم يعرف عبد الغني كم شرب من أكواب النبيذ، ولا متى توقفت الموسيقى وعاد الشابان من عالمهما البعيد، ولا على أي صورة انتهى العرض، وكيف ركبوا سيارة الأجرة. ولكنه كان منتبهًا وهو يدخل الفندق، وهو يشاهدهم جالسين حول المناضد في هذا الوقت المتأخر كأنهم اتفقوا جميعًا على انتظاره. شاهد

رؤوسهم تستدير ناحيته، سمع حفيف صمتهم البارد، حتى البحر لم يكن له صوت. كان منتبهًا لخطواته وهو يحاول الدخول والتواري سريعًا، ومنتبهًا وهو يشاهد رأس أحدهم يستدير في صمت، وينظر إليه في ترصد، ويبصق على الأرض في احتقار. رأى البصقة تندفع وتتألق لبرهة في الظلام، ثم تسقط على الأرض في صوت خفيض، الصوت الوحيد الذي سمعه. أسرع يجري إلى الداخل، ولم يكن الهواء كافيًا. الطرقة خالية، والغرفة بعيدة، وهو وحده عاجز كما قدر له. دخل الحمَّام وبطنه كله يتلوى، أصدر صوتًا مستوحشًا وهو يفرغه، خرج من فمه سائل بُني، خليط من الطعام والنبيذ والحسرة وفقدان القدرة على دفع البلاء. اهتز جسده كله مع التقلصات العنيفة، كأن الجدران كلها توشك أن تطبق عليه، مد يده يحاول أن يعيدها إلى مكانها. تقيأ وتقيأ، يريد أن يفرغ كل ما في جسده من سوائل، كل آثار المنادمة والاستخذاء والاستسلام لتلك اللحظات المريرة الماضية. عوى كحيوان جريح أثخنه الجميع دون رحمة، دون لمسة ضئيلة من الشفقة. حتى وجهه في المرآة كان غريبًا، تبدَّل بقناع رجل آخر، شاحبًا مليئًا بالتجاعيد والبثور وعلامات العته والشيخوخة. حاول أن ينزع هذا القناع، ولكنه ظل ملتصقًا بوجهه، مثل وجهه تمامًا. توقفت التقلصات، ولكنه ظل يرتعد. خرج من الحمَّام، فوجدها جالسة على حافة فراشها. انتظر أن يرى على وجهها أي اختلاجة تخصه. صرخ فيها:

- تكلمي! لماذا تدفنين نفسكِ وتدفنينني معكِ في هذا الصمت؟! لا يصمت إلا الموتى وأنتِ لست ميتة!

غاض البريق من عينيها، وأدارت ظهرها. ظل يصرخ بكل اللعنات والشتائم، ثم خرج مندفعًا. دق بكلتا قبضتيه على غرفة طارق، فُتح الباب، كان بملابسه الداخلية، دخل عبد الغني الغرفة صائحًا:

- أنت الذي دبرت كل شيء! أنت الذي اتفقت معه!

قال طارق ببرود:

- أجل.

صرخ عبد الغني في حرقة:

- ألا تعرف مَن هو؟ ألم يقل لك إنه إسرائيلي؟

قال طارق بنفس البرود:

- وماذا في ذلك؟ إنه لم يعد عدوًّا.

صاح عبد الغني:

- هكذا؟! بمثل هذه البساطة؟!

قال طارق في ضيق وهو يرتدي ثوب النوم:

- لا تطلب مني أن أعلن الحرب عليه. نحن لم نأتِ إلى هذا المكان للقتال!

كان طارق وقحًا. لم يضربه قط. ربما كان عليه أن يفعل قبل أن يفوت الأوان. جلس على الكرسي وهو يلهث ويلتقط أنفاسه، قال:

- أريد أن أعرف متى تحدثت معه!

قال طارق:

- اليوم ظهرًا. كان ودودًا جدًّا، بل إنه وعدني بمساعدتي على السفر إلى أمريكا. سوف يدبر لي بعثة دراسية مجانية لاستكمال دراستي.

أوشك عبد الغني أن يتقيأ من جديد، حاول أن ينهض فلم يستطع، دارت الحجرة من حوله وهتف:

- لا أصدِّق! عادل أولًا، ثم أنت!

كان يتألم، استيقظت في داخله كل أغوار الحزن القديم. اقترب طارق وجلس أمامه ولمس رُكبته. تخلى قليلًا عن بروده ولامبالاته، قال في حرارة:

- أبي، افهمني أرجوك، انتهت الحرب، ذلك عهد مضى، مثل هذه الأفكار الآن، وفي مثل هذا المكان جنون. الحرب انتهت بالفعل.

انتفض عبد الغني واقفًا، سار إلى النافذة لعله يلتمس قليلًا من الهواء. كان البحر بعيدًا مثل أمل ضائع. قال في أسى:

- أعرف أن الحرب قد انتهت، ولكن ما ثمن الموتى؟

صرخ طارق فجأة:

- الموتى دفعوا ثمن موتهم. أي ثمن يمكن أن أدفعه أنا؟ ما ذنبي؟ هل ذنبي أنني بقيت على قيد الحياة؟

التفت عبد الغني إليه كأنما يكتشفه للمرة الأولى، قال في صوت خافت:

- لم تكن تحبه!

وأحس فجأة أنه كان بالغ القسوة. شاهد طارق وهو يوشك أن يبكي وهو يهتف:

- ليس لك الحق في هذا القول! لم أكن أحب إلا هو، وأنت تعرف ذلك، ولكنكما خلال طقوس الحزن لم تريا ني. كنت العزاء لكما، ولكن من يعزيني؟ لن أبقى هنا، سوف أرحل بعيدًا، ويمكنك أن تتهمني بما تشاء!

لم يدرِ عبد الغني ماذا يقول. أفلت زمام الموقف من يده؟ لم يكن من العدل أن يتعمد فتح هذه الجراح القديمة. ظل واقفًا يحدق فيه. وهتف طارق وهو يجلس على حافة الفراش:

- على أي حال، أنا لم أسعَ للتعرف عليه، أنت الذي عرفتنا به.

أحنى عبد الغني رأسه، لمح الجيتار فوق المقعد في أحد الأركان، لم يشأ أن يبكي في هذه اللحظة أمام ابنه، وهتف:

- أنت على حق.

ترك الغرفة إلى الطرقة، إلى قاعة الاستقبال، والمناضد الفارغة، والشوارع الأسفلتية الرطبة.

النسوة العجائز يتفرقن محنيات الظهور، ينظفن الطرقات من بقايا اليوم الفائت. عشاق يفترشون الرمال، ويقذفون الأمواج بعلب البيرة الفارغة. فتيات صغيرات يسألنه عن سجائر المارلبورو. غرس قدميه في الرمال، وتمدد على العشب، ومد يده إلى مياه البحر الباردة. من الذي صنع هذا المنفى الجميل وملأه بكل تلك العذابات؟ لم يعد إلى حافة الجبل الشاحب. دخل غرفته وارتمى على فراشه بثيابه المبللة بالندى وبقايا التقيؤ. نظر إلى ظهرها الساكن، ونومها الخالي من أي أمل أو حلم، وأغمض عينيه متعبًا.

خرج طارق مبكرًا لتناول الإفطار، جلس على المنضدة وحيدًا، الجميع يتعاملون معه بنصف ود، يُحملون أباه المسؤولية كاملة. لم يكن راغبًا في الحديث مع أحد، ظل يتطلع إلى باب الفندق، يتوقع قدومها في أي لحظة، ولكن الذي أقبل هو الرجل السمين وفتاته السمينة. كان من الطبيعي أن يجلسا إلى مائدته، وأن يبدأ الرجل بالحديث والأسئلة الغريبة، وأن تترك البنت عينيها معلّقتين بوجهه بطريقة تثير الضيق. قال الرجل:

- أين صديقك الإسرائيلي؟ إنه مثير للاهتمام، أليس كذلك؟

كان السؤال مفاجئًا. حدق طارق في طبقه وهو يتمتم:

- إنه ليس صديقي.

قال الرجل:

- هيا، هيا، لا داعي للحساسيات القديمة، أنا أفهم موقف أبيك التقدمي، لقد أصبحنا أصدقاء بالفعل، على الأقل لم نعد أعداء.

وتلفت حوله ليرى إن كان أحد قد سمعه، ثم هتف بجدية:

- أين والدك؟ أريده في أمر مهم.

- لم يزل نائمًا.

- عليَّ أن أنتظره إذن. على العموم ليس ورائي ما يشغلني هذا الصباح.

ونهض ليحضر طبقًا من الطعام، وتبعه طارق بنظره مدهوشًا. ماذا يريد هذا الرجل أيضًا من أبيه؟

قالت الفتاة فجأة:

- هل لك علاقة بهذه الفتاة اليهودية؟

هتف طارق في غيظ:

- كلَّا، ثم إن هذا شأني وحدي!

في تلك اللحظة كانت ليزا تعبر المكان، خرجت من باب الفندق وهي لا تكاد تمس الأرض كعادتها. خيَّم الصمت عليهم جميعًا وهم يتابعونها. توقفوا عن الأكل والكلام. عبرت الممشى، ثم هبطت فوق الدرج، واختفت، في أقل من لمحة غيَّرت كل شيء. قالت الفتاة في أسى:

- أنا أعرف أن لك بها علاقة، أنا متأكدة من ذلك.

عاد الأب، فتوقفت عن الكلام. ونهض طارق فجأة، قال عدة كلمات تشبه الاعتذار، وأدار لهما ظهره سريعًا. تقافز هابطًا فوق الدرج الحجري، لم يجدها، عبر الطريق. هل يمكن أن تتوجه إلى الشاطئ في هذا الوقت المبكر، وبدون إفطار؟ سار في الحدائق المؤدية إلى الشاطئ. كان الشاطئ مقفرًا إلا من بضعة أفراد. لا يعرف كيف يغامرون بالنزول في هذا الماء البارد دون انتظار للشمس! كيف يمكن أن يحتمل جسدها الرقيق! أبطأ خطواته وهو يحدق في الجميع، وأخيرًا استطاع العثور عليها، لا تزال بكامل ثيابها جالسة في مكان منزوٍ، بعيدًا عن الماء، منشغلة برص مجموعة من الأحجار الصغيرة فوق بعضها البعض، هرم صغير تضع على قمته حجرًا مدببًا. اقترب منها، وجلس أمامها يتابع ما تقوم به في صمت. رمقته بسرعة، وواصلت رص الأحجار. قال أخيرًا:

- ماذا تفعلين؟

قالت:

- أقيم نُصبًا.

قال مندهشًا:

- لأي شيء؟

قالت:

- للضحايا.

فكر في نفسه: أي ضحايا هؤلاء وسط هذا المنتجع وشواطئ العراة؟ قال:

- أي نوع من الضحايا؟

قالت:

- كل الضحايا، خاصة اليهود، إنهم موجودون في كل مكان.

ظل يحدق فيها مذهولًا، يحاول أن يفهم ذلك التعبير الجدي الذي يظهر على وجهها، والذي تمارس به عملها. أدرك فجأة أن العلاقة مع مثل هذه الفتاة لن تكون أمرًا سهلًا.

استيقظ عبد الغني فوجدها جالسة على الفراش في انتظاره، ربما كانت تريد أن تعرف سر تصرفاته بالأمس، أو لم تستطع أن تخطو إلى العالم الخارجي دون أن يأخذ بيدها أحد. في أيام الحزن لم تكن تستطيع أن تنتقل من غرفة إلى أخرى دون معاونة، وجهها الآن كان حافلًا بعلامات الرثاء، وعبد الغني ينهض أمامها مثل خرقة مبللة كريهة الرائحة. هرع إلى الحمَّام وهو يعاني من صداع هائل من

أثر الخمر، ومن أخطاء الليلة السابقة. ترك المياه الباردة تهبط على جسده، تغزه كالسهام، لعل هذه الرجفة تعيد له توازنه الداخلي، تعطيه لمسة من التطهر. سيتحدث إليها اليوم، سيخبرها بمدى فداحة الخطأ الذي وقع فيه هو وابنه. لقد عانى من كابوس التكتم بما يكفي. لكنه ارتدى ملابسه بسرعة، وخرج من الغرفة، وخرجت خلفه. قاعة الفندق خالية تقريبًا إلا من السيدات العجائز اللاتي يقمن بالتنظيف، انصرف الجميع إلى الشواطئ. وكان عبد الغني هادئًا تمامًا، لم يعد يثيره أي شيء، لم يعد يخشى فقدان أي شيء. جلسا وسط الموائد الخالية. ترى أين ذهب طارق؟ هل ذهب معهما مرة أخرى؟ كانت هي تحدق فيه صامتة تنتظر كلمته، وقال فجأة:

- علينا أن نغادر فارنا فورًا ونعود إلى القاهرة.

حدقت فيه مندهشة. أضاف في ألم، كان ينعى لها رحلة العمر، الفرصة الأخيرة لكي يرى عالمًا آخر ولو لفترة قصيرة من الوقت.

ظلت تحدق فيه بنفس عينيها الباردتين الصامتتين. صاح بحدة:

- ألم تفهمي بعد؟ علينا أن ننقذ الولد الباقي لنا!

وأقبل محجوب درويش، لم يتركه يتم جملته أو يلتقط أنفاسه، كأنه كلب صيد اشتم رائحته. يصعد السلم ويتجه نحوه واضعًا على وجهه ابتسامة ليست صادقة بكل تأكيد. يقول في صخب:

- أين أنت يا رجل؟ إنني أنتظرك منذ الصباح.

أحنى رأسه في احترام مبالغ فيه نحو رتيبة، وشد على يد عبد الغني بحرارة، ثم جلس أمامهما. قطع عليهما آخر فرصة للمصارحة. ظل عبد الغني صامتًا لعل الرجل يشعر بالحرج وينهض منصرفًا، ولكن محجوب كان ينوي الجلوس طويلًا. شبك يديه وقال في اهتمام:

- الحقيقة، كنت أريدك في أمر مهم.

قال عبد الغني وهو ينفخ:

- خيرًا؟

ألقى الرجل نظرة سريعة على رتيبة، وقال:

- خير طبعًا. هل أستطيع أن أتحدث أمام المدام؟

- طبعًا.

التفت نحوها في حركة بهلوانية لا تتناسب مع حجمه وهو يقول:

- لا مؤاخذة، أخشى أن يكون حديث الأعمال مثيرًا للضجر.

كان يعبر عن رغباته بوقاحة زائدة. استعدت رتيبة للانسحاب، ولكن عبد الغني ضغط على يدها من تحت المنضدة حتى تبقى. لم يكن لديه ما يخفيه، ولم تكن تربطه أي صلة بهذا الرجل. سعل محجوب

بافتعال وهو يقول:

- أتذكر حديثي معك أمس، حين قلت إنك لا تفهم في الأعمال الحرة، وقلت لك إن عليك فقط أن تنتهز الفرصة، فقط تنتهزها؟

هز عبد الغني رأسه دون أن يفهم شيئًا. اعتدل محجوب ليقول كلامًا مهمًّا:

- إنها صفقة، سوف تكون أنت الوسيط، وحقك فيها محفوظ بطبيعة الحال.

حاول عبد الغني أن يضحك فلم يجد في نفسه أي رغبة، قال:

- أي نوع من الصفقات؟

قال محجوب في حماس:

- دجاج، بيض، شوكولاتة، وحتى أسلحة، أي شيء يستطيع صديقك أن يُصدره.

قال عبد الغني في دهشة حقيقية:

- أي صديق؟

- الإسرائيلي طبعًا.

وندت من رتيبة آهة مفزوعة، حدقت فيه. التفت محجوب باستغراب وهتف:

- هل حدث شيء؟!

صرخ عبد الغني:

- حدثت مصيبة! زوجتي لا تعرف أنه إسرائيلي، وأنه يفرض نفسه علينا، وأنه ليس صديقي.

لكن رتيبة لم تسمع كلماته، نهضت مسرعة إلى داخل الفندق وهي تترنح، تكاد تسقط على الأرض، وتستند إلى المناضد، ولم يجرؤ عبد الغني على التحرك من مكانه. انهار كل شيء. في فارنا وفي القاهرة وفي أي مكان. كيف حدث أنها لم تعرفه؟ كيف لم تشم رائحة الدم على ثيابه؟ كيف حدث أنها لم ترَهم وهم يصمتون حين يرونه ويبصقون عندما يمر؟ نهض في تثاقل. كان محجوب ما زال يتبعه بنظراته في دهشة ويتساءل:

- وماذا في كونه إسرائيليًّا؟! هذه صفقة.

لم يرد عليه، عبَر الطرقة الخالية، وقف أمام باب الحجرة المغلق، سمع صوتها وهي تبكي، فلا جدوى من محادثتها الآن. أخذ يدق على باب غرفة طارق، صرخ يناديه في أسى، كان يريده في هذه اللحظة لعله ينقذ ما يمكن إنقاذه. وللمرة الأولى فكر في رعب أن يكونا قد استوليا عليه هو أيضًا، الآن وإلى الأبد. هتف في حيرة: «أين أنت يا طارق؟». وأسرع يعدو خارجًا من الفندق.

إلى أين يذهب؟ أين يمكن أن يبحث عنه؟ الشمس في منتصف السماء، والشاطئ في قمة تألقه، الجميع يأكلون البيتزا ويشربون البيرة في شراهة، يتبادلون الحب، ويسبحون، ويقفزون بالمظلات،

ويضحكون في انتشاء لا حد له. يتأمل كل الوجوه، النساء تبتسم في عطف ورثاء، والرجال يلوحون له، وبائعو العاديات يدعونه للقدوم، كأن هذا المكان قد أقيم ليثبت أنه من الممكن أن تكون هناك جنة أرضية لبعض الناس إذا توفرت معهم بعض الدولارات. سار على الأسفلت، ركب «الطفطف»، اخترق به الغابة، صعد الجبل، وسار على حافة الجرف، ثم عاد إلى الشاطئ، تخطى الأجساد العارية ولم يجد طارق. لم يعد يستطيع العودة إلى الفندق أو الذهاب إلى أي مكان. الرمل مخادع، والسماء ألوانها كاذبة، والمرح زائف. توقف مستندًا إلى السور الذي يحيط بشاطئ البحر، هناك سفينة صغيرة تقترب وتقف في موازاة اللسان الخشبي الممدود داخل البحر، زحام شديد، الذين يقفزون منها والذين يندفعون إليها، ارتفع صوت بوق السفينة، تدعو الجميع إلى الركوب. ظل عبد الغني واقفًا يحدق في هذه الحركة الصاخبة. هو الوحيد العاجز عن فعل أي شيء. لو أن ثلاثتهم كانوا... لركبوا هذه السفينة ولذهبت بهم إلى أي مكان، ولكنه وحيد، رتيبة تبكي في غرفتها، وطارق ضائع في مكان ما.

ثم سمع صوت قدره الذي لا مفر منه، يقول في صوت ناعم:

- ألا تريد أن تركب هذه السفينة؟

كالعادة كان يقرأ ما بداخله. قال عبد الغني في حدة وهو يستدير إليه:

- أين طارق؟

أخذ البروفيسور نفسًا عميقًا من غليونه، وأخرج سحابة من الدخان قبل أن يقول في برود:

- لم أرَه. هل تبحث عنه؟

استدار عبد الغني وعاد يتأمل السفينة. سمع صوته وهو يقول:

- يمكننا أن نركبها معًا، أنا مثلك لا أعرف إلى أين تتجه.

فكر عبد الغني في نفسه: هذا الوغد يحاول أن يختبرني ليثبت نظريته؛ الموظف المصري العاجز عن اتخاذ أي قرار، ينتظر منه أن يؤجل الأمر، أن يهرب، ثم يبني على هذه الجزئية الصغيرة أحكامه العامة بالغة القذارة!

التفت عبد الغني إليه وعلى وجهه ابتسامة متحدية وهو يقول:

- هيا بنا.

وقفا في الصف الطويل. كتبا بياناتهما في استمارات صغيرة، الاسم والسن والجنسية واسم الفندق الذي ينزلان فيه. اشتريا تذكرتين بثمن بخس. قالت لهما السيدة إن السفينة ذاهبة إلى بلدة ما على شاطئ البحر الأسود. وبدا البحر مظلمًا بلون الرصاص المنصهر. كان يعرف أن جوف هذا البحر لا يسمح لأي من المخلوقات بالنمو والازدهار، بحر قاتل الأعماق، أسود الطوية. أطلقت السفينة صفارتها الأخيرة، وقفز الركاب المتأخرون، وبدأت تتحرك مبتعدة عن المرسى الخشبي.

الشاطئ نائم في حضن الجبل، منعزل تقريبًا، تقطع الصخور اتصاله بالشواطئ الأخرى، رسم الدخول إليه بالدولار. بحث طارق في جيبه، كانت المصادفة أقوى من أن تجعله يرتد عائدًا، وجد في

جيبه دولارًا واحدًا. وفور أن تخطى السور فوجئ بانعكاس الشمس على الأجساد البيضاء العارية، كأنه يدخل من بوابات حلم غريب، وكأن الأجساد كلها جسد واحد لا يكف عن الحركة في كل اتجاه. توقف مبهورًا، لم يتوقع أن يكون هذا شاطئًا للعراة. لم يعرف إلى أين يتجه، بدا منظره سخيفًا وهو الوحيد الذي يرتدي ملابسه. جلس على السور الحجري، ركز في تأمل كل ما حوله: الفتيات أولًا، والقليل من الرجال، جلود النساء السود الفتية، وجلود البيض التي بدأت في التخلي عن شحوبها، دبت فيها الحمرة، تفاصيل الجسد البشري بكل ما فيه من قبح وجمال، لا شيء مستور، ولا خجل كاذب أو مباهاة زائفة، الأحاسيس عارية، والرغبات صريحة، تنفذ أشعة الشمس مباشرة من خلال أجسادهم فتملأ داخلهم بدفء الرغبة، برعشة الملامسة، وبحسبة النظرات. عضلات الرجال مشدودة، وأثداء النساء نافرة، وأجساد الأطفال لا تكف عن الحركة. يستمدون دفء الحياة من منبعها الأول، منبع الشهوة. أين يمكن أن يجدها؟ هل خدعته؟ نهض من مكانه، وبدأ يخطو وسط الأجساد العارية المستلقية. كان وجهه مكسوًّا بالعرق، ولكنهم بادلوه النظرات بلا أي اهتمام.

السفينة تهتز، وبطن عبد الغني يبدأ في التقلص، والبروفيسور جالس بجانبه، كلما اهتزت السفينة تلامست كتفاهما. ينظران إلى الأفق البعيد، والموج داكن الزرقة، الصمت طاغٍ بارد، لا صوت إلا صوت محرك السفينة وهو يدمدم في غضب، يشق الموج، والشاطئ يبتعد، يتحول إلى خط أصفر على حافة الجبل الأسود. فكر عبد الغني: لعله يعتقد أنني خائف منه! قرر أن يتكلم ليبدو طبيعيًّا، ولعل هذه التقلصات التي يحس بها تخف قليلًا. بحث عن صوته قبل أن يقول:

- واحد من رفاق الرحلة يريد أن يتعامل معك، إنه يريد أن يستورد أي شيء، بيض، فراخ... إنه أكثر فائدة لك من موظف مثلي.

قال البروفيسور وقد سُر لأن عبد الغني تكلم أخيرًا:

- تقصد محجوب درويش؟ لقد تحدث معي في الأمر، وعبثًا حاولت أن أُفهمه أنني أستاذ جامعي ولست تاجرًا مثله.

قال عبد الغني:

- إنه يعتقد أن كل اليهود تجار.

- أفكار خاطئة، أنتم لديكم الكثير من الأفكار الخاطئة عنا!

انتقل البروفيسور من المقعد الذي بجواره إلى مقعد آخر في مواجهته، نظر في عينيه، وقال بلهجة يحاول أن تكون ودية:

- شوف، ربما كان الأمر كذلك، ربما كان هو السبب خلف تلك الحروب الدامية الطويلة، ولكن صدقني، هذا ما نحاول أن نفعله الآن، الفرصة أصبحت متاحة لنا أكثر من ذي قبل، كل معلوماتنا عنكم كانت من كتب التاريخ ومن تقارير العملاء والجواسيس، ولكننا نحاول الآن أن نفهمكم بشكل مباشر وعميق. للأسف أنتم لا تفعلون نفس الشيء، إنني آسف بخصوص ما قلته عن الموظف المصري، ولكنني أؤكد لك أنني لم أشرح رأيي كاملًا، كتابي مترجم إلى الإنجليزية، ويسعدني أن

أعطيك نسخة منه. لقد درست عشرات الكتب، وأعددت ورقة أسئلة تضمنت نحو مائة سؤال للبحث الميداني، وقد أجاب عن هذه الأسئلة آلاف من الموظفين المصريين.

هتف عبد الغني مذعورًا:

- كيف؟!

وأخذ يبحث في ذهنه بسرعة إن كان قد أجاب عن شيء من هذا القبيل. قال البروفيسور:

- ليست بصورة مباشرة بالطبع، ولكن عن طريق هيئات ومعاهد متخصصة غير إسرائيلية.

أحس عبد الغني بالخديعة. إنهم يدخلون تحت جلودنا أكثر مما ينبغي، يأخذون الأسرار الصغيرة والمتاعب الدفينة، يدرسونها ويحللونها لتصبح نقاطًا في صالحهم، كل سر صغير يساعدهم على قتل المزيد من الناس، وفتح المزيد من القبور. قال عبد الغني في حنق:

- ماذا تريدون أكثر من هذا؟ لقد أخذتم كل شيء تقريبًا: الاعتراف، حق الدخول والخروج. هل بقي شيء؟

قال البروفيسور:

- نريد أن تتم هذه الأشياء في صورة طبيعية.

صرخ عبد الغني:

- كيف؟ أي شيء بيننا وبينكم تم في صورة طبيعية حتى تصبح الأمور طبيعية كما تتمنى؟ كل شيء تم بالقتل والعنف والدمار والتهديد والتجويع والحصار والطرد والتشريد والنسف والاغتيال والتجسس والغارات اليومية وضرب الأطفال وتخريب المدن! أي شيء طبيعي في هذه الأشياء؟ إننا مرغمون إلى درجة القهر على التصالح معكم. أنا مثلك أقرأ التاريخ، وأعرف أننا كمصريين لنا الكثير من الأخطاء، ولكنني لم أجد مثل هذا الخطأ، خطأ المصالحة معكم!

قال البروفيسور بهدوء وهو يستعد لإشعال غليونه:

- كل هذه المرارة أثر من الماضي، أنا وأنت نحس بها، ولكن الأجيال الجديدة لن تحس بذلك. نحن نمهد السبيل أمام هذه الأجيال حتى تعيش بصورة طبيعية.

- الأجيال الجديدة، تقصد ابني طارق الذي تحاول إغراءه بالسفر إلى أمريكا؟

- وماذا في ذلك؟

سكت عبد الغني ونظر بعيدًا، لم يكن يريد أن يبكي، لم يكن ليسمح لنفسه أن يذرف أي دمعة أمام هذا الرجل. كانت السفينة تهتز بشدة، وطيور البحر تحوم في دوائر متتابعة كأنها قطع صغيرة متناثرة من السحب، والموج يتقلب، يكشف عن جوفه المظلم الغامض. اختفى الشاطئ، ولم يظهر الشاطئ الآخر.

قال عبد الغني:

- لم يكن طارق ابني الأول. ابني الأكبر كان اسمه عادل. الجيتار الذي رأيت طارق يعزف عليه كان جيتار عادل. طارق دخل كلية الهندسة بمجموع أقل لأن أخاه شهيد، استثناء. أنا غيَّرت شقتي القديمة إلى أخرى جديدة من عمارات المحافظة لأنني أبو الشهيد. حصلت على اشتراك مجاني في وسائل النقل العامة، وأخذت معاشي كاملًا، وعلاوة استثنائية. كلنا استفدنا، قسمنا جسده الصغير إلى مجموعة من الامتيازات الصغيرة والهبات العينية! هو الوحيد الذي لم يستفد من أي شيء. لم يُتح له الوقت بعد التخرج أن يحب وأن يتزوج. لم يكن في حاجة إلى أي نوع من الاستثناءات. دخل كلية الطب بالمجموع الذي حصل عليه، اقتصد من مصروفه الشهري حتى دفع أول أقساط الجيتار وبدأ يعمل عليه، استطاع أن يشتري كتب الطب باهظة الثمن والملابس التي يحتاج إليها. لم يطلب أي استثناء. كان كل شيء يضع يده عليه يتحول إلى شيء جميل. ومنذ أن يدخل المنزل الذي نسكن فيه نسمع ضحكات الأطفال في كل غرف المنزل. كان وجوده، مجرد وجوده فقط، مثيرًا للبهجة. كل بنات الشارع كن يتعللن لزيارة أمه ومساعدتها في أعمال المنزل، ويجلسن ساهمات يستمعن إلى أنغامه. لم يحب واحدة منهن لأنه لم يكن يسمح بأي استثناء. كان يهبنا بهجة مجانية. لا أدري من أين أحضر كل هذا القدر منها! أتعرف؟ لقد ألَّف أغنية كان يوقظنا بها في الصباح، تخيل أنك تستيقظ مع أول أضواء النهار وأنت تسمع صوته يغني لك، أي فرح كان يبدأ به هذا اليوم؟!

عندما ذهب إلى الجيش أصر قائد وحدته أن يأتي لزيارتنا، كان يريد أن يعرف سر هذه البهجة التي يحملها هذا الشاب في أعماقه. جلس بيننا يتأمل الجدران الكابية، والأثاث الذي لم يجدد، والوجوه التي طحنتها الحياة. ظل يلح علينا في السؤال، ونحن لا نملك إجابة. كانت هذه البهجة هي سره الخاص. استطاع أن يحول الخنادق الأمامية للقتال إلى أماكن صالحة للحياة. كل ذلك دون أن يطلب استثناء. حياته كانت الاستثناء الوحيد.

أتدري كيف مات؟ إنني لم أجرؤ على إخبار أمه كيف مات حتى الآن. زملاؤه قصوا عليَّ ما حدث. لقد نجا بعضهم بمعجزة، ولم يكن هو في حاجة إلى أي معجزة أو استثناء. لقد مدده جنودكم على الأرض، هكذا، ثم مروا عليه بجنزير الدبابة، ذهبوا ثم عادوا، لم تبقَ منه قطعة من العظم أو اللحم سليمة، فتتوه، حولوه إلى رمل من اللحم الحي، كأنهم قد أقاموا كل هذه الحرب حتى يثأروا منه وحده، وكأن مقتله بهذه الصورة البشعة هو مطلبهم الوحيد وشفاء نفوسهم. حاول زملاؤه أن يدفنوه فلم يستطيعوا، دفنوا الجزء الأصغر منه، وذهب الجزء الأكبر بددًا مع الرمل والريح والشمس الحارقة!

بعد أن انتهت الحرب ذهبت في زيارة إلى سيناء، طفت في كل المواقع التي وصفوها لي، كنت واثقًا من أنني سوف أعرف المكان الذي دُفن فيه، لن تضن عليه الصحراء بنبتة من الصبار أو بزهرة برية. كنت أعرف قبره من شكل الصخور ولون الرمال، ولكنني نسيت أنه لم يكن يطلب أي استثناء. لم أجد مثوى لجسده، الصحراء كلها كانت قبره الواسع الممتد. أخذت حفنة من الرمال وخبأتها في حقيبة ملابسي. كنت واثقًا من أنها تحمل بعضًا من ذرات دمه ومن شذرات عظامه. لم تسمع أمه بالتفاصيل، ولكنها منذ أن سمعت بنبأ موته كفت نهائيًّا عن الكلام. أدركت بغريزتها أن شيئًا مروعًا قد حدث، شيئًا لا يُحتمل أن تعود بعده الحياة إلى طبيعتها الأولى. عبثًا ذهبنا إلى الأطباء ودور العلاج

والمشعوذين، عبثا أخذت الأدوية والمهدئات، كانت في حاجة إلى شيء لا يمكن توفره، في حاجة إلى زيارة قبره لعلها تجد هناك بعضًا من المؤانسة، ولكن هذا لم يكن في أيدينا!

صمت عبد الغني قليلًا. كان وجه البروفيسور شاحبًا. وعاد عبد الغني يبتسم بمرارة وهو يواصل القول:

- أتدري؟ لقد اكتشفت زوجتي هذا الصباح فقط أنك واحد منهم، القتلة المجهولون الذين فرضوا عليها الصمت والحزن الأبدي. تُرى أي كلمات عميقة يمكنني أن أبرر بها أي شيء؟! أي فائدة من كلمات مثل «التطبيع» و«المستقبل» و«الأجيال الجديدة» وكل هذا السخف الذي لا يساوي ثمنه؟!

كل شيء كان هادئًا، حتى طيور النورس كفت عن الصراخ وظلت تدور في دوائر من الانتشاء الحزين. انتقل البروفيسور في صمت، وجلس على مقعد بعيد بالقرب من مقدمة السفينة، استند إلى الحاجز الخشبي وأخذ يتظاهر بمراقبة الأمواج.

ظل طارق يواصل اكتشاف تضاريس عالمه الجديد: عشرات من الأجساد البشرية تكشف عن كل خباياها، أجساد متهدلة منزوية في الظل، وأفخاذ مشدودة تتألق تحت الشمس، رغبات خالصة متناثرة فوق الرمل. اكتشف أنه الوحيد تقريبًا الذي يرتدي كل ملابسه. عليه أن يصير مثلهم حتى يَراهُن جيدًا. لم يكن يتمنى أن يمارس لعبة الحب مع كل هؤلاء الفتيات الجميلات، لكن مجرد رؤيتهن فقط وهن يمارسن رقصة العُري الانسيابية كان باعثًا للبهجة. كن خارجات من البحر تتناثر من على أجسادهن قطرات الماء المتألقة، تأخذ معها مسًّا من أرواحهن، مستلقيات لامعات الجلد، بقايا رغاوي البيرة البيضاء في زوايا أفواههن، الزغب الأصفر الذي يطل من تحت الإبط أو يتكون في مثلثات شهباء. شعور حي باعث على الغبطة يجتاح الجميع، تسري الرعدة حتى في الرمال الدافئة تحت أجسادهن. من أين جئن بهذا القدر من الحرية والانطلاق؟ عليه أن يشاركهن، أن يندمج وسط أجسادهن. ولكنه قبل أن يمد أصابعه ليفك الأزرار التي تخنقه، رفع عينيه فوجد ليزا تقف أمامه عارية تمامًا، كأنما تشكلت فجأة من ألق الشمس ومن توهج الرمال، جسدها يحجب قليلًا من البحر ومن الجبل الممتد، وشعرها يتقافز مع هبات الريح، وجهها الصغير وعيناها بالغتا الاتساع تحدقان فيه. أصابه مس من الذهول حين رأى صدرها المتكور والمشدود، بالأمس كان نائمًا على صدره، ولكن رؤيته الآن فوق كل خيال. جسدها نحيف عند الوسط، يبرز قليلًا كلما هبط إلى أسفل، لا يُظهر كنوزه إلا له رغم كل الأعين التي تحيط بهما. ظلت واقفة كأنما تمنحه الفرصة للتأكد من وجودها، وظل هو عاجزًا عن الكلام، ثم نهض ومد أصابعه المرتعدة وبدأ يفك أزرار قميصه وحزام بنطلونه ويُسقط كل شيء، وظلت تراقبه حتى أصبح مثلها تمامًا. لم يكن هناك وقت للتردد وإلا ذابت من أمامه، استدارت ببطء وبدأت في السير مبتعدة. ترك ملابسه على الأرض وسار خلفها، أصبح جسدًا بينهم، يمارس الطقس نفسه تحت الشمس نفسها. توقفت ليزا وسط دائرة من الأولاد والفتيات، كلهم عراة، كانت هناك سيجارة واحدة تدور بين الجميع، تنتقل من فم إلى فم، ظلت ليزا واقفة حتى أخذت نَفَسها الوحيد من السيجارة، ثم سارت وسار خلفها. دائرة ثانية، فتيات صغيرات السن، في منتصف الدائرة يقف شاب ضخم، أكثر من واحدة تمسك فرشاة الطلاء، كل واحدة تطلي جزءًا من جسده بلون مختلف، أهمهن تلك الفتاة التي تطلي الجزء الأسفل باللون الأحمر، الجميع يراقبنها في انبهار صامت كأنها تقوم بطقس مقدس. سارت فسار خلفها، خاضا وسط اللحم الحي. شاب يحمل فتاة على كتفه

ويندفع مسرعًا ليلقيها في الماء والفتاة تصرخ في نشوة. دائرة ثالثة، في وسطها فتاة ممددة، وجهها مدفون في الرمل، وشعرها متناثر كالطاووس، ورجل يرتدي ملابس غجرية غريبة مليئة بالرُّقع، ورأسه معصوب بمنديل أحمر، في يده آلة رفيعة مثل آلة طبيب الأسنان، يغوص بها في لحم الفتاة، يرسم عليها تفاصيل وشم غريب، زهرة وفراشة وتنين، والفتاة المستلقية تتأوه في صوت خافت، يمتزج صوتها مع صوت طنين المثقاب. عبرَا الدائرة. طفل يبيع عوازل الجنس. عجوز ترى المستقبل من خلال الخطوط المرسومة على بطون الرجال. شاب باكستاني عارٍ يقوم بتغيير العُملة. فتاة صغيرة تساوم رجلًا عجوزًا في مقابل خرطوشة من المارلبورو وخمس علَب من «الشكلتس». ضاقت مسافة الرمل، واقترب الجبل من الماء، وتحولت الرمال إلى أحجار جارحة، تناثرت عليها نوارس ميتة لم يستطع البحر إخفاء عفونتها، وبقايا مراسٍ أكلها الصدأ، ودنان خمر من الفخار المكسور الذي يعلوه العطن، والأحجار الجارحة تبعث داخل طارق نوعًا من الألم الغريب، تزيد من توهج رغبته. وهي تمضي أمامه دون توقف. أحس أنه سوف يظل يتبعها حتى لو سارت إلى آخر العالم. صعدت فوق الصخور فصعد. انحدرت فانحدر. لم تبالِ حتى بالالتفات، كانت متأكدة من أنه يتبعها. ظهر كهف غريب فجأة وسط الصخور، كهف صنعته عشرات الأيدي، وتراكمت تفاصيله من عشرات الرغبات السرية المحمومة، جانباه مكونان من الصخور، أما سقفه فقد كان مقامًا من عروق الخشب والشِّباك القديمة وصفائح المعدن وأعشاب البحر وقطع المحار. كل هذا يُكوِّن سردابًا عميقًا مثيرًا للرعب والشهوة. دخلت فدخل. رائحة جسدها، رائحة شهد الملكة التي تودي بكل الملوك. يدخل خليتها المظلمة مجهولة المسالك. رمال وعشب جاف وعلب بيرة فارغة، بقايا رغبات سابقة خفتت وضاعت وبقي هو في سعيه الأخير إليها. تعثر وانكفأ، وأحس بطعم الملح في فمه، وظل يواصل التقدم، وعندما خطا الخطوة الأخيرة إليها أحس بنفسه فوق جسدها، كان باردًا مرتعدًا فتشبث بها بكل قوته.

قبل أن تصل السفينة إلى الشاطئ كان إحساس عبد الغني بالغثيان قد تصاعد إلى أقصى درجة. توقف المحرك وتركت السفينة نفسها لتقلبات الموج الأخيرة. لم يتمالك عبد الغني نفسه، هرع إلى جانب السفينة وأخذ يتقيأ من جديد، ربما من تأثير دوار البحر أو خمر الليلة السابقة، وربما من إثارة مكامن الألم القديم، لم يكن قد تناول أي شيء، فلم تخرج من فمه إلا سوائل باهتة، تطايرت مع الريح وارتدت إلى وجهه. أخذ يجفف عرقه البارد. اقترب الرجل منه مرة أخرى، وقف بجانبه ولمس كتفه، فشعر عبد الغني بالخجل الشديد، لا يريد أن يبدو متألمًا إلى هذه الدرجة. توقفت السفينة بجوار اللسان الصخري، بدت البلدة عالية فوق قمة الجبل، سقوف القرميد الحمراء مثل بقع من الدم المتجمد وسط الخضرة. سار البروفيسور بجانبه، عبرَا الحاجز، وهبطا المنحدر، ورفضا معًا الرجل الذي سألهما إن كانا يريدان تغيير العُملة، بدآ رحلة الصعود غير المجدية، والبروفيسور مُصر على السير بجانبه، تكاد كتفه أن تلامسه، لعله يتعمد هذه الملامسة حتى تخلق نوعًا من الود المفتقد بينهما، سمعه يقول في صوت خافت:

- هذا خطأ، نحن وأنتم، يهود وعرب، إننا نعيش في الماضي أكثر مما ينبغي.

لم يفهم عبد الغني فلم يقل شيئًا. هل أصبح مصرع عادل مجرد ماضٍ بالفعل؟ هل يعني أن تذكُّره نوع من أنواع الخطأ؟

قال البروفيسور في إلحاح:

- المستقبل هو الذي يعنينا، هو الخلاص الوحيد.

استدار عبد الغني ووقف في مواجهته في منتصف الشارع وهو يقول:

- حسنًا، دعنا نتحدث عن المستقبل. هل يمكن أن تعدني بشيء؟

قال البروفيسور بسرعة:

- بماذا؟

قال عبد الغني وهو يحدق في عينيه:

- هل يمكن أن تعدني ألا تقتلوا طارق أيضًا؟

ضم طارق جسدها. كيف يمكن أن يتسع هذا الجسد الصغير ليحتويه بداخله؟ تولدت الحرارة من خلال احتكاك خلاياهما. امتلأ جسده بدفء نادر، وعضلاتها المشدودة تقبض عليه في إحكام. رأى جسدها بوضوح وسط ظلمة الكهف. استطاع أن يلمح ظلال آخرين، سمع ضحكاتهم وتأوهاتهن. الكهف أكبر مما يتصور، خلف كل صخرة هناك لعبة حارَّة في قمة توهجها. لم يعد طارق يحس بالوحشة، اكتسب ثقته بنفسه، ولم يعد يترك لها زمام المبادرة. أمسك شعرها ولفه حول يديه ثم هوى على شفتيها. لسانها حار ولاسع كأنه ذنب الملكة، ينضبط صوتها مع إيقاع بقية الأصوات المنبعثة من جوانب الكهف. المكان كله ينبض برغبة واحدة، النساء كلهن أصبحن امرأة واحدة، وكل الرجال أصبحوا ذكرًا واحدًا. يتحول صوتها إلى نوع من العواء الحيواني الجائع، كأن هذه اللحظة لن تنتهي أبدًا، وكأن هذه الحرارة ستتواصل حتى تبعث الدفء في أوصال البحر الأسود الباردة.

لم يكن عبد الغني يدري لماذا يطارده هذا الرجل. كانا يسيران معًا عبر طرقات البلدة شبه الخالية، المرصوفة بأحجار صغيرة متراصة، كلها صاعدة إلى أعلى، إلى نقطة مجهولة، لا يلتقي عندها أفق ولا سماء. أبواب مغلقة، ونوافذ محاطة بأغصان متشابكة ينبت منها زهر ذابل على وشك التساقط، حوانيت مظلمة تطل من خلف زجاجها، وجوه شاحبة لا تبالي بهما. لم يكن هناك ما يقال بينهما، الرجل ما زال يتفحصه، لعله ينوي إضافة فصل جديد معدل ومنقح وقائم على الملاحظة من كتابه عن عذابات الموظف المصري. توقف عبد الغني وهو يلهث. كان هناك نبع من الماء المتدفق عليه كتابات غريبة، انحنى وأخذ يشرب منه بشراهة. وقف البروفيسور يراقبه. أعادت المياه الباردة بعضًا من الهدوء إلى نفسه المضطربة.

اكتشف طارق أن كل الأصوات قد أصبحت هي أصواتهما فقط، الضجة التي تُحدثها ليزا طغت على ضجة الأخريات. رفع عينيه فوجد أعينهم جميعًا تنظر إليه، صبيان وبنات، على جلودهم حبات العرق، ووجوههم مفعمة بالرغبة. أدار وجهه فيهم مذهولًا. هتفت فتاة في عصبية:

- هيا، لا تكن حيوانًا.

أحس بأصابع ليزا وهي تنغرس في لحمه، تدعوه للاستجابة معها. هبت ريح باردة لا يدري كيف تسللت داخل مسارب هذا الكهف. هتف شاب آخر في خيبة:

- أوه يا ليزا! من أين أتيتِ بهذا الشاب؟!

صرخت ليزا بكل ما فيها من عنفوان:

- ليس الآن، ليس هذه اللحظة، لا تتوقف!

ولكن عبد الغني لم يكن يستطيع أن يواصل السير أكثر من هذا، صعود بلا نهاية، لا أفق ولا سماء، لا شيء ينقذه من حدة هذه المطاردة المتواصلة الصامتة، وتلك الكتف التي تصر على ملامسة كتفه. مهما استدارت الشوارع وضاقت المنحنيات، البيوت الحجرية البيضاء ذات القرميد الأحمر تكاد تلتصق بهما، والصمت المخيم تمزقه أصوات السيارات الضخمة وهي تنحدر إلى أسفل، كانت ترج عبد الغني من الداخل. أوشك أن يصرخ فيه: لماذا تصر على متابعتي؟ لكنه لم يجرؤ. كان يحس أنه أقوى منه، هو الذي يوجه قدميه ويوقعه في مصيدة الشوارع المتداخلة الصامتة، المليئة بأناس شاحبي الوجوه، يحدقون شزرًا في الغرباء بلا أي مودة، والهواء يمرق باردًا، يحمل خليطًا من روائح البحر والبضائع المكدسة والأزهار البرية والأقبية المغلقة. رفع عبد الغني رأسه وهتف في انتصار مفاجئ:

- مسجد.

أدار البروفيسور رأسه. من بعيد بدت قبة خضراء وحيدة خلف سقوف القرميد الحمراء، بجانبها تنتصب مئذنة رفيعة كأنها ذراع ممتدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، إشارة مجهولة تنتظره في مكان ما وسط تلافيف هذه الحواري، كأن الذين بنوا هذا المسجد في هذا المكان لم يفعلوا ذلك إلا من أجل شخص ضائع مثله، سوف يأتي في هذه اللحظة ويكون في أمسِّ الحاجة إلى شيء من العزاء والمؤانسة. هتف في امتنان عميق:

- سوف أذهب إليه.

أسرع يعدو وقد دبت في قدميه حياة جديدة. أخيرًا لن يجرؤ على متابعته. مضى يواصل الصعود.

وهتف شاب في أسف:

- أوه يا ليزا! لقد أنهكتِ قواه بحق. هناك أماكن للمبتدئين.

نهضت فتاة نحيفة، وقفت بالقرب من طارق، وصاحت في صخب:

- سوف نبعث فيه النشاط من جديد.

وأخذت تسكب على رأسه علبة من البيرة كانت تمسكها في يدها. انتفض جسد طارق من الغضب، ولكنهم كانوا جميعًا يضحكون. فتحوا علبًا أخرى، اندفعت شلالات البيرة فوق رأسه، نهضت مجموعة أخرى من الفتيات، أمسكن أعشاب البحر وأخذن يدلكن صدره وبطنه. جلست ليزا في مواجهته، ضمت ساقيها وهي تهتف:

- هل تحسب نفسك إلهًا فرعونيًّا صغيرًا؟ حتى الفراعنة كانوا كذبة يهودية!

ضحك طارق ببلاهة وهو يحاول مقاومة الأيدي التي تمتد إلى كل مكان في جسده، ولكن وجه ليزا كان صارمًا، وصوتها باردًا وهي تواصل القول:

- تذكر، أنت لي وحدي، ملكي، ولن أسمح بشيء غير هذا!

كان هناك شيء لم يفهمه. اختلط في داخله شعور المتعة بالاشمئزاز. أحس فجأة أن جسده قد أصبح مشاعًا، نهبًا لكل السخريات. كانوا جميعًا عراة مثله، ولكنه كان في أمسِّ الحاجة إلى شيء ضئيل يستر به عورته.

لم يكن الطريق إلى المسجد سهلًا. تداخلت المسالك، واختفت القبة ثم عادت تعلو من جديد، لم تكن بنفس البهاء الذي رآها به من المسافة البعيدة، كانت قديمة، مكسورة في أكثر من موضع، والطلاء الأخضر باهتًا، ولكنها رغم ذلك كله كانت موجودة، تطل عليه وتدعوه. كل الذين سألهم أشاحوا بأيديهم، لم يدركوا مدى حاجته إلى هذا المسجد القديم النائي، تركوه وحده يعبر الممرات الضيقة وينحني عبر البوابات القديمة حتى وصل إليه ووقف في مواجهته. كان مثله، شديد الوحدة والتعاسة وسط ساحة خالية محاطة بسور من حديد. اقترب عبد الغني منه ببطء يريد أن يلمسه. الباب الحديدي مغلق، مكبل بالسلاسل الضخمة والأقفال الصدئة. أدخل رأسه بين قضبان السور، رأى باب المسجد الداخلي مكبلًا أيضًا بالسلاسل والأقفال. وسط هذه الأغلال تنتصب الجدران القديمة، تغطيها الطحالب والنباتات المتسلقة، والعناكب قد نسجت شباكها على زجاج النوافذ الملون المكسور، وعلى نقوش آيات القرآن، كل شيء يوحي بموت مفجع، مثير للأسى والرثاء. حول المسجد، داخل السور، تحيط بالجدران الأعشاب البرية والسافانا، في وسطها تنتصب لوحات من الرخام، شواهد قبور غريبة، محفورة عليها كتابات بالعربية: أسماء الجلالة، والبسملة، وآيات قصيرة، وأدعية الرحمة والمغفرة. كانت ألواح الرخام البيضاء تحاول من خلال صمتها أن تقاوم حصار النباتات البرية الشرسة، تقف نبيلة ومهزومة، جزء من هزيمة المسجد التعس. بكى عبد الغني: مددت يدي فلم أجد من يمد إليَّ يده! تذكر شاهد قبر عادل، والكلمات المحفورة فوق رخامته، الصمت الذي يحوطه، والأسى الذي يبعثه في النفس. رفع عينيه إلى المئذنة المكسورة والقبة نصف المهدمة. لا أثر لتلاوة قديمة أو دعاء مستجاب. تمتم عبد الغني من خلال دموعه: «الرحمة عليك يا عادل وعلى أموات المسلمين».

خُيل إليه أنه يسمع صوت بكاء يتناهى من بعيد، يمس روحه المتعبة. أحس بيد توضع فوق كتفه، وحين استدار رأى من خلال دموعه أحد رجال الشرطة، يشير إليه أن يبتعد. الوقوف ممنوع، والبكاء محرم، حتى وإن كان يبكي نفسه. والبروفيسور يقف في نهاية الساحة، أتراه هو الذي حرض الشرطي عليه؟

السفينة تصرخ، تعلن عن رحلتها الأخيرة. سار مترنحًا كسير النفس، هبوطًا إلى أسفل، يعاود الترنح فوق الأسود الداكن. غربت الشمس فمن يضيء لي الطريق؟ أضواء الشاطئ ما زالت بعيدة، تهتز كأنها على وشك الانطفاء. والظلام يتيح له أن يبكي قليلًا، وأن يفلت من ترصد الرجل الآخر، وأن يدرك بحدة أن عادل قد مات بلا ثمن، وأن عليه هو أيضًا أن يلتزم الصمت.

وضع قدميه على الأرض، كانت تهتز. سار وحيدًا على الأسفلت، صعد الدرج الحجري للفندق. طارق جالس في انتظاره وعلى وجهه علامات الرضا. الجميع جالسون حول المناضد لم يبالوا به، لم يصمتوا ولم يبصقوا. ولكن صمت طارق أشد وطأة. قال:

- لقد قمت برحلة مرهقة.

لم يسأله طارق عن التفاصيل. لم يكن بدوره يريد أن يقول شيئًا عن هذا اليوم التعس.

قال عبد الغني:

- كان الإسرائيلي برفقتي. هل يرضيك ذلك؟

نكس طارق رأسه، لم يكن لديه ما يقوله. قال عبد الغني وهو ينهض ويستعد للدخول:

- لقد طلبت منه وعدًا بألا يقتلك كما قتل أخاك من قبل، ولكنه لم يعدني بشيء. القتلة لا يعدون!

سار إلى الداخل. كان متأكدًا أنها لم تغادر غرفتها منذ الصباح، تمنى لو أن هناك قوة خفية تُنهي هذا الكابوس وتعيده إلى مصر. وجدها جالسة فوق الفراش مكومة الساقين، رُكبتاها ملتصقتان بذقنها، لم ترفع رأسها وهو يدخل. وقف بجانب النافذة، تطلع إلى الأشجار الكثيفة والموج المظلم. قال في صوت خافت، لا يدري إن كان يوجه الكلمات لها أم لنفسه:

- تصوري؟ في هذا المكان أرى قبر عادل. هذا العالم الضيق الخانق يضم في أضلاعه كل القبور!

استلقى على فراشه وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، لم يدرِ إن كان قد غرق في النوم أم لا، ولكنه كان يعي كل شيء: صوت البكاء مختلط بوشيش البحر، وطنين حشرات الليل، وكل المخلوقات الجاثمة على صدره. النوم همٌّ قاسٍ، والجروح لا تكف فيه عن التفتح، كيف يستطيع زيارة قبر عادل وقراءة الفاتحة على روحه بعد ذلك؟

استيقظ وأضواء الفجر الرمادية تتسلل إلى داخل الغرفة. كانت لا تزال نائمة بنفس الملابس. أزاح الستائر ببطء، وأخذ يرقب بزوغ الضوء من بين الأمواج. وقف وحيدًا أمام هذا البعث الجديد، لعلها فرصته الأخيرة ليكون وحيدًا، سيرحل اليوم بلا شك، سينتهي هذا الكابوس، سيطلب ذلك من المشرفة، ولن يستسلم حتى لو نقلته إلى فندق آخر أو منطقة أخرى. نهض وارتدى ملابسه وغادر الغرفة في هدوء. الصمت يخيم على كل شيء، عمال النظافة لم يأتوا بعد، وغرفة طارق مغلقة. كان جائعًا وخشي أن تكون أبواب الفندق مغلقة.

قبل أن يصل إلى نهاية الطرقة سمع صوت أحد الأبواب وهو يُفتَح، ثم سمعه وهو يُغلَق في صوت مكتوم. بحركة غريزية التفت إلى الخلف، هناك فتاة تسير ببطء، تقترب منه كأنها لا تراه، تخطو بقدميها العاريتين بخفة على الأرض، لا ترتدي شيئًا، فقط ملاءة بيضاء ملفوفة حول جسدها، شعرها المشعث ينتفض متهدلًا على كتفيها، يوحي بكل شيء. كان يعرف من هي قبل أن تقترب، ويعرف أنها خارجة من غرفة طارق. ظل واقفًا مشلولًا، وهي تواصل الاقتراب، لم تتردد لحظة واحدة رغم أنها رأته، أصبحت في موازاته تقريبًا، ألقت عليه نظرة سريعة، فاكتشف وجهها المحتقن. سمع صوت حفيف انتفاضة خلاياها تحت الملاءة، وشمَّ رائحة الشهوة المتفجرة من عروقها. ثم عبرته

بلامبالاة، دون أن تلتفت التفاتة واحدة. مرقت من الطرقة، رأى قدميها العاريتين وهي تخطو صاعدة إلى الطابق العلوي، ثم عاد الصمت كأن لم يحدث شيء.

أخيرًا استطاع أن يتحرك، استدار عائدًا إلى غرفة طارق، دفع الباب ووقف أمامه. الولد جالس في الفراش، صدره عارٍ، ونصف جسده السفلي مخفي تحت الأغطية، ولا بد أنه عارٍ أيضًا. الغرفة مليئة برائحتها، رائحة الرَّغبة. خُيل إليه أنه يرى في انعكاس الضوء ذرات النشوة الَّتي أبقتهما ساهرين. الولد مسترخٍ في فراشه، جسده لا زال مغطى بحبات العرق، على صدره آثار جروح صغيرة، آثار أظافرها، ماَ زال غارقًا في بقايا النشوة، حتى إنه لم تبدُ عليه أي دهشة لاقتحام أبيه. وقف عبد الغني لاهث الأنفاس، لا يجد في هذه الغرفة العبقة بالدنس أي نفحة من الهواء النقي، لم يتكلم، لم يلطمه، ظلت عيناه تدوران في الغرفة، ثم تحرك فجأة وأمسك الجيتار الذي كان موضوعًا فوق أحد المقاعد، وهتف في حنق مكتوم:

- أنت لا تستحقه!

ورفع يده إلى أعلى ثم هوى به على المقعد. شهق طارق، حاول أن ينهض ولكنه كان عاريًا تمامًا. دخل مسند المقعد في مقدمة الجيتار، تقطعت الأوتار وهي تُصدر أنينًا مكتومًا، تمزقت نقوش العاج التي كانت تزين خشب الماهوجني الرقيق. عاد عبد الغني يقول ملتاعًا:

- أنت لا تستحقه!

ورفعه مرة أخرى وضرب به الجدار، تناثرت شظايا الخشب، دوى صوت الارتطام عاليًا. هوى به على المنضدة والسرير والمقاعد والدولاب، لم يبقَ في يده إلا الذراع الرفيعة وبقية من الأوتار الملفوفة. كانت أصوات التحطيم ودمدمات الأب أشبه بعراك حيواني، امتلأت يده بالجروح، امتلأت الغرفة بالشظايا. وضم طارق الأغطية حول صدره، حاول أن يخفي جسده العاري أكثر، ولكن عبد الغني لم ينظر إليه، أدار ظهره وغادر الغرفة، وأخذ يعدو في الطرقة الخالية. كل شيء قد مات! الولد دنست الإسرائيلية جسده. والجيتار قد تحطم. ماتت أغنيات الصباح إلى الأبد. صالة الفندق خالية، المناضد والكراسي، لا يوجد شهود، كل شيء قد تحطم. يا رحمن يا رحيم، لماذا سددت أبواب الرحمة في وجهي، وكبلت أبواب المساجد بالسلاسل، وانتشر الإسرائيليون كالطاعون؟ كيف تسللوا إلى هذا المكان ودنسوا هذا الهواء الندي؟

هبط إلى الشارع دون أن يتوقف لهاثه. وجد من يشاركه في هذه اليقظة المبكرة، النسوة العجائز قد بدأن مسيرتهن اليومية، يسرن محنيات الظهور في صف طويل بطيء الإيقاع، ثيابهن داكنة، وشعورهن ناصعة البياض، كان هو أيضًا عجوزًا مثلهن، انتهت وظيفته وضاعت ذكرياته، وأصبح وجوده كله مهددًا بالضياع. جلس على شاطئ البحر ينتظر بزوغ الشمس، ولكنها لم تبزغ، تأخرت. يا رحمن يا رحيم، لماذا منعت شمسك من الشروق أمامي؟ أهو خطئي القاتل، أنا الذي قبلت الجلوس معه، وشربت الكأس التي قدمها إليَّ، وقدمت ولدي قربانًا مُطعمًا بالمُر والحنظل؟ كان عبد الغني يبكي في حرقة وفي ندم فاجع.

أحس بلمسة خفيفة، أصابع مقوسة تمتد وتلمس رُكبته في خجل. رفع وجهه، فوجد سيدة عجوزًا تقف أمامه، ترتدي معطفًا داكنًا، وتمسك في يدها أدوات التنظيف، شعرها الفضي يتطاير مع الهواء. لم يدرِ لماذا وقفت أمامه، هل شعرت بالرثاء له، أم أنه يشغل المكان الذي ستقوم بتنظيفه؟

كانت الشيخوخة قد أعادت تشكيل ملامحها، ملأت الجلد بالغضون، ومددت أنفها إلى أسفل، ورفعت ذقنها إلى أعلى، حتى كادا أن يتلامسا. ابتسمت له ابتسامة ودودة هادئة. تمنى لو يستطيع أن يضع رأسه على كتفها ويبكي. وضعت يدها في جيب معطفها، أخرجت تفاحة خضراء صغيرة، وأخرجت من الجيب الآخر تفاحة أخرى، مدت يدها نحوه تطلب منه أن يختار إحداهما، هز رأسه فألحت عليه، تناولها وقضم منها قضمة كبيرة. اعتلت السيدة السور وجلست بجانبه، وأخذت تقضم تفاحتها أيضًا. وظل الصمت مخيمًا، لا يسمع فيه إلا صوت أسنانها وهي تجرش قطع التفاح الأخضر النضر، والعصارة تهبط في جوفه تعطيه دفقة جديدة من الحياة تجعل خلاياه تعاود الانتفاض، وكتف المرأة تلامس كتفه. تحدق إلى الأمام مثله، تتطلع إلى بزوغ الشمس التي تأخرت، وإلى طيور الماء التي ضلت طريقها. كانا يتحاوران في صمت، تربط بينهما وشائج الحياة التي تتسرب من خلال الملامسة الحية بينهما. لم يكن وحيدًا، ولم يكن ضعيفًا، وليس عليه أن يتراجع خطوة واحدة بعد ذلك. فرغا معًا من أكل التفاحتين، ألقيا البقايا في نفس الاتجاه. وقفزت السيدة من فوق السور، ونهض عبد الغني يبحث في جيبه عن عُملة صغيرة يعطيها لها، ولكنها هزت رأسها ونظرت إليه في عتاب صامت، ثم حملت أدواتها ومضت مبتعدة، وظل عبد الغني يسمع وقع أقدامها حتى بعد أن اختفت من أمامه.

أخذ آخر نفس من الهواء النقي ثم أدار ظهره للبحر. لم يعد يبالي إن أشرقت الشمس أم غابت. سار إلى الفندق بخطوات قوية. محجوب درويش واقف أسفل الدرج الحجري، قال كلامًا كثيرًا عن الصفقة التي نجح في إتمامها مع الإسرائيلي. صعد عبد الغني الدرج الحجري، تأملهم وهم يملأون أطباقهم بالبيض والمربى والجبن، ويعبئون أكواب الشاي باللبن حتى الحافة، ويأكلون حتى حافة التخمة. ناموا الليل بأكمله، لم يزعجهم حلم واحد، ولم تفسد إجازتهم أي مصادفة سيئة، أخذوا أنصبتهم كاملة من المتعة والراحة والذكريات الجميلة، إلا هو، طاردوه كلهم، وبصقوا عليه، وحولوا رحلة عمره الأولى وربما الأخيرة إلى جحيم. والبروفيسور يقف في وسطهم في تواطؤ صامت، لم يجرؤ على نبذه مثلما نبذوه، يملأ طبقه من الأصناف الموجودة على المنضدة الطويلة بمهل شديد، ينتقي كل قطعة بعناية، ثم يملأ فنجان الشاي ويضيف إليه اللبن في انسيابية لا يشوبها أي نوع من التوتر. لماذا لا يُظهرون ولو ذرة من الامتعاض لوجوده بينهم؟! كان وحيدًا، ابنته ليست معه، نائمة تحلم بذكريات الليلة السابقة التي سطت فيها على فراش ابنه وعلى شبابه.

استدار البروفيسور، كان يمسك طبق الطعام في يد وفنجان الشاي في يده الأخرى. تقدم عبد الغني وهوى بقبضة مفاجئة على وجهه، طار طبق الطعام وسقط فنجان الشاي في دوي عالٍ. استدارت رؤوس الجالسين على المناضد، وتراجع البروفيسور مذهولًا:

- ما هذا؟! هل جننت؟!

لم يكن عبد الغني في حاجة إلى أن يشرح بأي كلمات، رفع قبضته وهوى بها مرة أخرى. ولكن البروفيسور تفاداها وهو يدمدم:

- موظف مصري حقير!

اشتبكا بالأيدي، أنشب كل واحد أظافره في وجه الآخر، دمدم العجوزان بضراوة، وتحوَّل كل ما في جسديهما من طاقة إلى هذه الأصوات الحيوانية الضارية. اكتشفا فجأة عندما تلاحما، وعندما أحس كلٌّ منهما بطعم الدم اللاذع في فمه، أنهما يكنان لبعضهما كراهية عميقة بعيدة الغور، تعمقت بطول السنين وحدة الثأر ومرارة التذكر، تفجر الغضب من كل خلية من خلاياهما. لف عبد الغني ذراعه حول البروفيسور وحاول أن يوقعه أرضًا، ولكن الآخر ضربه برُكبته، سقطا معًا فوق منضدة الطعام، هوى صف الأطباق على الأرض، ضربه عبد الغني بأرغفة الخبز الطويلة، كانت يد البروفيسور ملطخة بالزبد وهو يهوي على وجه عبد الغني، تقلبا فوق البيض المخفوق والمربى واللبن المسكوب، أمسك عبد الغني قطعة من الجبن الأبيض وأخذ يدعكها في وجه البروفيسور الذي ضربه ببرطمان النسكافيه، ضربا بعضهما بالملاعق والشوك والسكاكين المثلومة، امتلأ جسداهما بالجروح الصغيرة الدامية دون أن تخفت حدة الصراع. ابتعدت المناضد، وأزيلت الكراسي، ووقف الجميع يراقبون العجوزين يتقلبان على الأرض وثيابهما ملطخة بالتراب والعشب وطعام الإفطار. لم يتدخل أحد، لم ترتفع كلمة واحدة، تركوا الفرصة كاملة لكل أصوات الصراع حتى تحسم نفسها بنفسها. وحتى عندما توقف الاثنان لاهثين، غير قادرين على الاستمرار، ظل الصمت سائدًا. كانا راقدين على الأرض بجوار بعضهما يلتقطان أنفاسهما بصعوبة. ولم يكن عبد الغني قادرًا على رؤية السماء، كان جسده مليئًا بالرضوض، وروحه مثخنة بالجراح، ولكنه رأى طارق يميل عليه ببطء، يمد يده ويمسح الدم من على وجهه، ويهمس في خجل طاغٍ:

- يا أبي! يا أبي!

ولكن وقت الغفران لم يكن قد حان بعد.

وصرخ صوت أجش:

- هيا، انهضا بسرعة.

كان هناك ثلاثة من رجال الشرطة، وجوههم جامدة باردة، وأيديهم على مقابض المسدسات. وظل كلاهما عاجزَين عن الحركة. تقدم شرطي أزاح طارق بعيدًا، وهتف:

- سوف تذهبان معنا.

وقال طارق شيئًا ما. وأنهض الشرطي عبد الغني في عنف، وأنهض الآخر البروفيسور، وكانت سيارة الشرطة تنتظر أسفل الدرج الحجري.

وهتف طارق كأنه يستغيث:

- إنه أبي، لا بد أن آتي معكم!

وتردد الشرطي قليلًا ثم أشار إليه أن يصعد معهما. وبدأت السيارة تعوي في صوت متواصل وهي تجتاز الشوارع.

لم يعد طارق إلى الفندق إلا بعد أن هبط الظلام. كان الهدوء قد عاد إلى المكان، والجميع يتكلمون ويتحركون في أصوات خافتة. تقدم منه محجوب درويش وهو يقول في رقة مبالغة:

- كيف الحال؟ متى سيخرجان؟ أقصد متى سيخرج أبوك؟

قال طارق في اقتضاب:

- لا أعرف بعد.

قال محجوب وهو يشوح بيده:

- حادثة غريبة! لا أدري لماذا تهور أبوك هكذا، الرجل الآخر كان يبدو عاقلًا!

ابتعد طارق دون أن يرد عليه، تركه على السلم الحجري وواصل صعوده إلى أعلى. كانوا جميعًا حول المناضد، الذين قابلوا أباه بالصمت البارد، والذين بصقوا عليه، تطلعوا نحوه كأنهم كانوا ينتظرون عودته. نهض الممثل التلفزيوني مسرعًا، وضع يده على كتفه وهو يقول:

- اسمع، لقد اتفقنا جميعًا، سوف نتعاون في دفع تكاليف الحطام، مهما كان المبلغ لا يهم، فاهم، لا تحمل همًّا.

شد طارق على يده في امتنان. كانوا جميعًا يتطلعون نحوه، يعطونه موافقة الأغلبية المصرية الصامتة التي لا تتكلم حتى وهي خارج الحدود.

سار طارق إلى غرفة أمه. لم يكن يعرف ماذا سيقول لها، كيف يهون عليها الأمر. كان منظر السجن الداخلي مثيرًا للرعب، ولم يكن يدري كيف سيقضي أبوه الليلة في هذا المكان. طرق الباب فلم يسمع ردًّا. دفعه، الظلام يسود الغرفة، قال:

- أمي، هل أنتِ هنا؟

تمامًا كما كان يقول وهو صبي عائد من المدرسة شاعرًا بالجوع وبالحاجة إلى الحب. مد يده إلى زر الضوء حتى عثر عليه. كانت متكومة فوق السرير، لا يعرف إن كانت نائمة أو مستيقظة، لا صوت حتى ولا صوت تنفسها. قال طارق:

- لقد عدت يا أمي، كل شيء سيكون على ما يرام.

وانحنى أمام الفراش. عيناها مفتوحتان، ممتلئتان برعب غريب.

هتف:

- قال أبي إن...

ولم يكمل، رأى كل شيء، الصور المتناثرة في كل مكان، على السرير والأرضية والمقاعد، مئات الصور المليئة بالظلال السوداء. ارتعدت أصابع طارق وهو يمسك الصورة الأولى: عادل يضحك وهو يتناول شهادة التخرج ويرتدي الروب الأسود. تناول الصورة الثانية: عادل صغير يمص إصبعه

وجسده الصغير عارٍ تمامًا. عادل يعزف على الجيتار. يحبو على الأرض. يتأمل زهرة. يضع يده على كتف صديق. يَقف تحت أعمدة الكرنك. يرتدي طرطورًا في إحدى الحفلات. يحدث فتاة في كافتيريا الكلية. حي. موجود. أنفاسه تملأ الغرفة. ضحكاته تتردد من جديد. وهو يرفعه إلى أعلى حتى يكاد يلامس السقف ثم يتلقفه ضاحكًا من فزعه، مهدئًا روعه. وهو يأخذه من يده، يملأ جيبه بأكياس اللب الأسود والفول السوداني والتوفي، ويذهبان معًا إلى آخر شارع الهرم، لأن فرقة الموسيقى العربية تعزف لحنًا قديمًا. وهو يريه عظام الموتى التي يستذكر عليها دروسه ويلونها باللون الأحمر والأزرق؛ الأحمر للأوردة، والأزرق للشرايين. ويطلعه سرًّا على صورة الفتاة التي يحبها. ويرسل إليه الرسائل المرحة من الجبهة. ويصر على اصطحابه إلى السينما مهما كانت الإجازة الميدانية قصيرة.

كانت الأم قد نثرت كل الصور كأنها تحاول ترتيب وقائع حياته، وتركيب أجزاء جسده. ربما كانت هناك فرصة أخيرة للبعث، لعله ينهض من شحوب الظلام وعطن الموت ويتجسد أمامها، يسمع صلاتها الباكية الأخيرة. والصور تضوي بضوء خافت كالحزن الطويل الممتد.

ورآه طارق أخيرًا، جالسًا على السرير الخالي في نفس الغرفة معهما، منكس الرأس، حزينًا كما لم يكن قَطُّ. رآه قريبًا وبعيدًا، شبحًا حقيقيًّا من لحم ودم. أهو يعرف أن الجيتار قد تحطم؟ أهو ينتظر منه اعتذارًا قاسيًا؟ لم يكن عادل قَطُّ قاسيًا عليه، كان دائمًا امتيازه الخاص. جمع طارق الصور كأنه يجمع عظام عادل العارية الباردة التي أبلاها الرقاد الطويل، بنفس الترتيب والوقائع، من سنوات الطفولة إلى أيام الشباب القصيرة، من بدايات الحب إلى نهايات الموت. وضعها في حقيبتها السوداء، أعاد الذكريات إلى مكمنها. ضغط على كتفيها برفق حتى استكانت وتكومت على الفراش. سمعها تتنهد وهي تضع رأسها على الوسادة. تحدق فيه بعينيها لعله يجد حلًّا. ربما كانت تعرف كل شيء، تحس بمدى حرارة الخطأ. رفعت يدها ومست جبينه بإصبعها، تتلو تعويذة صامتة. هتف في صوت خافت وهو يسحب عليها الغطاء:

- سيكون كل شيء على ما يرام، أعدكِ بذلك.

أطفأ النور. سمع صوت أنفاسها وهي تتردد في هدوء، ثم عاد إلى غرفته. الرائحة الغريبة ما تزال تسكنها. الجيتار المحطم مكوم في أحد الأركان. رفع سماعة التلفون، وأدار الرقم، وظل الجرس يطن قليلًا، ثم سمع صوتها من الناحية الأخرى. قال:

- هل يمكن أن نتقابل؟

قالت:

- أجل.

قال:

- متى؟

قالت:

- الآن.

قال:

- الأفضل أن نتقابل في الخارج.

قالت:

- وأنا أفضِّل ذلك أيضًا.

قال:

- هل نذهب إلى الشاطئ؟

قالت:

- ولمَ لا؟

كان صوتها باردًا كالمعدن، ووضعت السماعة قبل أن يضعها هو.

أبدل قميصه المتسخ، ورتب شعره، وتحسس جيب بنطلونه، ثم خرج من باب الغرفة. كان قد أعد كل شيء. جلس داخل القاعة بالقرب من مكتب الاستقبال بعيدًا عن المناضد المزدحمة في الخارج. تشاغل بمطالعة بعض المطبوعات السياحية. رمقته الفتاة الجالسة خلف مكتب الاستقبال من طرف خفي، وانسابت همهمات الآخرين من الخارج. لم تكن هناك موسيقى. المكان كله مضاء بنصف إضاءته الطبيعية. الصور السياحية مصقولة وجميلة. ثم رآها تهبط من فوق السلم، ترتدي ثوبًا خفيفًا يكشف عن صدرها، شعرها المنسدل خلف ظهرها قد وضعت فيه زهرة بيضاء، وعلى كتفيها حقيبة بيضاء أيضًا. لم يبدُ عليها أنها رأته أو أحست بوجوده. رأى طارق عينَي فتاة الاستقبال وهي تتبعها في انبهار. نهض ببطء، سار إلى الباب. كانت المناضد مزدحمة بهم، تابعوه في صمت وهو يمر من أمامهم. كانوا أذكى من ألا يربطوا بين مرورها أولًا ثم مروره بعد ذلك. بدت خيبة الأمل واضحة على وجه الممثل التلفزيوني نصف المشهور. انحدر طارق على الدرج الحجري. كانت تسير مبتعدة، والهواء البارد مشبع برذاذ البحر الذي يتمطى ولا يكف عن الهدير، والقمر المكتمل يلقي على الشاطئ ضوءًا ناعمًا مليئًا بالحزن، وهو يسير خلفها، لم تتمهل حتى تنتظره، ولم يسرع حتى يلحق بها. ظلت مسافة الأسفلت البارد محفوظة فيما بينهما. جماعات متناثرة من العشاق، وأغنيات خافتة تنساب بين الأشجار. رآها تستدير وتدخل من بوابة الشاطئ الحديدية، لم يكن هناك أحد، ولم يكن هناك من يطلب رسم الدخول. شاهدها تخلع حذاءيها وتمشي حافية فوق الرمال. مصابيح خافتة تفرش ظلالها. أحس طارق برعدة، وظل يقتلع قدميه من الرمال ويراقبها وهي تتحول إلى شبح دائم الابتعاد. تقوده في الرحلة نفسها، بلا شهود هذه المرَّة، ودون أي رغبة تحسس جيب بنطلونه. انتهى الشاطئ الرملي، وبدت الصخور البارزة مثل شواهد صماء. ذابت ليزا. وأسرع طارق في خطاه متعثرًا، لن يحفظ أبدًا تضاريس هذا المكان الذي تمر هي من فوقه في نعومة، تقوده دائمًا إلى فخها الخاص. ولكنه لم يذهب بعيدًا هذه المرة، كانت جالسة فوق إحدى الصخور، وماء البحر ينساب من حولها. توقف قليلًا يتأمل ظلها القريب في ضوء القمر، جلس على صخرة مقابلة لها، كانت رُكبتاهما

متلامستين تقريبًا، أحس بها باردة ولكن لم تكن هناك أي رعدة. ظلا صامتين حتى كف البحر عن الهدير المتصل، كأنهما رحلا معًا إلى زمن آخر. قالت:

- هل هذا المكان مناسب؟

قال:

- أجل.

قالت:

- فات الأوان للذهاب إلى الكهف.

قال:

- أجل، لم يعد الوقت مناسبًا.

قالت:

- هل شاهدت أبي؟

قال:

- أجل، ربما يخرج غدًا.

قالت:

- ربما لن يرى هذا الغد، إنه مريض بالقلب، ولا أدري ماذا يمكن أن يفعل السجن به.

سكت طارق قليلًا، ثم قال:

- أبي أيضًا حالته سيئة، أمراضه أكثر من أن تُحصى.

ساد الصمت مرة أخرى. كانا بعيدين رغم رُكبتيهما المتصلتين، كل لحظة صمت تأخذهما أبعد وأبعد، والقمر ينحدر ببطء خلف سحابة كثيفة، والريح تمسح وجه البحر وتفرش عليه آخر قطرات الضوء. وهوى غريب، ضل طريق العودة، أخذ يتخبط بين الصخور الجارحة حتى همدت حركته. لم يمد أي واحد منهما يده للآخر. كان يضع يده في جيب بنطلونه، وكانت تمسك حقيبتها الصغيرة. وظلا صامتين، أعينهما المفتوحة تحاول عبثًا اقتناص نظرة الآخر. وأخيرًا سمع صوتها وهي تهمس في صوت بالغ الخفوت:

- ألا تريد أن تُقبِّلني؟

مال نحوها، وأحس بشفتيها الباردتين وهما تندسان بين شفتيه، اصطدمت أسنانهما. وفي اللحظة التي مد فيها أصابعه إلى جيب بنطلونه، اللحظة التي أخرج فيها النصل وسار به عبر مساحة الفراغ التي تفصل بينهما، اللحظة التي كان يغرسه في لحم صدرها، في اللحظة نفسها، أحس بنصلها الحاد وهو ينغرس في لحمه، في المكان نفسه تقريبًا.

١٩٨٥

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتجاه واحد للشمس

في منتصف السماء تذوب شمس قلقة، تصلي كل من يمرق تحتها. ومن محلج القطن القديم لا تكف أعمدة الغبار عن التصاعد. منذ لحظات كانت كل أرجاء المحلج تموج بالنشاط والحركة، ولكن الصفارات ترتفع الآن في صوت مسلوخ من المخازن، وعنبر الدواليب، والمكابس، ورصات القطن المنزوية، كلها معًا تُكوِّن صوتًا صاخبًا، لا يعني إلا شيئًا واحدًا: ثمة خطأ في مكان ما من المحلج، وعلى كل الماكينات البدائية التي لا تكف عن أكل الزيت وسواعد الرجال أن تتوقف.

رفع الريس عطية حاجبيه في استغراب. توقف أيضًا الأنفار الذين كانوا يعملون تحت إمرته، رفعوا قاماتهم النحيلة التي تظل مقوسة طوال اليوم. ورغم الغبار الذي يملأ مخزن القطن، ويتسرب إلى خلاياهم، ويكتم على صدورهم، فقد هتفوا في فرح. حاول عطية أن يلوح لهم بالخرزانة مهددًا، ولكن صوت الصفارة كان واضحًا بلا جدال. أخذ يتقافز فوق القطن الزهر الذي يملأ أرضية المخزن، ونظر إلى أعلى حيث توجد الفتحة الخالية، المفروض أن يهبط منها القطن، صاح:

- ماذا حدث؟

قال عبد التواب، أحد الأنفار، في سرعة:

- العدة انكسرت.

لسع الريس مؤخرته بالخرزانة وهو يصيح:

- كسر رقبتك، لو تعطل المحلج يومًا آخر فسوف نجوع كلنا!

عاد يصيح مرة أخرى:

- ماذا حدث؟

ولكن أحدًا في الأعلى لم يرد عليه. ألقوا عليه فجأة كومة من القطن فهبطت على رأسه. أخذ الأنفار يضحكون في صوت ساخر. الأوغاد لم يستطيعوا أن يخفوا شماتتهم. طاردهم بالخرزانة، ولكنهم كانوا جميعًا قد تركوا له المخزن وفروا هاربين إلى الخارج، إلى فناء المحلج حيث تنتظرهم الشمس الحارة.

في عنبر الحلج أصيبت الدواليب أيضًا بالشلل، توقف صوت التروس فجأة، وخيَّم الصمت. توقفت صفوف البنات ورفعن أيضًا رؤوسهن وأخذن يطقطقن ظهورهن في تأوه. مالت بهية على جارتها رتيبة التي تقف في الدولاب المجاور، وهمهمت لها:

- ثالث مرة يتعطل المحلج هذا الشهر.

قالت رتيبة بأسى:

- كله على دماغنا، سوف نتسلم سركي اليومية فارغًا، ويا ويلي من زوجة أبي.

كان الريس أحمد ريس العنبر يراقبهما، شعر بالحنق وهو يشاهدهما تتحدثان دون أن يجد مبررًا لضربهما بالخرزانة. جلس في الركن وهو يحاول أن يحك ظهره في الجدار البارد، كان يعاني دائمًا من الأكلان المزعج الذي يحدثه غبار القطن، وتزداد حدة الأكلان حين يشاهد بهية؛ جسدها الملفوف، وساقيها الملفوفتين وهما تشعان ضياء غريبًا وسط عتمة العنبر، وعندما كانت تنحني فوق الدولاب كان يلمح ثدييها من فتحة الثوب، حمامتين صغيرتين نائمتين على صدرها. كيف لم يشوه الفقر والضنك كل هذا الجمال؟ كيف تحافظ على هذا التألق الغريب وسط الرطوبة والغبار وسكاكين الدواليب التي تلتهم زهر القطن فتفصل النسيج الأبيض النقي عن البذرة السوداء؟ كان الريس أحمد يُنفِّس عن نفسه حين يقف أمامها فجأة ويلسعها بالخرزانة في ضربة سريعة، كانت تتأوه ويحمر وجهها، فيجعله هذا يحس بالرضا الشديد، ويظل الأكلان الذي يهري ظهره متوقفًا لمدة طويلة. كان يتمنى أن يخلو هذا العنبر فجأة، أن تخرج كل البنات وتبقى بهية، تأتي إليه طائعة، تخلع ثوبه وتبدأ في هرش ظهره برفق وحنان.

صرخ الأسطى زكي في صوت حاد:

- العدة ركبها عفريت.

الموتور الضخم يئن وتتباطأ دوراته حتى توقف تمامًا. ساد الصمت فوق الآلات العملاقة السوداء المتجهمة التي لا يجب أن تتوقف ليلًا أو نهارًا. الأسطوات يلهثون مثل أقزام صغيرة، يحاولون تسلق العوارض الحديدية وزحزحة الصواميل والبراغي، يواجهون صمت الآلات المهيب بالشتائم والسباب، يصبونها فوق رؤوس صبية المزايت.

والصبية الصغار يحملون المزايت في رهبة ورعب، تتردد في أذهانهم الحكايات الرهيبة عن هذه الآلات التي لا تعمل جيدًا قبل أن تلتهم تروسها جسد صبي دماؤه طازجة. في كل مرة كانوا يدخلون هذه الغرفة، كان كل واحد منهم يتخيل أنه هذا الصبي، وأن الماكينة تناديه بالاسم.

الأسطى زكي نفسه واقف أمام الترس الضخم، يتحسس بيده الصواميل، يحس ببرودة الصلب وهي تسري داخل بدنه. كان الحوار بينهما منقطعًا هذه المرة، في كل مرة كان يكفي أن يلمس الآلة حتى يعرف أين يكمن العطب، ولكن الترس الآن أصبح غريبًا متباعدًا عنه، لم يعد يفهم لغة السيور المطاطة، ولا الأسنان المتداخلة، ولم تعد إشارات الشرر المتصاعدة تعني شيئًا. الترس أدار ظهره له، وبدا غاضبًا متجهمًا كما لم يكن من قبل. فكر أن يخلع البنطلون ويتبول عليه، ينهي كل ما بينهما ويعامله فقط مثل قطعة صماء من الصلب، ولكنه لم يجرؤ على ذلك؛ كان جلال الآلة المهيب يأخذ دائمًا بمجامع نفسه. حتى وهي صامتة لم تفقد ذلك الجلال. هتف في حدة:

- عليَّ النعمة هناك سر، الترس لا يمكن أن يفعل هذا دون أن يكون هناك سر.

حانت منه التفاتة، رأى واحدًا من صبية المزايت، انصرف الجميع وبقي هو يحمل المزيتة ويحدق في الماكينة في انبهار مرعوب. فكر في نفسه: هل هذا هو السبب؟ هل تطلب هذه الماكينة الملعونة قربانًا لم يقدم لها؟ هل تريد أن تلتهم لحمًا غضًّا لطفل صغير يخضب تروسها بدلًا من الزيت؟ هل تحتاج إلى أضحية مثل هذا الصبي الذي كان وجهه مصفرًّا مرعوبًا؟ هل سيشبع هذا جوعها للدم وتعود

للدوران؟ كان الصبي قد ترك الماكينة وأخذ يحدق فيه، لا بد أنه عرف فيما يفكر، كان وجهه مصفرًّا وهو يتنفس بصعوبة، أسرع يعدو هاربًا. نفض زكي رأسه لتسقط منه هذه الأفكار الشريرة. التفت إلى بقية الأسطوات وهو يصيح:

- حاولوا يا أسطوات، افحصوا الصواميل وتوصيلات الكهرباء. هناك أناس بالخارج سوف يجوعون لو لم نشغل هذه الماكينة.

وفي الخارج كانت الشمس القلقة تواصل الذوبان. يوم شتوي حار. كان العمل قد توقف أيضًا في الشونة الملحقة بالمحلج. سكت العتالون والقبانية وأنفار الغربال وخاتمو رصاص البذرة. استلقوا جميعًا على أكياس القطن وعرَّضوا بطونهم وصدورهم للشمس. شعر شنودة أفندي بحساسية شديدة في أنفه، أخرج علبة النشوق ووضع قليلًا منه على ظهر يده ثم تنشقه في قسوة، عطس بصوت عالٍ حتى تناثر رذاذ أنفه مصبوغًا باللون البُني، وهو يقول:

- عدة قديمة لم تتغير من أيام الخواجات. آ... آ... تشي.

صعد فوق رصة من الأكياس أعلى من الباقين، خلع حذاءه الأبيض، واستلقى هو أيضًا تحت الشمس. كان الجورب ممزقًا عند الكعب وعند الإصبع الكبرى، تأمله قليلًا ثم قال في أسى:

- ذهبت أيام الخواجات.

لم يتغيَّر المحلج كثيرًا، طُليت جدرانه باللون الأبيض وسرعان ما غطاها التراب، وطليت النوافذ عدة مرات بعدد المديرين الذين توالوا على المحلج، وعُلق العديد من شعارات الإنتاج، ولكن أحدًا لم يهتم، فقد كان الجميع - ما عدا الأفندية بالطبع - يجهلون القراءة. تذكر شنودة الخواجة بنايوتي، صاحب المحلج الأصلي، أيامها لم يكن المحلج يجرؤ على التعطل. كان يقول له: «يا شنودة، أنتم لا تعرفون كيف تتعاملون مع زهر القطن الأبيض. أنتم تريدون كل شيء ملوثًا بالطين والتراب. من الغريب أن يخرج من أرضكم مثل هذا الزهر الناصع».

تعلم منه كيف يعشق هذا الزهر، كيف يبتهل لهذا اللون الناصع الخالي من أي شائبة. كان بنايوتي يأخذ أول قطنة ويضعها على وسادته. كانا ينتظران حتى يهبط الندى البارد كأنه مقطر في ماء النجوم، ليغوصا معًا وسط الزهر. وكان بنايوتي يقول في حرقة:

- عندما أعود سوف أفتقد رائحة زهر القطن، لن أجد مثلها في أي مكان.

لم يُقدَّر له الرحيل، بقي بعد أن رحل كل الخواجات ومات كل التجار القدامى من شدة الكرب والإفلاس. توسل له أصدقاؤه ومعارفه أن يرحل معهم إلى اليونان، لم يعد هناك خير في هذا البلد، كانوا يقولون، وكان يريد أن يرد عليهم أننا قد أخذنا خيره بالتأكيد، لم تكن فيه قدرة على المناقشة، لم يكن له أقارب ولا ذكريات، ولكن الوضع هنا لم يكن جيدًا أيضًا. تسربت نقوده، وباع كل ما لديه من تحف بأبخس الأسعار، وفي أكثر من مناسبة تعرض للضرب والإهانة، لم يبقَ له إلا هذه الشقة العارية من كل شيء، ومورد مالي شحيح يكفيه شهرًا بعد شهر. لم يأبه به أحد حتى بعد أن أقعده المرض وأصبح أسير الكرسي المتحرك، كأن لم يكن تاجر القطن الأول في هذه المنطقة من الدلتا، الخبير الذي يلتقط ألياف القطن طويل التيلة «الجود فيري جود»، ويميزها عن القطن «السكارتة»،

لم يكن يكف عن التجوال في القرى، ويحل على رأس كل حقل، ويشارك الفلاحين في أكل الخبز، والجبن القريش، والسريس، وفي النهاية يظفر بالأكياس المفعمة بالزهر، بعيدًا عن شوارب التجار وغيرهم من الأفاقين اليونانيين. كان الفلاحون يثقون به، ويحلفون بذمة الخواجة بنايوتي التي لا تعرف غشًّا ولا ملاوعة.

ولكن اليوم كان مختلفًا، استيقظ على كابوس أن قلبه قد توقف، ولكن حين فتح عينيه كان الصمت سائدًا، وقلبه ينبض بسرعة، كان هناك صفير في أذنيه، كأن ضجة خاصة كانت موجودة قد صمتت فجأة، تركته وسط فراغ بارد، الإيقاع الذي كان ينتظم أيامه اختفى، حلت النهاية وانتهى الوقت المسموح به، وانسحبت سجادة العالم من تحت قدميه. ظل جالسًا في الفراش مفزوعًا شاعرًا بوحدة قاتلة.

تأمل الريس عطية الأنفار وهو يقول ضاحكًا:

- والله يا أولاد الكلب، لا تعرفون ماذا ينتظركم.

كان يتأمل الأنفار، يتراكضون في نشوة، يتقافزون على الأرض، تحت الشمس، حالفهم الحظ وتخلصوا من عتمة المخزن والرطوبة والغبار. سكت صوت الآلات، وجاء وقت كل أنفار المحلج حتى ترتفع أصواتهم عاليًا. وصلوا إلى الصنابير النحاسية التي تدفع بخيوط الماء إلى أعلى، خلعوا ملابسهم، وفتحوا كل الصنابير دفعة واحدة، تألقت سحابة مائية صغيرة، هبطت على أجسادهم التي يكسوها الغبار. كان الماء باردًا، بعث بداخلهم رعدة من النشوة كأنهم يؤدون طقسًا مجهولًا للشمس، يربطهم جميعًا إيقاع رقصة عفوية، امتزجت بها الضحكات الحقيقية والتعليقات المتقطعة، تناثرت تحت أقدامهم بحيرة صغيرة من الماء والطين. ارتفع صوت زينهم، يغني وهو عارٍ تمامًا، كلماته بلا معنى تقريبًا، ولكن صوته كان خشنًا وحزينًا. انطلقوا جميعًا يغنون معه، كل واحد يقول كلماته الخاصة. تحولت أصواتهم إلى هدير خافت، انساب من عظام الصمت الرابض على المحلج. لحن الماء والشمس، والنغمة ترتفع، وتتفتت ثم تتناثر مع نافورات الماء. امتلأ المكان كله بشرارات المرح الخفية. اكتشف الجميع، حتى الموظفون من المكاتب البعيدة، أن هؤلاء الأنفار يمكن أن يكون صوتهم أجمل من صوت الآلات. اكتشفت بهية أن الريس أحمد ما زال جالسًا يحتك في الجدار وهو يحدق فيها، يكاد يخترق جسدها بعينيه. رأت العنبر وقد أوشك أن يكون خاليًا، قالت لرتيبة:

- ما رأيك إذا ذهبنا إلى الشونة؟

قالت رتيبة معارضة:

- المسافة طويلة. أنتِ تعرفين أنني أتعب بسرعة.

كانت رتيبة سمينة بعض الشيء، ولا بد من وسيلة لإغرائها بالسير. قالت بهية:

- فلنأخذ الأكل ونتغدى هناك تحت الجميزة.

- يا ربي! دائمًا تحبين الأماكن المنعزلة! ألا تخافين من العفاريت؟

- ها هو أحد العفاريت جالس أمامنا يحك ظهره في الحائط!

ألقت رتيبة نظرة سريعة على الريس أحمد، شاهدت نظراته الجائعة، فأسرعت هي أيضًا تأخذ غداءها وهي تهرول خلفها. شاهدهما الريس أحمد، وأوشك أن يهب مسرعًا خلفهما، ولكن الريس عطية جاء فجأة، وقف أمامه وهو يضرب جلبابه المنتفخ بالخرزانة، قال:

- إيه يا ريس أحمد؟ ماذا سنفعل؟

قال أحمد وهو يتثاءب:

- أمر الله.

أشار عطية في اتجاه الباب الرئيسي للمحلج وهو يقول:

- وعندما يأتي الحاج طلبة اليوم، ماذا سنفعل؟ ماذا سنقول له؟

- العدة قديمة، هو يعرف ذلك جيدًا.

- ولكنه سوف يحملنا الذنب كالعادة!

- ليفعل ما يفعله.

- سيخصم أجرنا، قد يفعل ذلك.

- يكفي ما نأخذه من الأنفار.

- الأنفار أيضًا لن يأخذوا شيئًا.

ونهض الريس أحمد في فزع وهو يقول:

- حقًّا، الله يخرب بيته، والله أترك المحلج، أذهب إلى أي محلج آخر.

ولكنه تذكر بهية، والحكة التي في ظهره، فقرر أن يبقى.

جلس الأنفار أخيرًا فوق أكياس القطن الذي تم حلجه بالفعل، لأنه أنعم وأكثر راحة. ارتدوا ثيابهم وبدوا أكثر نظافة، وظهرت أيضًا ملامحهم الحقيقية. كان عبد التواب جالسًا بينهم عندما رأى بهية، استيقظ إيقاع النشوة في داخله من جديد، لم تره بهية ولكنها أحست بوجوده، أحست برائحة أجساد الأنفار المبلولة وهي تهب عليهما. هتف واحد منهم فجأة:

- آه من العدة الخسرانة يا بوي!

تعالت الضحكات، وابتسمت رتيبة، وأشاحت بهية بوجهها إلى الناحية الأخرى. قفز عبد التواب من فوق الأكياس وأصبح أمامهما تمامًا، وقال قبل أن يلتقط أنفاسه:

- إزيك يا بهية؟

وأوشكت بهية أن تقول له: «تسلم»، ولكنها لم تقلها.

قالت له رتيبة:

- ماذا تريد؟

قال عبد التواب مرتبكًا:

- فقط أريد أن أسلِّم على بهية.

- روح شوف شغلك.

ظل واقفًا حتى بعد أن ابتعدتا. ضحك منه بقية الأنفار، ولكنه لمح بهية وهي تلتفت، التفاتة حقيقية لم يلحظها أحد غيره، لعلها ابتسمت له، لم يرَ الابتسامة أحد غيره أيضًا.

بهية تضع على رأسها طرحة سوداء، تديرها بحيث تخفي الثقوب الموجودة فيها، وتتطلع إلى سور المحلج الطويل الذي يخفي الأفق، كل قطع السحاب التي تتحرك تنزلق خلفه بلا عودة. قالت لها رتيبة:

- ألا تريدين واحدًا منهم؟

قالت بهية:

- وماذا أفعل به؟ فقر إضافي! ألا يكفي الهم الذي أعيش فيه؟!

- على الأقل أنتِ جميلة، أمامكِ فرصة. أما أنا فيا حسرة عليَّ!

قالت بهية:

- جميلة! هذا لا يحدث إلا في الأفلام، وإذا كنت جميلة حقًّا، فإلى متى يمكن أن أقاوم الانحناء على الدولاب، ولسع الخرزانة، وشم الغبار، والنوم بلا عشاء؟!

لم تقل لها عن صف العرسان الطويل الذي يأتي لمقابلة أمها، عن كلمات الرفض المتوالية. كانت هي التي ترفض قبل أن يرفضوها هم، قبل أن يروا البدروم الشبيه بجحر الفئران، ولحم إخوتها المكوم بجانب الجدران. لم يتقدم من يشتري الصفقة كلها؛ هي ولحمها ورطوبة فقرها. كل الذين تقدموا كانوا يريدون التقاطها فقط، جائزة ثمينة عن مجهود لم يقوموا به. كانت بهية تشعر أنها دائمًا وحدها، منزوية في ركن صغير من أركان المحلج، تحوطها ظلال الأكياس الضخمة، والبالات العملاقة تلقي عليها نظرات متحفزة، وهي تسير بين كل شيء، نبات بري غريب شق الأرض فجأة وسط المحلج القفر. عندما حان وقت الحلم اكتشفت أنها غير قادرة على ذلك. كانت جائعة، وعليها أن ترضى دائمًا بالفتات، فتات الطعام، وفتات الرجال، إذا كان هناك رجال.

قالت رتيبة:

- والنبي بعد أن اغتسل الأنفار أصبحوا في غاية النظافة، على الأقل شباب، صغار في السن.

قالت لها بهية:

- هل... هل زنقكِ واحد منهم؟

ضربتها رتيبة على ظهرها وهي تقول:

- عيب يا بت، أنا رتيبة والأجر على الله.

طرقات الشونة ضيقة، صفوف أكياس القطن والبذرة تصنع منها دروبًا ثعبانية ملتوية. ذرات التراب ناعمة ومثيرة للعطس، وأقدامهما تصنع آثارًا غائرة، تتقاطع مع الآثار التي تتركها أجساد الحشرات والهوام وهي تختفي تحت الأكياس. أحست بهية بأنها تتضاءل، وجسدها يصبح صغيرًا عاجزًا عن إيجاد طريق للخلاص.

قالت رتيبة:

- تعب وغبار كل يوم، لا الدواليب تهدأ، ولا نحن نجد لنا بيتًا يضمنا، وفي الآخر أنام مع أحد الأنفار؟! وأين؟ هنا؟ على هذه الأكياس؟!

- والريس عطية؟

- متزوج من أربع، كلهن يعملن في بقية المحالج الموجودة بالبلد. وإذا تركت واحدة منهن العمل يطلقها على الفور.

في الحجرة الصغيرة المربعة الموجودة بالقرب من باب المحلج كان حسن أفندي الباشكاتب جالسًا، يرتدي معطفًا باليًا عند المرفقين، فوق الجلباب الأبيض، ورأسه الضخم محشور في طربوش عتيق. عندما شاهد الرجل الضخم الآخر وهو يدخل الغرفة نهض مفزوعًا وهو يتمتم:

- أهلًا يا حاج، أهلًا وسهلًا.

نفخ الحاج طلبة، وجلس على الكرسي الخالي الذي تركه حسن، بينما وقف هو ذليلًا في أحد الأركان. قال الحاج وهو يقلب صفحات الدفاتر المفتوحة:

- ما الأخبار يا حسن أفندي؟

رد حسن على الفور:

- الحسابات مضبوطة وعال العال.

- لا أسأل عن الحسابات، أسأل عن أحوال المحلج السيئة.

- العدة يا حاج، لا بد لها من إصلاح وترميمات طويلة.

زفر الحاج في ضيق. كانت رقبته ثخينة، وعروقه غليظة، كما يليق بمقاول أنفار. قال وقد بدأ يزأر في غضب:

- ليس لي شأن بالعدة، هذه مشكلة مدير المحلج وعليه أن يحلها بمعرفته، أنا تهمني مشكلة الأنفار.

- لا توجد أي مشكلة يا حاج، لو شئت أن نرحلهم الآن رحلناهم وجئنا بغيرهم، إنهم «زُهرات» لا قيمة لهم.

- ولكنهم يأخذون النقود، يأخذون أجرًا مقابل هذه العطلة.

- لا ذنب لهم يا حاج.

- ذنب من إذن؟ ذنبي أنا؟ هذه هي المرَّة الثالثة التي يتعطل فيها المحلج هذا الشهر!

جلس حسن على الأرض أمام المكتب، أصبح في مواجهة قدم الحاج الذي يضع ساقًا فوق الأخرى. قال في توسل:

- لقد اتخذنا الاحتياطات يا حاج، نحن نشغلهم بأقل من الأجر المقرر.

ثار الحاج ثورة عنيفة:

- وهل تحسب أن هذا الفرق يذهب إلى جيبي؟

- معاذ الله يا حاج.

- مدير المحلج يأخذ، وموظف التأمينات يأخذ، ومندوب مكتب العمل يأخذ.

- أعرف، أعرف يا حاج. كان الله في العون.

- أهي مؤامرة لخراب بيتي؟

- معاذ الله يا حاج، لا أحد يجرؤ على ذلك، أنت حاج وزرت قبر الرسول، كلك بركة.

- ماذا أفعل أكثر من ذلك؟ صليت في الروضة، ولمست شبَّاكها، وسأفعل ذلك مرة أخرى إذا لزم الأمر، ولكن الشغل بهذه الطريقة لا يعجبني. أنا مقاول أنفار، ولست بائع خضار. هؤلاء الملاعين تركوا العنابر ليتجولوا تحت الشمس، هل يتوقعون أن أدفع لهم نظير ذلك؟

- ما تقوله ماشي يا حاج، سنخصم منهم كل قرش في هذه العطلة، ولو طالت سنخصم اليوم كله.

كان الأسطى زكي يكره المدير، ويكره غرفته بمكتبها اللامع المصقول، ولا يود أبدًا الذهاب إليها، ولكن المدير هو الذي جاء إليه، كان عصبيًّا ونظيفًا أكثر مما ينبغي، لم تتلوث يداه بالشحم والزيت. صاح زكي:

- أنا ليس لي شأن.

صرخ المدير بلهجة أشد:

- شأن من إذن؟

كان المدير نحيلًا وعصبيًّا، عندما يتجول يكهرب المحلج كله، ولم يكن يكف تقريبًا عن التدخين، وقيل إن عادته هذه تسببت في حرق نصف شونة من القطن المحلوج المعد للتصدير، ورغم ذلك لم يفصله أحد، ولم يتوقف عن التدخين. كان يقف في منتصف غرفة الآلات، ألقى السيجارة وداس عليها رغم أن التدخين ممنوع في هذه الغرفة بالذات. وقال زكي في نفسه: لو أنني بجانبه الآن لهويت بالمفتاح الإنجليزي على رأسه. كان المدير يصرخ:

- هذا غريب، تخريب متعمد!

صاح زكي فيه:

- هل تتهمني؟ إذا كان لديك دليل واحد فلماذا لا تبلغ النيابة؟

تراجع المدير قليلًا، كان يعرف جيدًا أن الماكينة قديمة، لم يعد أحد يصنعها، وأصبحت قطع غياراتها نادرة، ولولا الأسطى زكي ورفاقه وهم يُطوعون القطع الغريبة لتوقفت الماكينة منذ زمن، ولكنه واصل القول في عناد:

- لا يمكن أن يكون هذا محض مصادفة، الحريق الذي اشتعل في المكبس، وطارة المولد التي انكسرت، والآن الترس، الترس بأكمله!

كان زكي يرتعد، يحس بأصابع الاتهام توجه إليه. لم يكن يبالي بصوت المدير العصبي، ولا بسيطرة الحاج طلبة على أرزاق الأنفار، كان ما يهمه هو شيء واحد: أن يزيح تلك النظرة المطفأة في أعين الأنفار عندما يتعطل المحلج ويصبح أجرهم اليومي مهددًا بالخصم. كان يصرخ في الصواميل حتى تستجيب له، وفي السيور حتى تتمطى، لعل الحرارة تدب في المكان ويعود الرجال إلى مراكزهم. ولكن الآلات كانت تخذله هو وبقية الأسطوات.

رفع المدير إصبعه مهددًا:

- سوف أُحملك المسؤولية أنت أيضًا.

- لقد بُح صوتي من الحديث عن الصيانة!

- وبُح صوتك أيضًا من تحريض العمال.

- الحديث عن النقابة ليس تحريضًا!

- أجل، مجرد شغب بريء.

- هذا هو سبب غضبك الحقيقي إذن!

- لولا توسل مندوب مكتب العمل لفصلتك منذ زمن.

- لن يجرؤ أحد على فصلي ما دام الحق معي!

- وهذه الآلة المعطلة؟

- سوف تتصلح حتى يشتغل الرجال.

- لن تتصلح بالشعارات يا زكي!

- لست أنا الذي أقول الشعارات يا حضرة المدير!

أحس المدير أنه يدخل في حوار لا طائل من ورائه، سيهزمه هذا الأسطى المتسخ الذي يحسب نفسه زعيمًا سياسيًّا. كان بقية الأسطوات يرمقونه في عداء صامت وصريح، وصبية المزايت واقفون يراقبون المشهد كأنهم جزء منه. التفت المدير في حركة عنيفة إلى واحد منهم، كان صبيًّا صغيرًا نحيف الجسم بشكل واضح، وصاح فيه:

- أنت، لماذا تقف هكذا؟ هيا، تسلق فوق الترس وإلا فصلتك من العمل!

لم يتحرك الصبي، شعر أن الماكينة ستأكله. وأحس المدير أنه لا جدوى من تهديده بأي شيء.

شعر شنودة أفندي بالرغبة في القيء، نهض مسرعًا، هتف به القباني الذي يساعده:

- ماذا بك يا شنودة أفندي؟

اختفى شنودة خلف صف من أكياس البذرة. أشار المساعد إلى أحد العتالين وهو يقول:

- أصبح عجوزًا، لم يعد يحتمل العمل أو الراحة.

كان بطن شنودة يتقلص فجأة، لم يكن قد أكل شيئًا تقريبًا، ولكن الذكريات كانت تهاجمه. اللعنة على هذه الراحة الإجبارية التي تجعل كل شيء يستيقظ في داخله! كان صبيًّا في السادسة عشرة من عمره عندما جاء إلى المحلج للمرَّة الأولى. قال له بنايوتي:

- أنت مصري ذكي، هذا الذكاء لا يليق بمصري صغير، تعالَ معي وسوف أعلِّمك كيف تلعب في سوق القطن، إنها لعبة الأثرياء.

ومن هذه الشونة تلقَّى درسه الأول في لعبة القطن. كانت لعبة غريبة عندما شاهد وجه بنايوتي الأحمر محتقنًا بالعرق، شرب كثيرًا ولا شك، لأن كلماته كانت مبعثرة، وأصابعه كانت مرتعدة عندما وضعها على وجه شنودة، ثم انحنى أمامه على الأرض وهو يهتف:

- أتدري... لماذا... حتى الآن... لا توجد لي زوجة ولا ولد؟

كان يوشك على البكاء:

- هذه ليست أرضي يا شنودة، ليست لي جذور هنا!

وفك حزام البنطلون، وانحنى في حركة سريعة أمام شنودة المذهول، وهو يصرخ:

- هيا، أليست لديك أي رغبة في الاستعلاء؟ في القفز على أسيادك؟

ثم انتابه خجل عظيم، فأعاد حزم البنطلون وهو يتأوه في صوت موجوع:

- كلَّا، ليس على القطن، القطن مقدس، أنا الدنس، الشيء الوحيد الدنس في هذا المحلج!

كان بطن شنودة لا يزال يتلوى. لم يكن هناك ما يتكرعه إلا بعض السوائل الحامضة. وكان المحلج ما زال صامتًا، لا أمل في أن يعلو ضجيجه حتى يخفي كل الأشياء التي تضطرم في داخله.

كانت هناك حركة محمومة من غرفة الموظفين، امتلأت المقاعد بهم، ثم خلت، ثم امتلأت مرة أخرى. نظر الفرَّاش أكثر من مرة من خلال خرم باب المدير، رغم معرفته بمكان وجوده. كانت سامية تواصل الكتابة على الآلة الكاتبة في إلحاح، لم تحس بالحركة المحمومة من حولها. كان الموظفون يحسون بمسؤولية غامضة إزاء ما حدث، خرجوا من المكاتب، وقفوا بجانب رصات القطن يتفرجون على الأنفار كأنهم يشاهدون حيوانات غريبة جاءت من عالم غريب. أشعلوا السجائر، ونفضوا ستراتهم من الغبار، واسترخوا قليلًا تحت الشمس. دخل إبراهيم، مساعد المدير، إلى الغرفة، كانت سامية وحيدة تواصل الكتابة، جلس بجانبها دون أن تحس به، مد يده تحت المنضدة ووضعها على رُكبتها ثم رفعها إلى أعلى، توقفت قليلًا ثم واصلت الكتابة بنفس الرتابة. تطلع إبراهيم إلى الورقة مدهوشًا، لم تكن تكتب شيئًا له معنى، مجرد حروف متشابكة، سطور متشابهة. أوشك أن يصرخ فيها بأن تكف عن هذه الحماقة وأن تتجاوب معه قليلًا، ولكنه سمعها وهي تقول بنفس الصوت الرتيب:

- أمي تسألني على نقود الجمعية.

قال إبراهيم في ضيق:

- أوه يا سامية! أنتِ تعرفين أن النقود في الحفظ والصون.

قالت سامية:

- كان المفروض أن تحضر لنتحدث في الترتيبات.

- ما زلت في حاجة إلى بعض الوقت يا سامية، ثم إنه المدير...

- لا شأن لي بالمدير!

- لا تقولي هذا، إنه يعطف عليَّ، ثم إنه معجب بكِ جدًّا.

- والله!

لم يفهم ماذا تعني «والله» هذه، استنكار أم رغبة. ولكنه تشجع حين رآها لم تثر غاضبة، بل واصلت الكتابة بنفس الطريقة الرتيبة، تدق نفس الحروف الغامضة المتشابكة الممتدة السوداء التي لا تعني شيئًا، كان لحمها باردًا، مقشعرًا، ولكن لم يبدُ على وجهها أي تعبير من أي نوع. قال:

- يعني، الأمر لا يتطلب أكثر من أن تكوني ظريفة معه، متجاوبة قليلًا.

وحين توقفت عن الكتابة لبرهة هتف محذرًا:

- في حدود الأدب.

ثم أدخل يده أكثر، وحاول أن يكون حارًّا وعاطفيًّا، وقال:

- سوف يفيدني هذا كثيرًا. إذا حصلت على الترقية، يمكننا أن...

ولم يُرد أن يعطي وعدًا قاطعًا. قالت كأنها لا تحس بأصابعه:

- ونقود الجمعية؟ ماذا أقول لأمي؟

وقفت العربة القديمة أمام باب المحلج، وأطلقت نفيرًا عاليًا. عندما نظر الحارس في داخلها وجد شخصين، أحدهما عبده الشيال، وكان يعرفه جيدًا، يحفظ ملامح وجهه العجوز منذ أن كان عاملًا في الزربية، وكانت له القدرة على حمل كيس من القطن وحده، ما زال قويًّا في جلسته المنتصبة وملامحه المشدودة التي تجعل صلعته أكثر بريقًا. قال الحارس:

- مرحبًا يا شيال، من معك؟

كان العجوز الآخر يجلس في المقعد الخلفي، أشبه بتمثال من الشمع، شاحب البياض كأنما لا تجري في عروقه نقطة من دم. قال عبده:

- أنت حديث هنا، كيف لا تعرف الخواجة بنايوتي صاحب هذا المحلج؟

تفحص الحارس وجهه جيدًا ليتأكد أنه ما زال على قيد الحياة. كان يعرف أن المحلج يحمل حقًّا هذا الاسم، هذا بين الناس فقط، وليس في الأوراق الرسمية، كان متأكدًا كما يعرف الجميع أنه ملك الحكومة، منذ أن حدث التأميم من سنوات بعيدة، وقد انقطعت سيرة الخواجات. الله يخيبك يا شيال، تُحضر شبحًا وتدَّعي أنه صاحب المحلج! قال الحارس في سخرية:

- وماذا يريد؟ هل جاء ليسترده؟

ضحك الشيال، واختلج الوجه الشمعي.

قال الشيال:

- الله يجازيك، أنت تعرف أن ما أخذته الحكومة لا يُرد، إنه يريد القيام بزيارة، مجرد زيارة.

قال الحارس:

- زيارة بلا فائدة، المحلج عطلان على أي حال.

ارتجف الوجه الشمعي، بدأ يلتقط أنفاسه بصعوبة. التفت الشيال نحوه وهو يقول:

- من أجل هذا كنت تصرخ من الصبح، تريد أن تقول إنك شعرت بهذا التعطيل؟

قال الحارس:

- عُد به، لن يرى شيئًا.

ترنح الخواجة دون أن يصدر صوتًا. شعر الشيال بالشفقة عليه، تأمل جسده المضمحل، وشعره المهوش، وربطة عنقه الملتوية.

كان أجمل من هذا كثيرًا، كان أميرًا حقيقيًّا، حتى وهو يعطيه ظهره وينحني ويتركه يفعل في مؤخرته ما يشاء. الخواجة الكبير هو الذي نزل إلى الزربية بنفسه، تابعه وهو يحمل أكياس القطن قليلًا، ثم

فتح معه الموضوع مباشرة، الخواجات هكذا دومًا، يذهبون للموضوع مباشرة، دون تردد أو حياء زائف:

- سأعطيك ضعف الأجر، ولن تكون في حاجة إلى كل هذا العناء، لن تحمل المزيد من أكياس القطن، ستحملني أنا فقط إذا لزم الأمر.

كان اتفاقًا سريعًا، واستمر طويلًا حتى بعد أن ضاعت ثروة الخواجة وأقعده المرض. إنه يقوده إلى المحلج عرفانًا منه بالأيام الماضية التي قضياها معًا. لقد تزوج وأنجب أولادًا، ولكن ظل في نفسه شيء لهذا الخواجة العجوز.

ترجى حارس الباب:

- ألا ترى حالته الصحية؟ لن يهبط من السيارة، سنأخذ جولة سريعة.

كان الحارس قد مل من وقوفهما الطويل أمام البوابة، لا خطر من عجوزين قديمين، فأشار إليهما بالدخول.

فوق صفوف بالات القطن الضخمة بدأ الأنفار غداءهم الجماعي، البالات تحتوي على القطن الذي تم حلجه وتخليصه من البذرة، لذلك فهي أكثر راحة ونعومة. كانت أيديهم تحمل المناديل المصرورة، كل واحد يحمل مشاركته في الوليمة. جلسوا في حلقة كبيرة، ووضعوا الصرر في الوسط، كل واحد يفتح طعامه تحت أعين الآخرين، لم يكن هناك ما يستأهل الإخفاء، كانت هناك كسرات من الخبز الأسود الجاف، لا يوجد بينها رغيف واحد مكتمل، ثم قطع من الجبن القريش وسط سائل المش اللزج، عيدان السريس الخضراء المُرة، حزمات الفجل والجرجير المثقوبة، قطع من اللفت المخلل الداكن. ولكن أهم ما في هذه الوليمة كان بلا شك هو تلك القمة البُنية العالية التي ساهم الجميع في إحضارها؛ كيلو كامل من عجوة البلح، جمع الأنفار ثمنه منذ الصباح، واشتروه بعناية، وأخفوه بدقة بعيدًا عن الغبار، ولم يكن أي واحد يجرؤ على أن يمد يده ناحيته قبل أن ينتهوا أولًا من ركام الخبز والجبن والمخلل. ثنى أحدهم ساقه تحت إليته، وتناول البصل واحدة بعد الأخرى، وأخذ يوجه لها ضربات قوية، كل واحدة منها تهشم بصلة. كان توقيت الريس عطية دقيقًا، فقد مر بعد تهشيم البصلة الرابعة بالضبط، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظ وجود الأنفار على الإطلاق، لولا أن أصواتهم هتفت في توسل:

- يا ريس عطية، الغداء يا ريس عطية.

ألقى عليه نظرة محتقرة، وتردد قليلًا قبل أن يصعد فوق الرصة بقفزة واحدة. تأمل الطعام قليلًا باشمئزاز، ثم تمهل قليلًا أمام تل العجوة، ثم قال بلامبالاة:

- يعني مائدة من السماء يا خي!

ضحكوا وهم يوسعون له مكانًا على رأس الدائرة. انهمك في الأكل على الفور. كانوا يتحدثون قليلًا، ويأكلون بسرعة. وهتف عطية:

- بالراحة يا ولاد الكلب!

والتفت إلى الخلف، فشاهد عزوز جالسًا بعيدًا. كان يراقبهم بعوده النحيل ووجه بالغ الشحوب كأنه خيال مآتة. وهتف عطية في حنان:

- ولد يا عزوز، تعالَ كُل معنا يا ولد.

ولكن عزوز انكمش حول نفسه، تراجع يريد أن يختفي من أمام الأعين التي التفتت تحملق فيه، كان يرتعد بشدة. وقال زينهم:

- لم يأكل منذ أسبوع.

أضاف عبد التواب وفمه ممتلئ بالخبز والجبن:

- أكثر من أسبوع. لم يره أحد وهو يأكل منذ مدة.

قال عطية وهو يلوح بالخرزانة في الهواء:

- أتريد أن تموت جوعًا يا ولد؟ ألا يكفي أنك أهبل وعبيط وبريالة؟

نهض عزوز واقفًا، انتفخت أوداجه، وأخذ يصرخ، يتوسل لشيء ما بعيد، والصدى يردد الصرخة عالية، يحملها عبر أرجاء المحلج الساكن، ثم أخذ يجري، قفز من رصات القطن إلى رصات البذرة، ثم إلى الأرض، سار بجانب سور المحلج الطويل، لم يشعر بالأشواك الحادة ولا الحشرات، كان الفضاء فسيحًا وهو وحده، حتى شنودة أفندي لا يوجد له أي أثر، كان في حاجة إليه، الوحيد الذي يتحدث معه، الجميع في المحلج يعتقدون أنه أخرس وأبله، ولكن شنودة أفندي يعرف نبرات صوته، وكلماته المرتعشة بالخوف، وأحلامه العاجزة. توقف عزوز بجانب الحائط وأخذ يتبول، انسابت المياه الصفراء العكرة فوق التراب الناعم، تأمل الثقوب الدقيقة الغائرة في التراب، كانت حولها أكوام صغيرة أكثر نعومة، ظل جالسًا صامتًا بجانب أحد هذه الثقوب، بعد قليل خرج حرامي الحلة. أطلت الحشرة برأسها الصغير أولًا، ثم انفلت جسدها المفصلي في سرعة. كان عزوز مستعدًّا. رفع يده وهوى عليها بكل قوته. كان يعرف جيدًا أن الحشرة لو ماتت دون أن تتحرك حركة واحدة فسوف يجد تحتها الكنز. انسحقت الحشرة تمامًا من قوة الضربة، ولكنها رغم ذلك تحركت حركة ضئيلة واهنة، ضاع الأمل هذه المرة أيضًا. أحس أنه يكره التراب الناعم، والمحلج، والسور العالي الممتد، وبدأ يركض من جديد.

شنودة يرقب وجه بهية، مرت به مثل حلم. ستنا العذرا فقيرة، متخفية، كما يجب أن يحدث دائمًا، في زي واحدة من عاملات المحلج. سلم عليها بيد مرتعدة، فقالت وهي تضحك:

- مالك يا شنودة أفندي؟ تعبان؟

قالت رتيبة:

- شارب حاجة يا شنودة أفندي؟

واستدار شنودة إليها بكليته، وهتف:

- رتيبة!

كان يحب جسدها السمين المربرب، لا يشبه كثيرًا أجساد النسوة اللاتي كان يلجأ إليهن في أواخر الليل. كانت بيوت المدينة أسفل التل تراه كل يوم، في أيام كثيرة كان يبحث عن بنايوتي، أحيانًا يراه منسحقًا وسط الطين والتراب، يسخر منه البلطجية وأشباه الرجال، كان يحمله ويزيح الطين من على وجهه، ويغسل مؤخرته جيدًا لعله يقلل من إحساسه بالدنس، ويحس هو بالاختناق. كان يذهب إلى هذه البيوت، ويبحث عن أكبر النساء حجمًا وينام على صدرها ويبكي. وعندما أراد أن يتزوج، قدمن له بنات نحيلات ممصوصات لا يصلحن لأي شيء. كانت هناك امرأة واحدة، ضخمة، كأنها ثلاث نساء في واحدة، كانت تحشر أنفه في صدرها حتى يشم رائحة العرق والصابون الرخيص، وتدخل أصابعها الغليظة في شعره، لحظتها كان ينام على الفور، لا يستيقظ إلا على فضيحة أخرى من فضائح بنايوتي. كان يقول له:

- سوف تصبح مشبوهًا إذا صاحبتني. لن يصدق أحد أنك نظيف.

ولكنه كان صديقه الوحيد. كيف يمكن أن يتركه وفي العالم كل هذه الأوحال؟

قال في صوت أجش متوسل:

- تتزوجينني يا رتيبة؟

شهقت رتيبة في صوت خافت، وقالت:

- أنت في سن جدي يا شنودة أفندي! هل أنت جاد؟

أوشك شنودة أن يبكي. كان يعرف أن المدة الباقية له في المحلج قليلة جدًّا، بعد أيام سوف يصله خطاب مختصر بارد، يخبره أنهم قد استغنوا نهائيًّا عنه، بعد ذلك ليس أمامه إلا أيام المعاش الطويلة.

التفت إلى بهية، وقال في نفس التوسل:

- حدثيها يا عذرا، دعيها تقبل طلبي.

قالت بهية برقة:

- أنت تعبان يا شنودة أفندي، أليس كذلك؟

قال:

- بل أنا ميت يا عذرا، ميت منذ زمن بعيد!

وسار ببطء حتى اختفى وراء رصة البذرة. وهزت رتيبة كتفها وسارت. وظلت بهية واقفة ثم سارت خلفها.

قبل أن يمد الريس عطية يده إلى قطعة العجوة توقف مبهوتًا وهو يغمغم:

- يا نهار أسود، الحاج طلبة.

توقف بقية الأنفار عن الطعام أيضًا. توجهوا بأعينهم في خوف إلى حيث يسير الحاج، وحسن أفندي يتدحرج خلفه. نهض عطية، وأصبح في قفزة واحدة على الأرض. كان قد نسي الخرزانة، وبدا شكله كالحمار الأزعر وهو يقف أمام الحاج هاتفًا:

- يا ألف نهار أبيض يا حاج.

وانحنى ولثم يده بخشوع. وكان الحاج قد مد يده بلامبالاة وسحبها بشرف. أحس الأنفار أن اللقمة قد وقفت في حلوقهم جميعًا. خيَّم عليهم صمت ثقيل. وسار الحاج والاثنان خلفه. وقال حسن متوسلًا:

- لا تزعل نفسك يا حاج، صلِّ على النبي.

- شوف يا حسن، لقد تهاونت معكم كثيرًا، لم يبقَ إلا أن أدفع الفرق من جيبي! لماذا يسبب لي هذا المحلج كل هذا الإزعاج دونًا عن المحالج الأخرى؟

وتدخل عطية ليقول:

- كل شيء سوف يصبح عال يا سيدي الحاج.

ولم يبالِ الحاج حتى بالنظر إليه:

- كل هؤلاء الأنفار سيتحملون وقت العطلة، اخصم كل ساعة، كل دقيقة.

- يا حاج، اليومية لا تقبل القسمة إلا بصعوبة!

- نفِّذ يا حسن، لا أريد اعتراضًا.

- حاضر يا حاج.

- أنفار المكبس عشرة.

- اثنا عشر يا حاج.

- ارفدهم جميعًا.

- يا حاااج!

- هذا شغل يا حسن، يبدو أنك أصبحت غشيمًا لا تعرف كيف تتعامل مع هؤلاء الأوغاد. لا بد أن نحاسب المسؤولين عن عطلة اليوم، بعد ذلك لن يجرؤ المحلج على التعطل.

- الأسطوات يا حاج، ليست لنا سلطة عليهم.

- سأتفق مع المدير. أما أنفار العنبر والتضريبة الكلاب، فسوف أجد حلًّا معهم.

توقف عطية مذعورًا، استند بظهره إلى إحدى البالات، ولم يلاحظ أحد أنه قد تخلف عن السير معهما.

لم يكن حسن أفندي يحب العمال كثيرًا، كان يكره إلحاحهم من أجل القيام بأحقر الأعمال، يكره النظرة المتوسلة التي يتلقون بها أجرهم، يكره أشكالهم المتعبة عندما يملأون مكتبه الضيق في آخر اليومِ،

يكره رائحة عرقهم المختلط بالغبار وهم يمدون أصابعهم بالسراكي المتسخة. ولكن الحاج كان عنيفًا، لا يرحم، ولو قطم أعناقهم اليوم فسوف يكسر عنقه غدًا. ظل يجري خلفه وهو يردد:

- يا حاج.

دون أن يستمع الحاج إليه.

فجأة انفجرت سامية في التقيؤ، كانت لا تزال جالسة على مكتبها، والموظفون قد عادوا إلى مكاتبهم، والمدير يزفر في مكتبه، وفجأة اندفع السائل الأصفر من فم سامية. كانت فتاة جميلة، ولكن ليس وهي بهذه الحالة المروعة، يغمر السائل الماكينة، والمنضدة التي أمامها، ويهبط على ذقنها وصدرها. وبلغ من قوة التقيؤ أن السائل اندفع إلى المكتب المقابل. كل هذا وهي لا تتحرك، لا يبدو عليها أي ألم أو تقلص، لم يبدُ على وجهها أي أعراض. نهض الذين كانوا يقفون خلفها، حاول بعضهم أن يأتي ويهدئها. وقف إبراهيم على باب الغرفة مفزوعًا، خاف أن يسمع المدير الضجة، فعاد إلى مكتبه وحاول مساعدتها على النهوض، ورفع يدها المتشنجة عن حروف الماكينة. كان السائل المقرف كريه الرائحة يغطي كل شيء تقريبًا. وضعوها على أحد المكاتب، كانت ترتعد، أخذت زميلاتها يحاولن مسح المخلفات دون جدوى.

ظل عطية واقفًا مكانه صامتًا مذهولًا. وكان الريس أحمد ما زال يحك ظهره في أكياس القطن، يسير قليلًا، ويحك قليلًا، وعندما رأى وجه عطية المذهول توقف عن الحك، وهو يسأله:

- ماذا حدث؟

- عملها الحاج ابن الكلب!

تفتت قرص الشمس إلى شموس صغيرة متناثرة، كانت تبدو من خلف غصون شجرة الجميز، يتناثر ضوءُها فوق الأكياس وفوق وجه بهية. في هذه اللحظة كانت حلوة، حلوة ومشرقة، ابتسامتها الصغيرة حزينة، ووجنتاها مشربتان بحمرة باهتة. كانت قد أكلت بضع لقيمات صغيرة، بينما قامت رتيبة بالقضاء على معظم الطعام. قالت لها:

- ننزل يا بهية.

لكنها رفضت في شرود. لمت رتيبة بقية الغداء، وهبطت إلى أسفل، وتركتها وحدها، مستكينة في حضن الجميزة الرحب. كانت أعلى من مستوى السور الذي يحيط بالمحلج ويفصله عن المدينة. بيوت واطئة ملتصقة بعضها ببعض، أناس متعبون يسيرون كالموتى. على العكس منهم كانت عمليات البيع والشراء، كلهم يصرخون والمساومات لا تهدأ، كلها تبدو بعيدة عنها، ونسمة رطبة تهب على وجهها. فكت المنديل الأحمر المطرز، وهزت رأسها فتهدلت خصلات شعرها السوداء المغبرة كثيفة طويلة، ولكنها باهتة اللون، يسكنها غبار القطن، ولا تجدي في إزالتها أنواع الصابون الرخيص. أمسكت الخصلات، وتأملت لونها المطفأ، وتمتمت: «يا حسرة يا أولاد».

بدا أن وجه المحلج القاتم يترقبها في تحفز، كم يومًا وكم سنة من عمرها عليها أن تضيع قبل أن تستطيع الإفلات من قبضته؟ متعبة ومقروفة، وتشعر أن العادة توشك أن تدهمها، هي تكره هذه

الأيام، لأن جسدها يظل متعبًا وجائعًا فوق العادة، والأكثر من ذلك هو الشعور بالقرف، كأن الجميع يرون هذه النقاط الحمراء وهي تهبط على فخذيها، تفكر في خوف: «يا لهوي»، لحظتها تتمنى لو هناك شوارع بلا ناس، ناس بلا وجوه. من مكان ما ارتفعت ضجة أصوات مرحة، بنات يغنين معًا، لحظة نادرة يعيشها هذا المكان الذي يأكل زهر القطن والبشر، أصوات الناس ترتفع بدلًا من الآلات، بنات يشعرن أنهن حُرَّات، منطلقات، لا يخشين من لسع الخرزانة، ولا ينحنين أمام الدولاب. كانت أمها تهوى دائمًا أن ترى لها البخت في الفنجان، ولكن كان دائمًا مغشوشًا، لا تكون بقاياه إلا بقع سوداء لا تفسير لها، ثم شَح البُن وارتفع ثمنه، فلم تعد هناك قهوة. ولكن امرأة عجوزًا قالت لها ذات مرة:

- لا تتركي نفسكِ هكذا، سوف تذوبين من فرط الرطوبة.

كانت المرأة صديقة أمها، شاهدتها ذات مرة وهي خالعة ثوبها، شهقت العجوز وبسملت وقالت لها:

- إن ثمنكِ غالٍ، فلا تفرطي في نفسك.

لحظتها لم تفهم بهية، كانت حزينة وخائفة من يد المرأة وهي تسرح على جسدها. قالت لها:

- الرجال حيوانات صغار العقول، ولكنهم يفهمون الشيء الجيد، وهم على استعداد لدفع الثمن المناسب.

صرخت فيها بهية بأن ترفع يدها عنها، ولكن المرأة قالت لها:

- تعالي معي، سأخلصكِ من هذا الهم، أعرف قيمتكِ جيدًا، دعي المساومة لي.

لم تكن هناك فرصة، كانت المرأة تأتيها كأنها في الأحلام، تحكي لها عن العوالم الغريبة، عن صباحات وشموس لا تمزقها سكاكين دولاب الحلج المعقوفة، عن ثيابٍ زاهية لا تحمل غبار القطن. يطل عليها وجه عبد التواب يحملق فيها، يعجبها وجهه وبريق عينيه، لكنه لا يحمل إلا مزيدًا من الغبار والتعب والرغبات الميتة. لماذا ينفلت من حاجز الزمن ويقتحم أحلامها؟ تلح المرأة عليها:

- لا تتركي نفسكِ بالمجان.

تجري بهية، والشوارع تضيق من حولها، تمتلئ بالأعين الواسعة بدون أهداب، بالدكاكين الفقيرة المعتمة، البالوعات على النواحي، براز الأطفال جنب الجدران الترابية، نباح الكلاب في منتصف الليل تستعر في شبق جامح. سألتها أمها:

- ماذا تريدين يا بنت؟

الرجال كثيرون، ولكنهم جُوف. بكت دون أن تعرف الجواب. وفي صباح شتوي لم تكن تستطيع وضع يدها على الدولاب، أخذ الريس أحمد يحك ظهره ويلسعها بالخرزانة، معطوب مثل بقية الرجال. ومن أسفل الرصة نادتها رتيبة:

- هيا بنا يا بهية، هيا نرجع إلى العنبر.

كانت بهية تحس أنها عاجزة عن الحركة، قالت بعد فترة:

- سوف أبقى هنا قليلًا. اذهبي أنتِ.

قالت رتيبة متذمرة:

- هل تريدين أن أعود وحدي؟

- اذهبي مع بقية البنات. سأبقى هنا.

انصرفت رتيبة وهي غاضبة. فردت بهية شعرها بأقصى ما يمكن، أحست بالانتعاش وهبات الهواء تتخلله، أحست في داخلها بشيء ناقص؛ جوع، رغبة، لمسة حنيَّة، لمسة من ذكر. لماذا لا يوجد رجال جيدون؟ لو أن معي مرآة صغيرة! لم يكن ثوبها جديدًا، ولكنها كانت قد رفعته تحت الإبطين، وفردت ثنية الذيل، وأصبح في حالة طيبة. ثم قالت لنفسها في لهجة محددة: «والآن، ما العمل يا بهية؟». كان عليها الآن، في هذه اللحظة، أن تعرف ماذا تريد، وأن تبدأ في السعي نحوه.

التفت الأسطى زكي فجأة، فوجد الحاج طلبة واقفًا على باب غرفة الآلات وهو يحدق فيه، على وجهه ابتسامة غريبة. وحسن أفندي واقف خلفه يجفف وجهه المحتقن. كان زكي يربط إحدى الصواميل، ولكنه عندما شاهد الحاج ترك المفتاح الإنجليزي يسقط من يده، هوى إلى أسفل محدثًا صوتًا كبيرًا جعل حسن أفندي ينتفض. لم يبالِ الحاج، وتقدم خطوة إلى داخل الغرفة. تقدم زكي أيضًا من الحائل المعدني الموجود في أعلى، وصاح فيه:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا حاج؟

قال الحاج في صوت جاف:

- واصل شغلك يا زكي.

قال زكي في وقاحة متعمدة:

- لست في حاجة إلى إرشاداتك يا حاج، ولا أعتقد أن غرفة الآلات تثير اهتمامك!

- كل شيء في المحلج يهمني يا زكي.

- لا يوجد هنا إلا الزيت والتروس والسيور والصواميل، لا يوجد هنا ما تمصه يا حاج، أنت متعود على مص دماء الأنفار!

صاح حسن أفندي:

- تأدَّب يا زكي، ليست هذه الأصول.

ولكن الحاج أزاحه بعيدًا، تقدم خطوة أخرى، كان باردًا كالثلج، قال:

- أكمل يا زكي، خذ راحتك.

أشاح زكي بيده مقروفًا:

- لا راحة لي ما دمت أنت في المحلج.

- هكذا تضع المسألة، أنا أو أنت!

كان زكي عصبيًّا، والحاج يستدرجه إلى متاهة بعيدة. قال زكي:

- أنت لا تهمني يا حاج، إنما يهمني الأنفار الذين تمص دمهم كل دقيقة، وتجعلهم يعملون بنصف الأجر دون أي ضمانات!

كان الحاج ما زال باردًا كالثلج:

- لو أنك تعمل بقدر ما تتكلم يا زكي، لاستفاد الأنفار منك أكثر! الناس يجوعون بسبب عطل الماكينة وليس بسببي.

- الماكينة سوف تدور يا حاج، لن تتوقف.

- لن يبقى إذن إلا لسانك يا زكي، دع الأنفار في حالهم، ولا تتسبب في قطع عيشهم.

- لن أسكت يا حاج، لا بد أن يأخذ الجميع أجرهم الكامل، وإلا سأفضحك أمام الجميع!

- أنا لا أحب الكلام الكثير يا زكي، لا بد أن يتصرف مدير المحلج معك، الشغل لا يحتاج إلى مشاغبين.

واستدار خارجًا وخلفه حسن أفندي.

شاهد بنايوتي الحاج وهو يغادر غرفة الآلات. فكر في نفسه: ما هذا الكائن الغريب؟! عندما كان المحلج تحت إمرته لم يكن يسمح بدخول هذه الأشكال. ولكنه كان مرعوبًا من صوت الصمت الخارج من الغرفة، من ثبات جدرانها التي كانت دائمة الاهتزاز، عندما تطن الماكينة يهتز كل شيء في المحلج وتعود الحياة، الصمت يعني الموت. هؤلاء الأسطوات لا يعرفون أن قوة الآلة مطلقة، عليهم أن يقدموا لها آيات التقديس والاحترام قبل أن يفكروا في فك الصواميل أو شد السيور، إنها تشعر بضآلتهم أمامها، لا يرون فيها إلا كتلًا من الحديد المضمخة بالشحم والزيت. لو أنه يستطيع الحركة لدخل إلى الغرفة وتوسل إليها حتى تدور، سيحدثها باليونانية حتى تفهمه جيدًا، لحظتها سوف تدور ولن تتوقف. يلتفت عبده الشيال وهو يقول:

- لقد طفنا بالمحلج كله، لا بد من الذهاب.

يتمتم بنايوتي:

- فلننتظر قليلًا، ربما تدور.

عاد الريس عطية إلى رصة القطن حيث يجلس بقية الأنفار. كان الريس أحمد يتبعه محني الرأس. والأنفار كفوا عن الأكل، وأخذ الذباب يطفو على تل العجوة دون أن يحاول أحد أن يهشه، لاحظوا أن شارب الريس أصبح مهدلًا ملوثًا بالغبار. تأمل وجوههم، كان يعرف كيف تتلون نضرتهم وتتحول عندما تتصاعد ستائر الغبار ويغرق المخزن رويدًا رويدًا في الظلام، وترتفع كومة القطن فتسد عليهم

النوافذ حتى تصطدم رؤوسهم بالسقف، يضيق المخزن ويصبح أشبه بمقبرة جماعية بيضاء غاية في النصاعة. تلفت عطية حوله في ضيق ورفع الخرزانة وضرب بها أحد الأنفار ضربة خفيفة:

- ما تأكلوا، لماذا توقفتم؟

لم يتحرك أحد، رأوا على وجهه علامات الإحباط، فهبط رذاذ الخوف على قلوبهم، أدركوا أن الحاج سوف يفعلها، سوف يخصم من قروشهم الضئيلة كل لحظات العطلة، وأن الترس قد يتعطل طوال اليوم، وقد يتعطل غدًا، وأيام الشتاء الطويلة لا ترحم. هتف واحد منهم في نبرة محملة بالأسى والخوف:

- والعمل يا أولاد؟

ذبلت نشوة الشمس، لم يبقَ إلا إحساس البرودة. ظل عطية مقعيًا في المنتصف مستندًا إلى خرزانته، وتل العجوة يلمع أمامه دون رغبة. ونظر أحدهم مستندًا إلى الونش الصامت وقال في شوق:

- لو يدور!

ونهض عبد التواب واقفًا، لم يدرِ إلى أين يذهب، ولكنه قفز من فوق البالات، فوجد نفسه في مواجهة الريس أحمد الذي كان يحك ظهره في صمت، ورأى كلٌ منهما الآخر فتذكرا بهية في نفس اللحظة، ورفع أحمد الخرزانة وهوى بها ناحيته وهو يهتف:

- غور من وشي!

أسرع عبد التواب بالجري مبتعدًا، ودون أن يدري وجد نفسه يتجه إلى الشونة.

عندما وصل الحاج إلى مبنى الإدارة كانت هناك ضجة كبيرة، كان جمع من الموظفين يخرجون من الباب حاملين بين أيديهم فتاة مسجاة، رائحتها كريهة إلى درجة أن اضطر الحاج لسد أنفه.

قال أحدهم لحسن أفندي:

- سامية السكرتيرة عندها هبوط حاد.

حملوها بعيدًا. كان وجهها شاحبًا، وثيابها ملوثة. وعندما عبر الحاج الغرفة أدهشه أن الرائحة الكريهة منتشرة في كل مكان. كان إبراهيم مساعد المدير لامباليًا، يجلس هادئًا في مكتبه، ونهض مُرحبًا بالحاج وهو يقوده إلى غرفة المدير.

سلم المدير على الحاج طلبة بتراخٍ رغم ابتسامته. بادره الحاج على الفور:

- والحل؟

كانت أمنية الحاج طلبة أن يصبح المدير بجانبه، أن يتبع مشورته، ولكن المدير الخرع كان مقيدًا باللوائح الإدارية، لذلك فقد رد ردًّا خائبًا وهو يقول:

- لا بد من إجراء تحقيق.

قال الحاج:

- التحقيق على عيني وراسي، ولكننا في حاجة إلى تصرف سريع.

- لقد مللت من الجميع، وضعت أصابعي في الشق!

- من الأسطوات؟

كان المدير محرَجًا لأن الأمر هذه المرة يمس موظفيه، قال:

- الجميع!

تنهد طلبة في ارتياح، كان يؤمن أن المساومة هي أفضل الطرق للتفاهم، قال:

- كل شيء يصفى، أنا كفيل بكل أوغاد المكبس والعنابر وحتى التضريبة. المطالب التي تمس الإدارة تمسني.

حدق فيه المدير، حاول النفاذ خلف ابتسامة الحاج الواسعة، قال:

- والتقارير؟

قال الحاج:

- دعني أتصرف بمعرفتي، أنا عارف خفايا كل شيء، ولن يظهر لك أي أثر في الموضوع. إنهم يلعبون علينا، يعتقدون أن هناك خلافًا بيننا.

- أنا لا يهمني سوى الشغل، الشغل.

- وأنا أيضًا يا سيادة المدير، الشغل، هو الشغل.

- وزكي؟

- اطمئن سيادتك، كل شيء سوف يصبح عال.

- ولو تعطل المحلج؟

- قليل من العطلة لن يضرنا، ولكنه سوف يخلصنا من الكثير من السخافات.

أعطى المدير موافقة صامتة، كان مستعدًّا للاتفاق على أي شيء ينقذه من هذه الورطة.

انغرست عينا شنودة أفندي في مؤخرة رتيبة وهي عائدة، هذه المرَّة لم يجرؤ على الحديث معها، اكتشف أنه لم يكن يحس أمامها بأي إحساس خاص، كان فقط خائفًا من الوحدة، الموت وحيدًا، وتخيل أن جسدها يمكن أن يكون تابوتًا دافئًا لجسده. اختفت المؤخرة، وظل هو نائمًا على ظهره. تذكر رحلته الصباحية إلى الكنيسة الخالية، وكل الأشياء الصغيرة التي تجسِّد وحدته، الكنيسة تكون دائمًا أكثر اتساعًا من المعتاد، وتمثال العذرا الملون يكون أيضًا أكثر حزنًا وشفافية. كان يقف أمامها،

ويطلب أن تعاد إليه شذرات حياته ليعيد تركيبها من جديد، لعله يعيشها، لعله في ذلك اليوم البعيد يهرب من لقاء بنايوتي.

بهية تبكي، تلملم شعرها المبعثر المغبر وتبكي. خلف غصون الجميزة تضاءلت الشموس. تمطت داخلها الشوارع الرطبة والبيوت الواطئة والأحلام المفقودة ولدغات البراغيث. كان هناك وعد مجهول ينتظرها، وعبثًا تحاول الهرب منه. كان الشتاء يروح ويجيء، وهي في كل موسم تقدم نفسها فريسة رخيصة للمحلج وسنوات الغبار. ماذا لو اتبعت نصيحة السيدة العجوز؟ ماذا لو تركتها تساوم على جسدها من أجلها ولا تقبل إلا بالثمن الذي يعجبها؟ نهضت واقفة. حاولت أن تلملم شعرها المبعثر في المنديل، ولكنها لم تطق أي قيود، رأسها يضج بما فيه من أفكار، تركته مبعثرًا وهبطت إلى الطرقة الضيقة التي تحيط بها أكياس البذرة، أهاجت ذرات التراب الناعم أنفها، وابتعد الهواء النقي والشمس. الطرقة ضيقة، مليئة بالأشواك، والبذور التالفة، والنفايات الآدمية. وعندما أسرعت قليلًا وجدت عبد التواب جالسًا في مواجهتها.

هبط عبد التواب من فوق رصة البذرة، سد عليها الطرقة، سد عين الشمس، جسده طويل جاف، عيناه متسعتان تبرقان بشدة، وفمه يفتر عن ابتسامة غريبة، جلبابه ملطخ بالزيت والتراب. كانت بهية متعبة وجائعة إلى درجة الحزن. تقدم عبد التواب فتراجعت، بحثت عن صوتها، ورفعت إصبعها مهددة:

- ولد يا عبد التواب، ابعد ووسع الطريق!

لكنه واصل الاقتراب، أنفاسه اللاهثة مسموعة بشدة، كأنها الشيء الوحيد المؤكد خلال هذا الصمت. كانت هناك شعيرات نافرة تطل من صدره. أحست أن هناك عشرات الخرزانات تهوي على ظهرها، هتفت:

- ابعد من هنا يا ولد!

ضاقت المسافة، قدماها تتراجعان، وقدماه تتقدمان نحوها، تتركان آثارًا غائرة فوق التراب الناعم، وأطراف الأشواك تتحفز، وجاء صوته إليها ممزقًا من فرط الخوف ومن فرط الرغبة:

- عاوزك يا بهية.

تهتف في يأس:

- ابعد عني الله يسترك!

تقدم حتى لم تعد هناك مسافة بينهما، لا جدوى من التراجع وهو بهذا القرب. تشم عرقه، ترى غبار القطن الملتصق عند جذور شعيرات صدره، تحس بأنفاسه الحارة اللزجة على وجهها. كانت مشمئزة ومتعبة، تحس برغبة توَّاقة لشيء لا تدركه، تود أن تغني وتبكي وتشير إلى الشمس والغبار. كان مقبلًا عليها ككابوس، كحلم قديم بلا لون. مدت يدها تمنعه من الاقتراب أكثر:

- ابعد يا ولد!

مد يده فتلامست مع يدها، نضحتا بالعرق والرعدة، والشمس القلقة تذوب بعيدًا عن المنتصف. الأصابع الخمس تلامس الأصابع الخمس، احتكاك اللحم والدم والأعصاب يولد آلاف الشرارات الخفية. كانت تود أن تهرب، أن تبقى، أن تجد مكانًا ظليلًا تحت الشمس، بلا خرزانات ولا دواليب. ضغط عليها، انحشرت أيديهما بين جسديهما، دفعها حتى ألصقها برصة البذرة، تساقط سيل من البذرة فوق رأسيهما، تشابكت اليدان في إصرار، وأحست بهية أنها غير قادرة على الفكاك من أسر جسده.

جلس الحاج طلبة في مكتب حسن أفندي هادئًا بالغ الهدوء، بريئًا شديد البراءة. وأقبل الفرَّاش يخبر زكي أن المدير يريده لأمر مهم. برطم زكي، وألقى المفتاح الإنجليزي من يده، وأخبره أنه سوف يأتي بعد قليل.

كانت الأنفاس المتلاحقة تمتزج بينهما، مال عليها أكثر، غاصت يده في شعرها، مرقت أصابعه في التلافيف المتشابكة. شعرت بالألم يهبط من رأسها إلى قلبها إلى جسدها العاجز عن الحركة وعن المقاومة، أغمضت عينيها في استسلام، وضج وجهها المحمر بالرغبة. ازدادت لزوجة أنفاسه، دفن وجهه في عنقها. أحست خشونة لحيته، وجفاف شفتيه وهما تقبضان على لحمها. لو يمسكها كلها في قبضته، يضغط أضلاعها حتى تكف عن التنفس. كانت تبحث عن قدر أكبر من الألم.

كان شنودة أفندي قد تعب من ضرب عزوز، نهض واقفًا وهو ما زال يسبه. اكتشف أن العذرا أيضًا لم تنصت إليه في أي يوم من الأيام، أهملته وتركته وحيدًا، عاقبته على صلته المشبوهة بالخواجة. أخذ شنودة يعدو كالمجنون فوق رصات القطن والبذرة.

زحفت شفتاه على وجهها، تشربت حبات العرق المالح. كانت تريده، فقبضت على فمه في جوع، وأحست بطعم الجبنة القديمة. اصطدمت أسنانهما في لذة وخوف.

سار زكي وحيدًا، شاهد الأنفار وهم جالسون على الأكياس في عجز. هتفوا به:

- يا أسطى زكي، ماذا نفعل؟

وأوشكوا أن يبكوا.

قال زكي:

- كله خير يا رجالة.

وسار دون أن يعطيهم جوابًا شافيًا. تراجعوا وجلسوا على الأكياس في خيبة أمل.

صرخ عزوز:

- كرش الحاج طلبة واسع.

ضربه الريس عطية ضربة خفيفة وهو يصيح فيه:

- اخرس يا ولد!

أخذ عزوز يبكي.

قالت «لا» خافتة واهنة، ارتعد جسدها كله وهي تحس بأصابعه تدخل من فتحة ثوبها، تسعى فوق جلدها، تتسلل إلى داخلها، غاصت قدماها في التراب، وسقط عليهما المزيد من البذور. ولم يحسا بشيء، لم يحسا حتى بالأشواك الدامية وهي تنغرس في أقدامهما وتخرج ملوثة بالدم. ظل يدفعها وهي متعلقة به، حتى وجدا رصة أكثر انخفاضًا يمكن أن تتيح لهما فرصة.

استدار زكي خلف رصة القطن الزهر في طريقه للإدارة عندما برز أمامه أربعة رجال ضخام لم يرهم من قبل، كان اثنان منهم يقفان أمامه، والآخران يسدان الطريق من خلفه، أحدهم يمسك قضيبًا طويلًا من الحديد، وهتف به في حدة:

- فاكر نفسك زعيم يا ابن الكلب؟!

وقبل أن يتحرك زكي هوى عليه. حاول التراجع، ولكن واحدًا من الخلف أعطاه ضربة قوية في ظهره. وعندما حاول أن يستدير بادره ثالث بضربة أشد على فكه. دارت الدنيا به، وأحس بصوت عظمه كأنه يتكسر. هجم على أحدهم، ولكن الثلاثة تكاثروا عليه، هووا عليه كالغربان الجائعة.

سألت نفسها: «لماذا بلا ثمن؟ أهو الجوع أم اليأس؟». كانت مستلقية فوق الرصة المنخفضة، وجسده ملتصق بها. غابت الشمس للمرة الأولى منذ الصباح خلف سحابة شتوية قاتمة. تركته يفتح صدر ثوبها كله، يمزقه لو أراد، تركته يهوي بفمه على صدرها الناصع، وتطلعت إلى السماء البعيدة فلم ترَ أي زرقة. سُحبٌ قائمة كأكوام القطن، قطن في الأرض وقطن في السماء، من الآن وإلى الأبد سوف تطن الدواليب بلا نهاية، سيحل في جسدها دفء أبدي لا يغادره أبدًا.

شنودة أفندي يتقافز فوق الرصات، قرد عجوز ضال يصرخ: «هيه يا عذرا هيه، لماذا تركتني؟».

حاول زكي أن يتشبث بأي شيء، كان وجهه داميًا، وأسنانه قد تكسرت تقريبًا، وأخذوا الآن يضربونه ضربات مكتومة تحت الضلوع. تأوَّه، كان يغرق في كل لحظة في ظلام مؤلم، والأربعة يتبادلون جسده كالخرقة البالية.

اختفت الشمس والسماء، وانفتح عالم بلا حدود، لم تكن تدري كيف تتصرف، ولم يكن هو أيضًا، ولكن قوة الاندفاع الغريزي كانت تقودهما معًا. كان يريد أن يُقبِّل كل قطعة من جسدها، وكانت هي تحس بالفرح والخجل وهي تستجيب رغمًا عنها لكل هذه اللمسات.

صعد الريس أحمد إلى الرصة، جلس وظهره إلى الأنفار، ثم خلع جلبابه. بدت على ظهره آثار حمراء طويلة وغائرة، بعضها كان حديثًا لأنه كان ما زال قانيًا، وبعضها كان قديمًا داكن اللون، كأن هناك عشرات الخرزانات كانت تهوي على ظهره ليلًا ونهارًا. قالوا:

- حرام يا ريس أحمد!

قال في استسلام:

- أمر الله.

كان عبد التواب مدهوشًا، لم يكن يظن أن جسدها بهذا البياض. سطح البذرة خشن ومؤلم، أطراف مدببة تدخل ظهرها تبعث داخلها الألم ممتزجًا بالنشوة. لم تكن لديهما الجرأة على تبادل أي كلمة، لا معنى لأي كلام، وفي الحقيقة لم يكونا قبل الآن قد تحدثا حديثًا ذا بال.

ارتمى زكي خائرًا على الأرض، كانت عيناه مبحلقتين نحوهم، وجسده الدامي غير قادر على أي حركة. قال أحدهم في سخرية:

- هل اكتفيت يا زعيم؟

فتح فمه ولم يصدر عنه سوى تأوه، لم يغب عن وعيه، تحمل جرعته من الألم كاملة. لم يسمعوا صوته وهو يتأوه. لم يتوسل إليهم أن يخففوا من عنفوان ضرباتهم الوحشية. ظلوا يضربونه وهو يحاول دائمًا أن يقف على قدميه، وزاد هذا من مقدار شراستهم ضده. وعندما ارتمى على الأرض أخيرًا مثل خرقة بالية، كانوا يحسون بالإنهاك، بل أحس الرجل الذي كان يمسك في يده قضيبًا حديديًّا أنه لن يستطيع أن يضربه مرة ثانية.

كان عبد التواب لا يعرف إلى أي مدى يمكن أن يصل معها! إلى متى تبقى الدواليب معطلة والشونة ساكنة والشمس غائبة! كانت أنفاسه في أذنها لهبًا من النار الحارقة، كان خفيفًا مثل الريشة، ثقيلًا بحيث لا يمكنها الإفلات منه. وشنودة يعدو فوق الأكياس، أحس بالتعب عندما وصل إلى الرصة المنخفضة. كانا في الأسفل، ولعبة الحياة في قمة توهجها. أقعى جالسًا في صمت مبهور، رسم إشارة الصليب على صدره: «يا رب ارحم». تمدد على بطنه وهو ما زال يركز عينيه عليهما.

قال حسن أفندي:

- كل شيء تمام يا حاج.

قال الحاج وهو يغسل يده:

- أنا لم أرَ شيئًا. لا أعرف حتى هؤلاء الرجال.

قال حسن أفندي:

- طبعًا يا حاج.

مد بنايوتي يده وأمسك مقبض باب السيارة، كان طيعًا فانفتح على الفور. وقبل أن يفطن عبده الشيال لما يحدث، مال الخواجة بجسده وأصبح خارج السيارة، ليس على قدميه ولكن ملقى على الأرض. وعندما بدأ يزحف لاهثًا، فطن الشيال للجسد الزاحف فوق الطين، هتف وهو يهبط من السيارة:

- نهار أسود يا خواجة! أين تذهب؟

قال بنايوتي والدموع والأوساخ تغطي وجهه:

- الماكينة تنتظرني، أنا الوحيد القادر على تشغيلها.

أي جنون هذا؟ فكر الشيال وهو يحاول رفعه.

- فات الأوان يا خواجة، أنت عاجز عن تشغيل جسدك، كيف تشغل ماكينة؟!

دفن بنايوتي رأسه في الطين وأخذ يتنفس بصعوبة، فكر في أسى: «هنا قبري!».

اتسعت عينا شنودة أفندي: «يا رب ارحم». أدرك فجأة أنها بهية، من كل بنات المحلج، من كل البنات القذرات الممصوصات الرخيصات الشبيهات بالكلاب تكون هي بهية، وحدها، وليس هناك غيرها. نهض مفزوعًا وهو يصرخ، أخذ يعدو فوق الرصات: «يا عذرا، بهية، يا عذرا». لقد خُدع من جديد. «بهية على القطن الأبيض المقدس، تمارس الجنس مع ولد كحيان وصايع! ألا توجد قوى تنقذها بدلًا من الاختباء خلف السحب في وقار زائف؟». وقع شنودة أكثر من مرة، نهض أكثر من مرة، أحس بالموت يرافقه، كأنه كان ينتظر هذه الإشارة حتى يأتي الموت يأخذ بيده، ويقفز معه من فوق الرصات. تسربت كل أيام عمره. «يا رب ارحم». لم يكن يعرف أن الشونة بهذا الاتساع، والسماء بهذه الزرقة، وفخذ بهية بهذا البياض. وصل إلى نهاية الشونة، وقفز إلى الأرض، خارت قواه في منتصف الممر الرئيسي للمحلج، جثا على رُكبتيه، وفرد ذراعيه، وهو يزعق: «يا رب ارحم». أطل عليه الموظفون من خلف قضبان النوافذ، والأنفار من فوق البالات. وقف الحاج، وحسن أفندي، وأقبل العتالون والحمَّالون والقبانية، وهو يصرخ في صوت عالٍ: «هيه يا عذرا هيه، بهية يا عذرا هيه». ولم يفهم أحد شيئًا في البداية، ولكنه ظل يواصل الصراخ، ويشير إلى الشونة: «بهية يا عذرا، وواحد وسخ من الأنفار. يا رب ارحم». هبَّ الجميع، من تلك الإشارات الغامضة فهموا كل شيء، كأنهم كانوا يتوقعون حدوثه. اندفعوا أيضًا إلى الشونة كأنهم يعرفون المكان.

وصرخ الحاج في لوعة حقيقية:

- نجاسة! نجاسة!

وصرخ حسن أفندي وهو يدفع الرجال:

- هم سبب عطلة المحلج.

بكل حنق لحظات التعطل، بكل الخوف من انقطاع الأجر، اندفعوا إلى الشونة، يدمدمون في غضب، ويصرخون في جوع، عبروا الطرقات الضيقة، قفزوا فوق الرصات، ساروا من مختلف الجهات حتى لا يفلت منهم أحد، كان هديرهم عاليًا، أعلى من آلات المحلج لو عادت إلى الدوران.

كانت بهية تسوي ثيابها، تحاول أن تجمع شعرها المبعثر، وعبد التواب مذعورًا مثل فأر حقيقي. أحاطوا بهما من كل ناحية، لم يشاهدوهما ساعة الفعل، ولكن مشهدهما كان يوحي بكل شيء، ذلك الإحساس الغريب من النشوة الذي يبدو من خلف نظرة الخوف المباغت. توقف الهدير، وساد صمت قاسٍ مليء بالتحفز. وصرخ الحاج كأنه يعلن صيحة الجهاد:

- نجاسة!

وانقضوا عليهما، انهالوا بالصفع على وجه بهية. وحين حاول عبد التواب أن يحميها جذبوه بعيدًا وأخذوا يخمشون وجهه.

وهمس حسن أفندي:

- يا حاج، سوف يقتلونهما، لسنا في حاجة إلى مزيد من المشاكل.

وكان الحاج منتشيًا لا يحتاج إلى أي نوع من النصح، فصرخ فيهم:

- خذوا الفاجرة بعيدًا! أما هذا الولد فسوف أعاقبه بنفسي!

سحبوا بهية بقسوة بعيدًا، وأمسكوا عبد التواب، ربطوا حبلًا حول قدميه. صرخ الحاج وقد زادت نشوته:

- علقوه فوق الشجرة!

ربطوا الحبل في أحد الفروع العالية، جذبوه بقوة. صرخ عبد التواب وجسده يرتطم بالأرض، وهو يرتفع من قدميه إلى أعلى، أصبح معلقًا، قدماه محتقنتان بالدماء، ورأسه إلى أسفل يكاد يلامس الأرض. وأمسك الحاج الخرزانة من يد الريس عطية، والخرزانة الأخرى من يد الريس أحمد، وبدأ يهوي على جسد عبد التواب وهو يصيح:

- قطعت عيش الرجال يا نجس يا ابن الكلب!

وهوت الخرزانات على لحم عبد التواب تمزقه. صرخ عبد التواب من الألم، وارتعدت بهية وهي تسير مبتعدة. كان صراخه هائلًا، يمزق صمت الشونة، يثير الفزع في قلب الطيور العابرة. وبكت بهية في صمت، وحاولت أن تلتفت لتراه للمرة الأخيرة، ولكنهم دفعوها بقوة حتى أوشكت أن تتكفئ على وجهها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم مصري جاف

الصبح

حقول القطن شاسعة ومضيئة، تختفي الديدان تحت غلالة ناعمة من البياض، وغباشي هائج وسط البنات. زعقت خضرة، نزعت نهدها اللين المتكور من بين أصابعه، وهي تصيح فيه:

- سأصرخ بأعلى صوتي، وألم عليك البلد والله!

ضحك غباشي دون أن يبدو عليه أنه يبالي بالتهديد. انسال خيط رفيع لزج من اللعاب على شفته السفلى. واصل التقافز أمامها، كان معظم جسده عاريًا لا تستره إلا خرق ممزقة. من يصدق أنه ابن مالك هذه الأرض! رفعت خضرة أحد عيدان الحطب مهددة:

- وسأقول لأبيك أيضًا.

ضحكت بقية البنات وهن يقمن بجمع لوز القطن، لكنهن ابتعدن حذرات عن طريقه.

كانت الشمس صاعدة، محملة بغبار الشروق، تنزف صهدًا وحنينًا ورغبة. يُولد صباح اليوم الغريب محملًا بكل أحزان الأيام الفائتة. نظرت بدرية من نافذة حجرتها، شاهدت الأب العجوز جالسًا تحت شجرة الجميز، على كتفه الحِرام الصوفي الثقيل، يخفي تحته وهن البدن وندوب الأيام، وجهه متغضن، ودائم الشرود، يتأمل الأفق البعيد المشبع بالحمرة والانتظار. لم تكن الأم العجوز جالسة بجانبه كعادتها، لعلها تعبت من الاستناد إلى لحاء الشجرة، ولكنها ستعود، لتجلس بجانبه، يلتصقان معًا ويشردان بعيدًا.

لم تعد بدرية تطيق البيت، كانت تريد أن تسير لأبعد ما تستطيع. هَم الصباح ثقيل، والبيت مقفر، وسرير الزفاف ما زال محتفظًا بنصاعته، لم تعركه الأجساد، ولم تترك عليه رائحة عرقها، صورة الغائب معلّقة شاحبة فوق الجدار. بلا دفء ولا رائحة، تهبط إلى أسفل الدار، وتعبر الحوش الخالي. الجاموسة العُشر ترمق الجميع في حذر، وتتوارى كلما اقترب أحد من باب الزريبة. والحمام يهدل بصوت رتيب، بدووور.. بدووور. الكلاب منزوية بعد ليل أرق. وضعت بدرية يدها فوق ظهر الجاموسة، أحست دفئها الخصب يتسرب داخلها. جلست على القش، أخرجت من فتحة ثوبها آخر خطاب وصل إليها منه، كانت تعرف القليل من الكلمات، لمحت اسمها في السطر الثالث والعاشر، ثم لمحته مع آخر كلمة، ولم تفهم غير ذلك شيئًا. لماذا يصر على أن يرسل إليها هذا الورق ولا يحضر بنفسه؟ في وجوده لن تحتاج إلى قراءة ولا إلى كتابة، يكفي أن تتحسس جسده وأضلاع صدره البارزة، حتى تهدأ حرقتها.

تأملت ثياب غباشي، كانت ملقاة في أحد أركان الزريبة، يرعى فيها قمل الصيف الباهت، تظل هكذا دون مساس حتى يأتي غباشي، يفركها في الماء، يعصرها حتى توشك على التمزق. لماذا لم يأخذوا هذا الأهبل ويتركوا لها زوجها العاقل الرزين؟! كانت نقوش الزفاف قد بدأت تبهت من فوق الجدران، وكذلك حناء العرس وفرحة القلب. خرجت مبتعدة عن المنزل، سارت وحدها على الجسر

الترابي المبلل، عبرت الترعة المليئة بالطحالب والماء الراكد والضفدع النافق، ولم تدرِ إلى أين تذهب.

قال الريس عبد المنعم متبرمًا:

- هذا يوم أغبر، لن نجمع شيئًا في نهارك المهبب!

كان غباشي قد ألقى بالبنت خضرة فوق الأرض وبرك فوقها، وأدخل يده سريعًا في فتحة ثوبها، ولكن الريس عبد المنعم جذبه من قفاه وأبعده عنها. نهضت البنت في تكاسل، لم تتكلم، ولكن وجهها كان محتقنًا وعلى وشك البكاء. سبقتها بقية البنات، وبدأن في رص صفوف جديدة، سيجمعن أكثر منها، ولن تأخذ يوميتها كاملة، إضافة إلى أنها لن تسلم من ألسنتهن. كان صدرها ممتلئًا بالجروح الصغيرة من آثار أصابعه، والكيماوي يلهبها. كان الريس عبد المنعم قد أخذ غباشي وسار به بعيدًا، ولكنها كانت تعرف أنه سيعود قبل أن ينتهي هذا اليوم. لن تبالي، حتى لو برك فوقها، المهم أن تأخذ أجرها اليومي كاملًا. كان الريس عبد المنعم يواصل سحبه بعيدًا وهو يقول له:

- يا غباشي عيب! هؤلاء أنفار غلابة وولاد ناس يا أخي! جاءوا من أجل الرزق وليس المسخرة! العام القادم لن تجد من يجرؤ على جمع القطن عندكم.

ضحك غباشي، أشار إلى قرص الشمس، وكور يده وهو يقول:

- صدر البنت مكور مثل هذه.

ابتسم عبد المنعم، لكنه ظل متضايقًا:

- عيب والله! أخوك لم يكن مثلك أبدًا، كان شابًّا رزينًا. لماذا لا يريحك الحاج ويزوجك؟

ابتسم غباشي في سرور وهو يقول:

- أتزوج خضرة، صدر خضرة.

- حتى هذه الغلبانة، أشك أنها قد ترضى بك.

وقفت بدرية على رأس الحقل، حدقت فيهم بعينين غائرتين وبدت كأنها لا تراهم. ولكن الريس أشار نحوها بعصاه:

- جئتِ في وقتك يا ست بدرية، صهرك غباشي لا يريد أن يهدأ.

تراجع غباشي، شملت جسده الفحل رعدة طفولية خائفة، رغم أن بدرية كانت تنظر إليه في استغراب، دون تهديد ودون أن تشعر بوجوده الفعلي. تأملت القطن والحقل والبنات، لا شيء قد تغير، لا أحد يعاني من الافتقاد إلا هي.

كان الريس عبد المنعم قد أمسك بمعصم غباشي وأخذ يدفعه نحوها:

- لا يريد أن يترك بنتًا في حالها، ولا يكف عن مطاردتهن. تصرفي معه!

أفلت غباشي من يده، جرى سريعًا حتى اختفى بين الدغل الأبيض، كور جسده وسط عيدان القطن حتى لا تراه.

ضحك عبد المنعم بصوت أجش:

- عيِّل والله، يتصرف مثل العيال الصغار!

ضحكت بدرية دون بهجة. اقترب الريس عبد المنعم منها، رأى صدرها النافر، وبضعًا من جدائل شعرها من خلف الطرحة، كان يريد فقط أن يطيل معها الحديث، قال:

- أنتِ الوحيدة التي يعمل حسابها ويخاف منها، ماذا تفعلين له يا ست بدرية؟

تكلمت للمرة الأولى منذ الصباح:

- لا أفعل له شيئًا، ربما لأنني زوجة أخيه الأكبر، إنه يخاف من أشياء كثيرة.

- كلَّا، أنتِ فقط من يخشاه، إنه قادر على مواجهة الجن والعفاريت، ولكنه لا يجرؤ على مواجهة نظرة واحدة من عينيكِ، كل البلد تعرف ذلك.

كان قد اقترب أكثر، ضاق الفراغ الذي بينهما، وبدأت تشم رائحته، رائحة برية لرجل جائع. تراجعت خطوتين إلى الخلف، دون وعي قطفت بيدها بضعًا من أزهار القطن، ضمتها إلى صدرها. كان عبد المنعم يتكلم وبياض الأزهار الحزينة يشدها بعيدًا إلى وشيش النهر الساجي على رأس الغيط، والسرير الخالي في الليل الطويل:

- ما زلتِ حزينة يا ست بدرية! والله أنتِ لا تستحقين هذا الحزن!

أخذ يقترب منها من جديد. وضعت أزهار القطن بينها وبينه.

- ألم تصلكم أخبار منه بعد؟ هذا الأهبل لا يدري إن كان أخوه حاضرًا أم غائبًا!

فكرت في نفسها: غباشي أهبل يخشاني، ويخشاه ألف رجل. غباشي أخو يوسف، يوسف ذهب ولكن غباشي باقٍ. القرية برجالها وبيوتها وبهائمها موجودة، رابضة تحت النخل وعلى حافة النهر، لم تتزحزح منذ آلاف السنين، لم تقدر على بيوتها الطينية المتلاصقة لا الفيضانات ولا الحرائق، ولم يؤثر في أهلها لا الأوبئة ولا المجاعة، الكل راسخ الجذور إلا يوسف الغائب!

يأتي إليها صوت الريس عبد المنعم من بعيد:

- ظلمتِ نفسكِ بهذا الزواج يا ست بدرية، أنتِ تستحقين رجلًا يجلس تحت قدميكِ طوال الوقت!

«أو يبرك فوقها»، هذا ما يفكر فيه، وهو يقف أقرب ما يكون منها. التفتت إليه، وبدأت تراه: الوجه الداكن، والشارب المبروم، والطاقية المعوجة، والأسنان الصفراء من آثار المعسل والشاي الثقيل. يوسف كان أفضل من ذلك كله، ولكن ملامحه تصبح باهتة أكثر وأكثر. تهب ريح غريبة عبر أزهار القطن وأشواك الحطب، بينما يضع عبد المنعم يده على ذراعها، يلف أصابعه حولها، يضغط عليها

متظاهرًا بالتعطف. بينما يوشك أن يلمس حافة نهدها، ارتعد جسدها، كان لحمها ينضغط، والكلمات تتحول إلى نبض لاسع:

- فاكرة زمان يا ست بدرية، عندما كنا صغارًا؟ كان بيننا استلطاف، كنتِ تلعبين معي في غيط الذرة.

يمسك جديلة شعرها. الشمس غامقة، الأنفار يتضاحكون بعيدًا، وعين الجاموسة العُشر تمتلئ خوفًا، الأب العجوز يحدق في الأفق، ويوسف هل حلق شاربه كما قال في المرة الأخيرة؟ أي نوع من النساء يعاشر؟ نزعت بدرية ذراعها، واجهته بشراسة:

- ابعد إيدك يا نجس!

يرتد مندهشًا، وليس خائفًا:

- الله يا ست بدرية! كنا نتحدث فقط، هوَّ الكلام حُرُم؟!

جرت من أمامه، تخِزها الأعين وأشواك الحطب، يضيق صدرها كأن لا هواء. الحقل أبيض كالسهام، تلاحقها الأسنان الصفراء والشارب الكث. ماذا يجدي الجري عندما يحط ليل الشتاء الطويل؟ تكسرت العيدان تحت قدميها، كانت تسعى نحو النهر، إلى رائحته الندية، تراجع كل شيء خلف ظهرها، أصبح بينها وبين الجمع مسافات كبيرة من الاشمئزاز.

توقفت بدرية على حافة النهر وهي تحاول التقاط أنفاسها، استكانت جالسة بجانب شجرة صفصاف، يحيط بها دغل من الحشائش يحجبها عن الطريق. تستطيع الآن أن تأخذ راحتها دون أن يزعجها أحد. تأملت الماء وهو يسرح ناعمًا، يقشعر عن موجات بطيئة متكسرة. لماذا إذن هذه الفورة التي تعصف بجسدها؟ هل يمكن أن يأتي يوسف ذات لحظة من خلف انحناءة النهر، ويهمس في أذنها: «انتظرتِ طويلًا يا بدرية، البسي قميصكِ الأحمر، واغسلي كعبيكِ، وهلمي للعشاء»؟

كانت الريح تغمغم وسط أغصان الصفصافة. أزاحت طرحتها، فكت منديل رأسها، انفرد شعرها الطويل الناعم، مالت برأسها وغمسته في النهر، أي شيء يبرد جسدها، تصاعدت في داخلها نشوة مرتعدة، ازداد تنفسها، وظلت تحدق في الماء وتشم رائحته. وهي صغيرة ضربتها أمها أكثر من مرة، عرفت أنها تأتي إلى هذا المكان لتسبح عاريةً. لم تنسَ بعدُ طعم المتع الخفية الصغيرة، ولم ينسَ النهر تفاصيل جسدها، كان يضحك كلما ضمتها أمواجه. تزيح بدرية الخصلات المتهدلة من على وجهها، ويتساقط حب المطر، عصرت شعرها وكومته خلف رأسها، واجهتها السماء الواسعة والسحب الهشة. هل يمكن أن يأتي يوسف راكبًا سحابة؟

فجأة تبدَّد سكون المكان، ارتفع صوت نشيج خشن. رفعت رأسها، رأت غباشي وهو يتخبط وسط الحشائش، ووجهه مغطى بغبار الكيماوي المائل إلى الصفرة، كان يدعك عينيه، ويبكي بصوت عالٍ، اقترب منها دون أن يراها. كانت تريد أن تتجاهله، ولكنه كان متجهًا بسرعة نحو النهر، يوشك أن يسقط فيه دون أن يراه. نهضت وهي تهتف فيه:

- ولد يا غباشي! ما لك يا ولد؟!

توقف خائفًا، تلفت حوله ليحدد مصدر صوتها. اقتربت منه، شدته بعيدًا قبل أن ينزلق في الماء. نهنه بصوت باكٍ:

- البنت خضرة، الكيماوي دخل عيني.

كان يتألم إلى درجة أنسته خوفه منها. كانت متبرمة، مقروفة منه ومن أفعاله:

- حمار وأهبل! كيف تترك البنات يفعلن بك هذا؟!

ازدادت حدة بكائه. وضعت يدها على رأسه، وأخذت تدفعه إلى الماء. اعتقد أنها تحاول إغراقه، فأخذ يصيح باكيًا:

- والنبي لا، حرمت خلاص يا بدرية!

ضغطت على رأسه، غيبته في الماء لدقيقة. رفع رأسه وهو يشهق، حاول التملص، ولكنها قبضت على شعره، صاح باكيًا:

- والنبي لا يا بدرية، خلِّ خضرة تغرق أحسن، أنا أهبل!

انفجرت بدرية ضاحكة فجأة، وضغطت على رأسه من جديد. كانت تحس بخشونة شعره، يبعث في داخلها نبضات غريبة. كانت تغسل شعر يوسف بالصابون، وكان يُستثار حين تدخل أصابعها في خصلاته. لا يشبه هذا الولد الأهبل قذر الرائحة، كأنه من عجينة أخرى، لو أنها تملك أن تلقيه في النهر حتى يتخلص جسده من هذه الأوساخ، ربما تذوب بلاهته، ويخرج لها شخصًا آخر يشبه يوسف ولو قليلًا. ظلت تضغط على رأسه، تضحك وهي تراه يشهق ويحاول أن يتشبث بالهواء. تخلص وجهه من الكيماوي شيئًا فشيئًا، بدا نظيفًا كما لم تره قَطُّ. هذا الأنف يشبه أنف يوسف، نفس أنف الأم العجوز. تركت شعره. ارتد إلى الخلف غير مصدق أنه نجا من قبضتها، فتح عينيه ونظر إليها متوجسًا. كأنما كانت تترقب هذه اللحظة، تأملت سواد عينيه، وأطراف رموشه المقوسة، وحاجبيه الكثيفين يكادان أن يتصلا فوق عينيه، وللمرة الأولى ترى شفتيه المتدليتين بلا لعاب. لم يكن هناك إلا صوت النهر، مبحوح عميق متواصل، تطفو عليه نباتات متشابكة. وضعت يدها على وجهه، مسحت بقايا الكيماوي وقطرات الماء. كان جلده ساخنًا رغم برودة النهر، جلد حي، حاضر وموجود تحت ملمسها. لم ترفع أصابعها، وظل هو صامتًا، خائفًا مبهورًا. بحثت عن كلمة تقولها، ولكنها كانت تجذب وجهه إليها، تنام بخدها على خده الخشن، تغرس أصابعها في كتفه حتى تُهدئ من رعدة جسدها. يا رب! إنها جائعة، منذ أن سافر يوسف لم تهنأ لها لقمة، ولم يهدأ لها نفس، الآن، لا يوجد إلا غباشي، أهبل وأهوج كحيوان بري، ولكنه موجود مثل النهر والشمس والجاموسة العُشر. يده تمتد، يتحسس ظهرها في تردد، وعندما لا يجد منها ممانعة يشدها نحوه، تدخل رغمًا عنها في دفء جسده.

شفتاها فوق جلد وجهه المبلل الحي، تنقبضان عليه، تغمغم دون أن تفلت ثنية جلده:

- يا أهبل يا ابن الكلب! يا أهبل يا ابن الكلب!

أنفاسه تدخل أنفها، رائحته ثقيلة تملأها حتى النخاع. يشدها إليه أكثر، يبدو كأنه غائب عن الوعي، صدره قليل الشعر لكنه محدد العضلات، تتحسسه بأصابعها وباطن كفها، تحس بقلبه وهو يدق في

جدار صدره طائرًا محبوسًا. يميل عليها، ويضع ثقله فوقها. تشعر كأن الأرض تغوص من تحتها، تتراخى، لم تتخيل أن تصل قَطٌّ إلى هذه اللحظة، أن يذوب جسدها تحت هذا الأهبل، لكنها كانت ساكنة في أعماقها، تنمو عبر لحظات الجفاف وليالي الوحدة. أحست بأصابعه وهي تتسلل على جسدها، وهو يُدخلها في فتحة ثوبها، يقبض على نهدها المتكور، يصيح في فرح، يحس به مكورًا وناعمًا ودافئًا، يستكين في يده دون أن تحاول انتزاعه منه، أو ترش الكيماوي في عينيه، ولكنها تتأوه، ترتجف، وتعض وجهه، يمسك بالحلمة المتصلبة المشرئبة ويفركها بين أصابعه، تنتفض وتوقن أنه لا رجعة.

نباتات الحلفا على الشاطئ تُكوِّن سياجًا عاليًا، نباتات شيطانية تتحمل البرد والجفاف، وتغرس جذورها وتتشابك من أجل مثل هذه اللحظة. كانت الأرض مليئة بالقواقع الفارغة وقطع الزجاج الصغيرة اللامعة، ولكنها خلعت ثوبها وفردته على الأرض. طائر وحيد كان يقف فوق غصن الصفصافة، شاهد ما جرى فطار مندفعًا نحو فضاء النهر، دون صوت، دون أن يستطيع البوح. خلعت قميصها، أصبحت عارية تمامًا، جسد أبيض يتضوع في ضوء الشمس. تأملها غباشي، كان حلقه جافًّا، لا ينزل منه أي لعاب، لم يعد يسمع للنهر وشيشًا. فكر غباشي أنها عندما تكون مرتدية ملابسها تبدو نحيفة، ولكن جسدها العاري الآن يحتوي على كل النساء. مد يده في تبتل، تحسس فخذها صاعدًا إلى أعلى، مستديرًا مع انحناءاته، كانت تختلف تمامًا عن أي شيء رآه، عن البنت خضرة، وعن جاموستهم العُشر، وعن الحِمارة. دفن وجهه في جسدها، يشتم رائحته الحارة مختلطة برائحة النهر. أدرك أن اللسان لم يُخلق فقط لتذوق الطعام.

لو مر عابر على جسر النهر، فلاح أو دابة، لرأى جسديهما، ولكن من يهتم؟! كل شيء ذهب بعيدًا ولم يعد له وجود، خفت أنفاس الأرض، وسكنت الأمواج، وتجمدت أغصان الصفصافة، وغباشي يغرق في جسدها أكثر، يكتشف دفئه ونضارته ومذاقه المسكر، يحط عليها ويرتاح وقد وجد مستقره، ينأى عن أجساد نساء القرية الضامرات اللواتي افترسنه قديمًا دون أن يعطينه شيئًا، عن الأطفال ذوي المؤخرات العارية وهم يسعون خلفه ويقذفونه بالحجارة، عن صحبة البهائم وهي تلوك العلف والبرسيم، يرتاح على بطن بدرية الذي يبدو مثل قبة السماء، يضع إصبعه في سُرتها، ثم يلتصق بها، يلتحمان في عرق ساخن، تتأوه ولا يكف جسدها عن طلب المزيد، تقبض عليه بأعضائها وتجعله طوعًا لها.

كانت فوقه، وكانت تحته، وكانت بجانبه، وأصبح جسداهما بعيدين عن الثوب المفرود، واكتسيا بتراب النهر، تخِزهما القواقع الضالة وقطع الزجاج، تتأرجح الشمس خلف ظهره، يتوقف قليلًا فتلتقط أنفاسها، تتفاجأ أنها تضحك ضحكًا ناعمًا كهديل الحمام، يتوصل غباشي بشكل غريزي إلى ضبط إيقاع جسديهما، يتداخلان ويتباعدان، يمارسان ذلك في انسياب عذب. خفت حدة الجوع، وبدأت طقوس المودة، ما زال هناك وقت للنهر والصفصافة والطيور المسافرة ليشاهدوا كل شيء ويُكسبوه شرعية التواصل. كانت بدرية تضحك لأن طعم التراب المبلل كان حلوًا، كذلك وخز القواقع وحفيف الأشواك. وكان هو يضحك لأنه وهو فوقها قد ارتفع فوق أعلى شيء في البلد، وأصبحت قامته أعلى من المأمور والعمدة وشيخ الغفر، ولأنه لا الأب الذي يذهب بصره رويدًا، ولا الأم التي يجف الدم في عروقها، ولا يوسف الغائب حتى لو استعجل في المجيء، يقدرون جميعًا على انتزاع هذا الجسد

الحي النابض منه، لا يمكن أن يوقفوهما عن الضحك والتلامس والانتفاض إذ تحين اللحظة، ولكن لم يزل هناك وقت.

ومن بعيد، من عند المنحنى الغامض للنهر، برز قارب غريب، على ظهره صياد وحيد يغني لنفسه، عن الزمن وعن فرقة الأحباب. ملاح صعيدي عجوز، ينساب صوته الأجش متكسرًا على سطح النهر. توقفا عن الضحك، أنصتا، قالت في خوف حقيقي:

- يوسف!

انطلق الصوت من فمها، وتحول الكون فجأة إلى فراغ موحش، فأخذ الصدى يردده في إصرار: «يوسف، يوسف، يوسف».

اختلط صدى الاسم بالماء والتراب، تحول خوفها إلى رعب، ودبت في جسدها برودة مفاجئة. دمدم غباشي، مثل حيوان انتُزع منه طعامه، ظل باركًا فوقها بجسد متجمد. ظلت بدرية تردد الاسم بلا وعي، وصوت المغني العجوز لا يكف عن الاقتراب. حاولت أن تكف عن ترديد الاسم، وأن تدفعه من فوقها، لكنه كان يلهث، يدمدم. غرس أظافره في لحمها، ودعكها في الأرض بقسوة، أرادت أن تصرخ من الألم، ولكنها أخذت تردد:

- يوسف، يوسف.

استرد الكون كل أصواته، تصاعد مع صوت الملاح المسافر صوت البنات والأنفار والطيور المفزوعة، وخرجت أظافر غباشي ملوثة بالدم. نهض واقفًا، رفع كفيه إلى أعلى يريهما للشمس، كان جسده فارغًا، قاسيًا، زعق مرة أخرى ثم انطلق يركض، عاريًا، وسط الحقول.

الظهر

في توت، يعتدل الليل والنهار، وتتوازن الظلمة والضوء، تتفتق أزهار القطن متوهجة كندف الثلج، تنمو عيدان الحلبة الخجلى وتُكوِّن كثبانًا زاهية الخضرة، تُطلق فحول الأغنام، وتثغو الماعز في جذل، يُحصد الأرز ويخلع صفرته القاتمة عن قلب شاهق البياض، تتوالد الأسماك وتكف عن السفر إلى أعلى الأنهار، تشرئب أشواك أشجار الليمون وتجرح من يقترب منها، ولا يتوازن الحزن والفرح ولا الغياب والانتظار.

في ظل الجميزة العجوز ما زال الأب جالسًا والأم ملتصقة بجانبه، ينظران إلى الأفق البعيد بأعين غائمة، تتوالى الأيام دون أن يستطيعا رؤيتها وهي تبدِّل طابعها، ولكنهما يحسان بالزمن مع توالي روائح الزرع والقلع والحصاد، ولكن الانتظار هو الانتظار نفسه.

يقول الرجل العجوز:

- أنا بردان.

تُحضر المرأة عباءة أخرى وتضعها فوق كاهله، يزداد انحناء جسده، تلتصق به مرة أخرى، يسألها عما تراه أمامها، تقول:

- لا شيء، بقايا عيدان الحطب الجرداء، والأرض الخالية تنتظر بذور البرسيم.

يسأل:

- ولا أحد قادم؟

- لا، لا أحد قادم.

يقول في تأكيد:

- حان ميعاد قدومه.

تقول في أسى:

- حان ميعاد قدومه أكثر من مرة، يا خوف قلبي أن يكون قد نسي طريق العودة!

غبار الظهيرة كثيف، يشكل أطياف الأهل والأحباب، الغبار يجسد كل الهواجس. يوسف بعيد، خلف أفق يتراجع كل يوم، يغيب وسط الكلال، ذهب منذ زمن، في أول أمشير، أي أمشير؟ لم يعد أحد يحصي، ولكنه رحل تمامًا بعد موسم مولد النبي، لم تكن الذرة العويجة قد كبرت، ولكن القرع كان آخذًا في النضوج، وأزهاره البرتقالية لها رائحة نفاذة. شاهد يوسف آخر أغراس الأشجار، وودع البلد تاركًا خُضرة أمشير الوفيرة بلا أحد، والأمطار الجارحة كالدموع.

يقول العجوز:

- الآن لم أعد أرى الأفق، ولم أعد أسمع غناء البنات. الآن تنتهي حدود البلدة عند حافة الترعة. لو جاء يوسف الآن وأخذني في أحضانه فلن أراه، ولن أعرف إن كان يبكي أم يضحك.

الأم صامتة، ما زالت تعشق كتلة العظم، وسط هذه العباءات الفضفاضة، أيامه القريبة والبعيدة، زمان عندما كان يخطو كانت تهتز له أركان البيت، وعندما يعلو لهاث رغبته تشعر أنها في دنيا أخرى، لكن الأيام التي مضت لا تعود. كانا قد تزوجا في شهر بؤونة. كانت مياه النيل داكنة كالدم، ثم تفيض كالحيض. تبدأ عيدان الأرز الخضراء في التسلل من باطن الأرض، ترتجف العيدان النحيلة تحت الشمس القاسية. كان الليمون صغيرًا، والنحل غاية في الحركة والنشاط، يفرز العسل فوق قرابين الذكور، تتفجر الحرارة في كل الأبدان، ويصعد القمر من منازله بهيجًا، ثم ما يلبث أن يتغضن ويترك السماء سوداء.

يمر عليهما العمدة وشيخ البلد والغفر، كانوا قد ملوا من كثرة إلقاء السلام، لا أحد منهم يصدق أن يوسف سوف يعود، وسيعاود زراعة القطن، وتكون شجيراته أعلى ما في البلد.

يقول العجوز:

- لا يهم السمع، المهم أنه قبل أن يكل بصري تمامًا سيعود يوسف ويحضر الدواء.

تؤكد عليه العجوز:

- أجل، سيحضر الدواء، وتعود سليمًا معافى.

- ليته يعود قبل شهر طوبة، قد لا يمر علينا هذا الشهر ونحن أحياء.

على الرغم من أن ما زُرع في هذا الشهر لا يخيب، فقد مات طفلها الثالث ولم تعقب. عبرت ريح العقم القرية تزوم رحيلًا وموتًا. يومها كان يوسف يستعد للسفر الطويل، خلع الجلباب الأزرق، ورمى الفأس، ووضع يده فوق كتف غباشي وأوصاه، لكن غباشي ضحك دون أن يفهم شيئًا. لم يشتل البرتقال، لم تشتل القشطة، وظل القطن بذورًا ضائعة يتيمة في رحم الأرض العطشى.

في صلاة الجمعة قال شيخ الجامع:

- في مثل يومنا هذا مات عمر بن الخطاب، وختمنا عامنا الهجري، جعله الله مغفور الذنوب.

نبتت أزهار الطماطم ورحل يوسف، حمله القطار الغريب إلى بلاد أشد غرابة. وعندما جاء شهر هاتور كانت بدرية لا تزال تبكي. حلقت طيور السمَّان المهاجرة بحثًا عن مكان دافئ. غرس الأب صفًّا من غصون الجازورين على رأس الحقل، قال لها:

- هذه أشجار يوسف حتى يعود، فيجد الصقيع قد ذهب وأرضه دافئة.

غرس غباشي القطن للمرة الثانية. أزاحت بدرية الغبار من فوق أثاث العُرس لمرات لا تعرف عددها، تركت السرير ذا الملاءات الناصعة وأصبحت تنام على الأرض. ملأت شتلات البصل صفوف الأرض حتى الأفق. نصب الصيادون شباكهم. رف السمَّان ثم وقع يائسًا قبل أن يصل إلى بلاد الدفء، قالت بدرية لنفسها: «هذه قسمتي وهذا نصيبي». رأت غباشي يفعلها مع الحِمارة، فارتجت بعنف، ظلت تقيء حتى نظرت إليها الأم العجوز في شك، وشعرت بدرية بالاشمئزاز حتى من رؤيته.

انهد حيل الأب العجوز فأقعى تحت شجرة الجميز، وظل يصبر نفسه: «سيأتي اليوم»، هكذا كل يوم. وجاء شهر بشنس بشمسه الواهنة. بدت البلدة أشد كآبة واصفرارًا، تكاثرت النباتات الشيطانية على حافة الترع والمياه الراكدة، أزهرت في ألوان وحشية صارخة، طن النحل يبحث عن غذائه، وتفتحت أكاليل سنابل القمح في بهاء لا حدَّ له. رحلت بدرية إلى أهلها وعادت بعد أسبوع، رأت أباها وأمها وأخواتها، ولم تقص عليهم شيئًا، لأنه لم يكن هناك ما يقال. حلمت بغباشي يفعلها مرة أخرى، فنهضت في منتصف الليل وظلت تقيء في الزريبة والجاموسة ترقبها حذرة. امتص الأرز كل ما عليه من ماء، وبدت الأرض سوداء ومستوية ومليئة بالوعود، تفتحت أرحامها حتى تقي بمواعيد غرسها، وظل الأفق بعيدًا.

يقول الرجل العجوز فجأة:

- سيتوقف قلبي يا أم يوسف! هل تسمعين أي خطوات؟

تقول بسرعة:

- لا، لا أحد.

لكنها تحس أن هناك شيئًا ما، لعله يتخلق الآن من شواظ الشمس وغبار الظهيرة. من الحقل البعيد تناهت أصوات الأنفار وضحكات البنات، أصبح الهواء ثقيلًا، تقترب الأصوات بلا تميز، هذه اللحظة يهتز الأفق وتتداخل ألوانه.

قال:

- إنه يوسف، أحس بأنفاسه.

تحاول المرأة أن ترد، لكنها تظل مشدودة بكيانها نحو الطيف المجهول، تسمع كلماته ولا تعيها.

يهتف الأب بصوت عالٍ، يحاول النهوض فلا تساعده الأم، يسبها ويسب كل شيء. يشير الطيف إشارته الأخيرة ثم يتركهما ويختفي خلف حاجز الحطب.

يقول الأب في خيبة أمل:

- لم يكن يوسف!

وتنفجر الأم بالبكاء. وكانت تحسب أن كل ما فيها قد جف تمامًا. لكن الدموع تنثال من عينيها قانية.

الليل

وضع الجندي كفيه حول فمه، وزعق بأعلى صوته:

- يا ريس س س...

تكسر الصوت فوق وجه الماء المتغضن، تردد في سكون الليل. الضابط يقف بجانب العربة، كان منهكًا وعصبيًّا، حاول أن يهدئ نفسه بالتدخين، وهذه المرَّة لم يعزم على باقي الجنود. توهج ضوء الولاعة للحظة كاشفًا عن نباتات الشط والشجر ووجه الجندي الذي يقف بجانبه وهو يصيح:

- يا ريس س س س...

قال الضابط:

- هكذا لن يرانا أحد، شغل العربة وأشعل كل الأضواء.

زام المحرك، وارتجت العربة «الزيل»، ورفع الضابط يده خشية أن تنزلق في الماء. أشعل الجندي السائق المصابيح الأمامية الأربعة والضوء الداخلي. انتشر الضوء فوق سطح الماء مثل برق ساكن. كانت السماء والنجوم والشاطئ الآخر بعيدة تمامًا، والجندي يعود للصياح:

- يا ريس متولي، يا ريس المعدية.

يقفون كتلة واحدة تحت برد النهر: الضابط، والجنود الأربعة، وسائق العربة، وصندوق طويل ملفوف، ورحلة مضنية منذ الصباح. بلاد تلد بلادًا، وأرض شرقى على امتداد البصر، والعربة العسكرية الضخمة ضائعة وسط شبكة كثيرة الترع والمصارف التي تمر بها، تتوقف على أطراف

كل بلدة، البيوت متشابهة والأسماء متداخلة، يصطدم ناسها بالسؤال ولا يستدل الجنود بالجواب. شرقًا وغربًا والموت واحد، وسبحان الذي وهب وسبحان الذي سلب.

ومن الشط الآخر يأتي الرد أخيرًا ممزقًا الصمت:

- جاااااي.

يتنهد الضابط بارتياح. يعطي سيجارة للجندي الذي بجانبه، يهتف الجندي:

- تمام يا فندم.

ويتراجع هو والجنود الآخرون إلى مؤخرة العربة حيث يرقد الصندوق. يرتفع صوت الماء من الشاطئ الآخر، وتتحرك السلسلة المعدنية الصدئة التي تربط بين الشاطئين، تتحرك كتلة المعدية خلال الظلام. يرون مصباح الجاز الواهن وهو يتحرك على سطحها، تبعث ضجة الماء بعض المؤانسة في الجو الثقيل، ويرتفع صوت الريس العجوز يغمغم بالأدعية: «اللهم يا مرسل المياه احمنا من شرها، اللهم يا مُسير الأنهار جنِّبنا غدرها».

ببطء تدخل المعدية منطقة الضوء، يظهر الطوف المتآكل والطحلب الأخضر الجاثم على حوافه، تظهر الكلمات المكتوبة بخط ركيك على المقدمة: «سيري بأمر الله».

ويبدو المعداوي وهو واقف بجانب الدفة، يحملق فيهم محاولًا أن يعرف ماهيتهم. يتقدم الضابط حتى يصبح في مواجهته، يضع غطاء رأسه ويعدل قامته.

قال الريس:

- تأخرتم. أبلغني شيخ الغفر أنكم ستأتون في الصباح.

قال الضابط:

- ضللنا الطريق. دخلنا أكثر من قرية، وكلها متشابهة.

قال الريس:

- كلها بلاد مسلمين، وكل المقابر صالحة للدفن.

يقفز الريس من المعدية، يمسك في يده حبلًا من ليف النخل، يربطه في إحكام إلى إحدى الأشجار. يشير الضابط إلى الجنود، يتوجهون جميعًا إلى مؤخرة العربة، يشعل الضابط ولاعته مرة ثانية، يحيطون بالصندوق الوحيد ويبدأون في رفعه، تصدر عنهم أنات ضئيلة، كأنهم هم أيضًا جرحى ينزفون منذ الصباح، وكأن كل قرية دخلوها، بطريق الخطأ، تركوا فيها بضع قطرات من دمهم.

هبطوا بالصندوق من العربة وهم يحاولون أن يحافظوا على توازنهم، حملوه إلى المعدية، وضعوه وسط الطوف الخشبي، ولكن الريس أشار إليهم:

- ضعوه على جنب، هناك فتحة في المنتصف وأخشى أن تتسلل المياه إلى الصندوق.

نقل الجنود الصندوق وأقعوا بجانبه. كان المعداوي العجوز يراقبهم وقد حلت عليه الكآبة، رفع إصبعه حتى يتشهد ولكنه لم يستطع. ظل لهب المصباح يتراقص، يكشف عن وجهه المليء بالتجاعيد، وعينيه اللامعتين بدموع لا تُذرف. أطفأ السائق مصابيح العربة. ساد ظلام رطب. يصبح الجميع فوق المعدية. كان المعداوي لا يتحرك، ينهض أحد الجنود ويجذب الجنزير الصدئ، تبدأ المعدية في التحرك نحو الشاطئ الآخر.

بدأ الماء يهمهم وهو ينزاح، تكاثفت الظلمة، أحاطت بهم أرواح برية موحشة، بدا أن تراتيل النعي الطويل قد سرت في الريح ومدت نشيجها حتى ظلمة الشط الآخر، هبطت على جراحهم كالملح، أصبحت التيارات الباردة فاترة كرجيع البكاء والتأوه.

ألقى الضابط عليهم أمرًا ما، لم يستجب له أحد، ظلوا ملتفين حول الصندوق، رفيقهم القديم أوشكت رحلته على الانتهاء. لم يكن الشاطئ يقترب فقط، كان يطبق عليهم، ترتفع منه همهمات عالية.

قال الضابط مرعوبًا:

- ما هذا؟!

اصطدمت المعدية بالشاطئ، ارتج الصندوق وتشبث به الجنود. قال المعداوي:

- أهل البلد جميعًا في انتظاركم منذ أن جاءت الإشارة.

في الضوء الواهن اكتشف عشرات الوجوه، متراصة على الشاطئ كأحجار البئر. لم يعرف الضابط ماذا تخفي الظلمة، وماذا يرتسم على الوجوه؛ كراهية أم خوف. يتوقف الضابط والجنود صامتين، وأصبح كل شيء قاتمًا ثقيلًا. انحنى الجنود على الصندوق يحاولون رفعه. انفجر الجو فجأة بالهمهمات. أطلقت امرأة ذات صوت نحيف حاد نعيبها الأول:

- يا خوياااااا!

صاح الجميع فجأة، ارتفعت من حناجرهم الغمغمات والتأوهات والبسملة وأدعية الاستغفار.

هتف الضابط في عصبية:

- ضوء، أي ضوء.

انسلت من بين الجموع امرأة ترتدي السواد، خرت على الصندوق وهي تنشج بالبكاء، أوشكت أن تسقطه من أيديهم، أزاحها الجنود من أمامهم، ولكنها ظلت تواصل الصراخ:

- يا خوياا، يا شمسي وقمري، يا ضهري وسندي.

تقدم رجل ضخم وهو يقول للضابط:

- أنا عمدة البلد، تفضل يا حضرة الضابط، لقد تأخرتم.

الضابط ينظر إليه قليلًا، ثم ينظر إلى حركة الناس وهي تتدافع حول الصندوق، كان مرعوبًا، زعق شيخ الغفر:

- وحدوا الله يا بلد!

قال الضابط:

- هل أنت من أقاربه؟

قال العمدة:

- هذه هي المشكلة، كلنا هنا أقارب، وكل واحد هنا يشعر أن المرحوم يخصه!

كانت الجموع تتدافع، اختفى الجنود، ولم يبقَ إلا الصندوق ظاهرًا بعض الشيء.

صاح الضابط في عصبية:

- كيف تعيشون جميعًا في هذا الظلام؟! ألا يوجد أي ضوء؟!

صاح العمدة:

- أشعل الكلوبات يا شيخ الغفر.

والتفت إلى الضابط وهو يقول:

- لا تؤاخذنا، نسيت أنكم من البندر، نحن نعيش في هذا الظلام منذ آلاف السنين!

بدأوا في إشعال الكلوبات، انبعث منها ضوء ساطع، بدت وجوه الناس أشد حزنًا، وثيابهم أكثر اتساخًا، ولم يظهر الجنود الذين كانوا معه.

قال الضابط:

- أين أبوه وأمه؟

سار معهم العمدة إلى شجرة ضخمة، وتعالت الأصوات من خلفهم تردد في صوت رتيب:

يا دايم

يا دايم

ولا دايم إلا الله

أشار العمدة نحو رجل عجوز مثقل بالعباءات، وبجانبه امرأة عجوز ملتصقة به. انحنى الضابط وتناول يد العجوز المعروقة وهزها بحذر، وقال:

- البقاء لله، قلبي معكما، كان من أحسن رجالي!

ثم نصب قامته، وأخذ يتحدث بصوت عالٍ، مليء بالانفعال، كان ينتظر هذه اللحظة ليعبر عما كتمه طوال هذه الرحلة المضنية. تحدث عن الخوف من بزوغ القمر لأنه يجلب المزيد من القذائف، عن رفقة الحُفر والخنادق، وعن صحبة الفئران وبنات آوى، في لحظات الحصار والمجاعة، ودموع الرجال وهم يقسمون أن يعيشوا معًا أو يموتوا معًا، ميراث الخوف والشجاعة. وتحدث عن الشهيد وهو يخوض في رمل الصحراء ويغوص في المياه وعلى كتفه زميل جريح، عن الرقة والبكاء والحنين، وبلد غريب اسمه «مصر»، لا يرتوي إلا من دم أبنائه! ففي الوقت الذي رحلت فيه كل الآلهة خلف الغمام، ظلت الآلهة في مصر حية تطالب بقرابينها. في قرية مثل هذه، في ليل مثل هذا، تستيقظ كل أرواح الموتى لتبقى، لذلك فإن مصر هي البلد الأكثر ازدحامًا، لأن الموتى والأحياء يعيشون متلاصقين في واد ضيق، فالخط الفاصل بين الموت والحياة رفيع ولا يكاد يُرى!

تقول له الأم العجوز أخيرًا:

- إنه لا يسمع يا بني! لا يكاد يرى!

يسير حملة الكلوبات في مقدمة الجنازة، ويُصر أهل البلد على حمل الصندوق بعد أن كشف الضوء عن ألوانه الثلاثة، ويتوجه الجميع إلى طريق المقابر.

يقول العمدة:

- أنت والجنود ضيوفي الليلة.

لا يرد الضابط، كان تعيسًا ولا يشعر بأي رغبة في الطعام.

ينكفئ الأب العجوز وهو يحاول النهوض. بدأ إيقاع الولولات يشق الليل:

أبكي عليه سنة

وبعد السنة سنة

اقترب فلاح غريب الهيئة من الضابط، الوحيد الذي كان يرتدي جلبابًا نظيفًا، سأل الضابط في تحدٍّ:

- هل مات في الحرب حقًّا؟

التفت الضابط إليه فزعًا:

- ماذا؟!

اختفى الرجل وسط كتلة الرجال.

فكر الضابط: إنهم يُحملونني ذنبه!

قال للعمدة ليتوقف عن إلحاحه:

- آسف! لا بد أن ننصرف هذه الليلة. هل المقابر بعيدة؟

الجنود الأربعة حيارى كاليتامى، يحاولون السير وسط الجمع، ولكنهم يجدون أنفسهم على جنب، بعيدًا عن الصندوق، كأنه لم يعد زميلهم.

كانت المقابر فوق ربوة عالية، أحسوا بالضآلة وهم يصعدون المنحدر. كانت كل القبور مشرئبة كأنها في انتظاره، وكان العلم ذو الألوان الثلاثة قد تمزَّق من كثرة تدافع الأيدي، وظهر الصندوق قديمًا، مكتوبة عليه حروف وأرقام غامضة.

تلاصق الجنود في بعضهم وهم يرتعدون. قال أحدهم في حسرة:

- لم نحضر معنا البنادق والطلقات، كان يجب أن نطلقها عند قبره!

قال الآخر في سرعة:

- سوف يغفر لنا.

أشاح الضابط بوجهه، حدق في العمدة بوجه جامد؛ كان لا يريد أن يتوقف عن الكلام ولا المجاملات. قال له:

- هل كان ابنهما الوحيد؟

قال العمدة بلامبالاة:

- هناك ولد آخر، أهبل.

قال الضابط كأنه يحدث نفسه:

- لقد حمانا بنفسه، غطى انسحابنا، ولولاه لحدثت كارثة!

وقف ثلاثة من الحفارين، رفعوا فؤوسهم، حل سكون ثقيل، كفت النسوة عن النواح، وكفت الريح عن الهبوب.

تقدم شيخ عجوز مهلهل الثياب، يقوده صبي ضامر حتى أوقفه أمام الصندوق.

انتظم الضابط والعمدة والجنود والأهالي في صفوف، وارتفع صوت الشيخ الواهن بالتكبيرات المتتابعة، ثم سكت هو أيضًا. رفع قامته وظل يحدق عبر التل والمقابر، لعله كان ينتظر شروقًا أو بعثًا، ثم أنهى الصلاة بسرعة متجهمة.

وعندما هبط الحفَّار واستعد لتلقي الجسد، اقتربت اللحظات الختامية.

ارتفع الصوت الناعي الغريب يبكي كل الشواهد وكل القبور:

- يوسف يا ضيا العين.

ورفع الشيخ الضرير صوته وهو يحاول أن يوصي الميت كيف يتجنب عذاب القبر:

- وأخبرهم يا عبد الله، أنك عشت مسلمًا، ومت مسلمًا. وأخبرهم يا عبد الله أن هناك إلهًا واحدًا، وقدرًا واحدًا. وأخبرهم يا عبد الله... يا عبد الله...

لمس العمدة ذراع الضابط، وأشار نحو قبر بعيد:

- هذا هو أخوه.

بدأوا يلقون التراب في الحفرة الفاغرة. بكى أحد الجنود فجأة بحرقة وبصوت عالٍ، ربت واحد من الأهالي على كتفه وهو يبكي أيضًا. ملأت الأم قبضتها بالتراب، رفعتها عاليًا كأنما تُشهد الجميع، سقط فوق رأسها، سقط فوق رأس شيخ الغفر، نفضه وهو يتمتم بكلمات الاستغفار. ونظر الضابط نحو القبر البعيد. كان هناك شخص ضخم جالسًا، يبكي بصوت عالٍ، كان يلوك الصبار، وكان عاريًا تمامًا.

المحلة الكبرى

يناير ١٩٧١

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

رس المحتويات

عن الكتاب..

بيع نفس بشرية

الوداعة و الرعب

اتجاه واحد للشمس

يوم مصري جاف